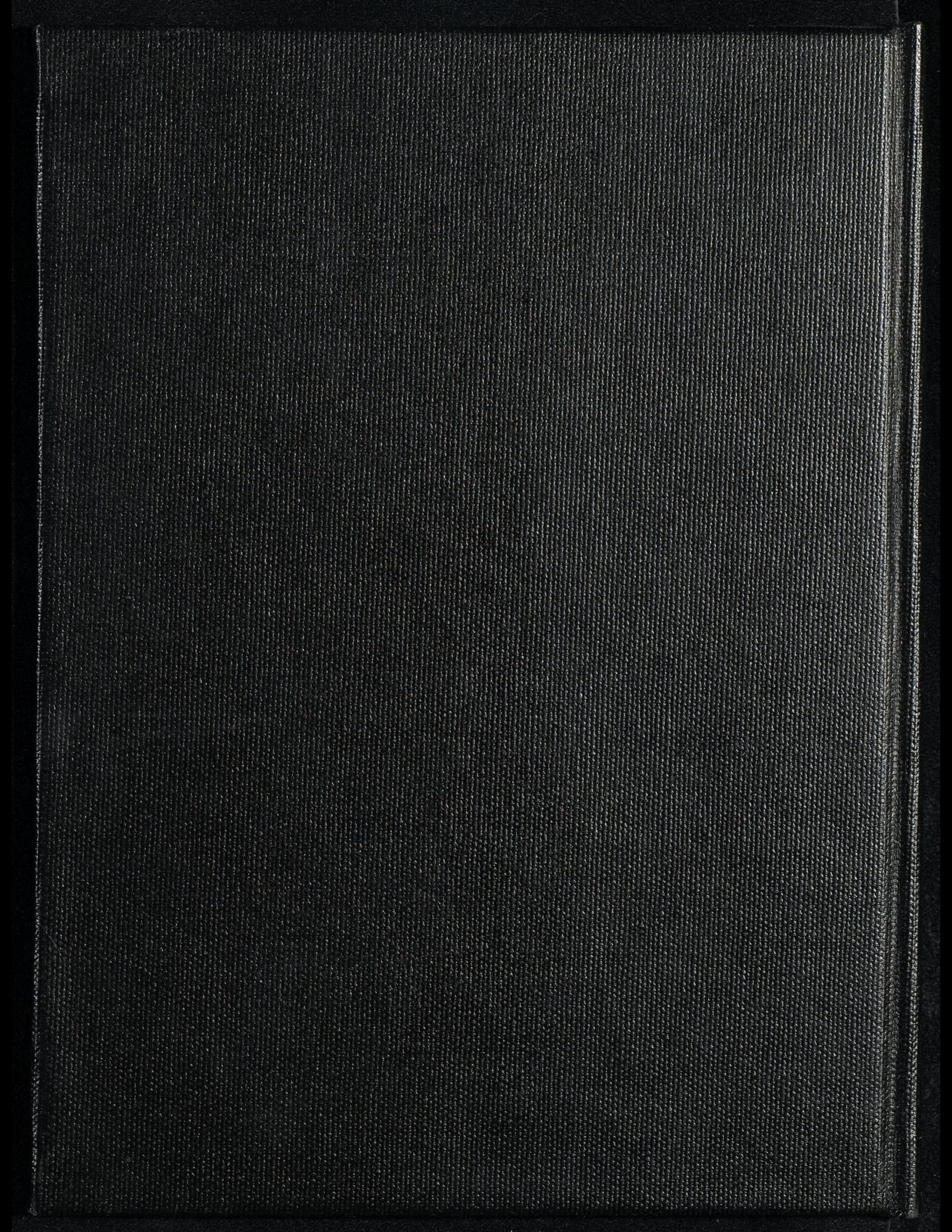
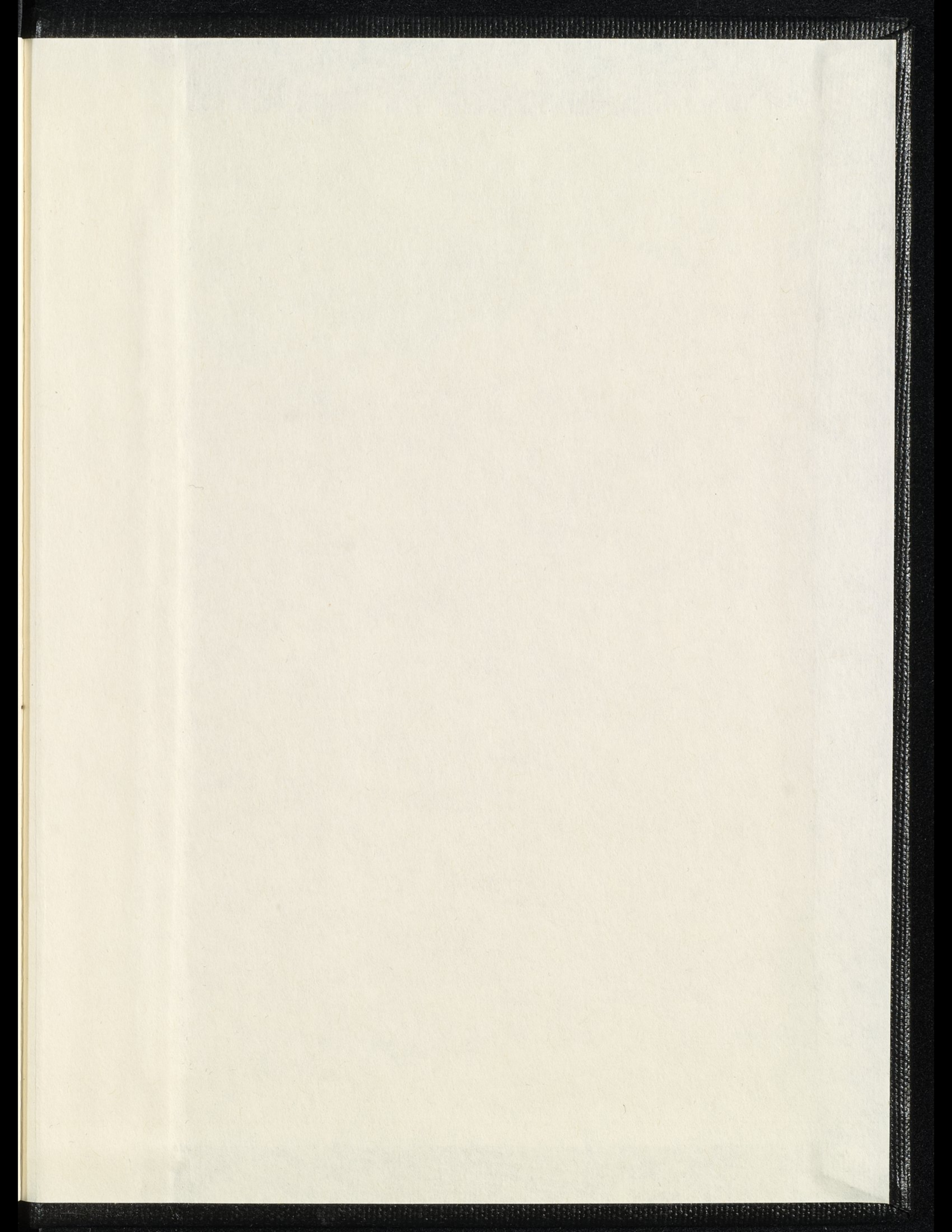
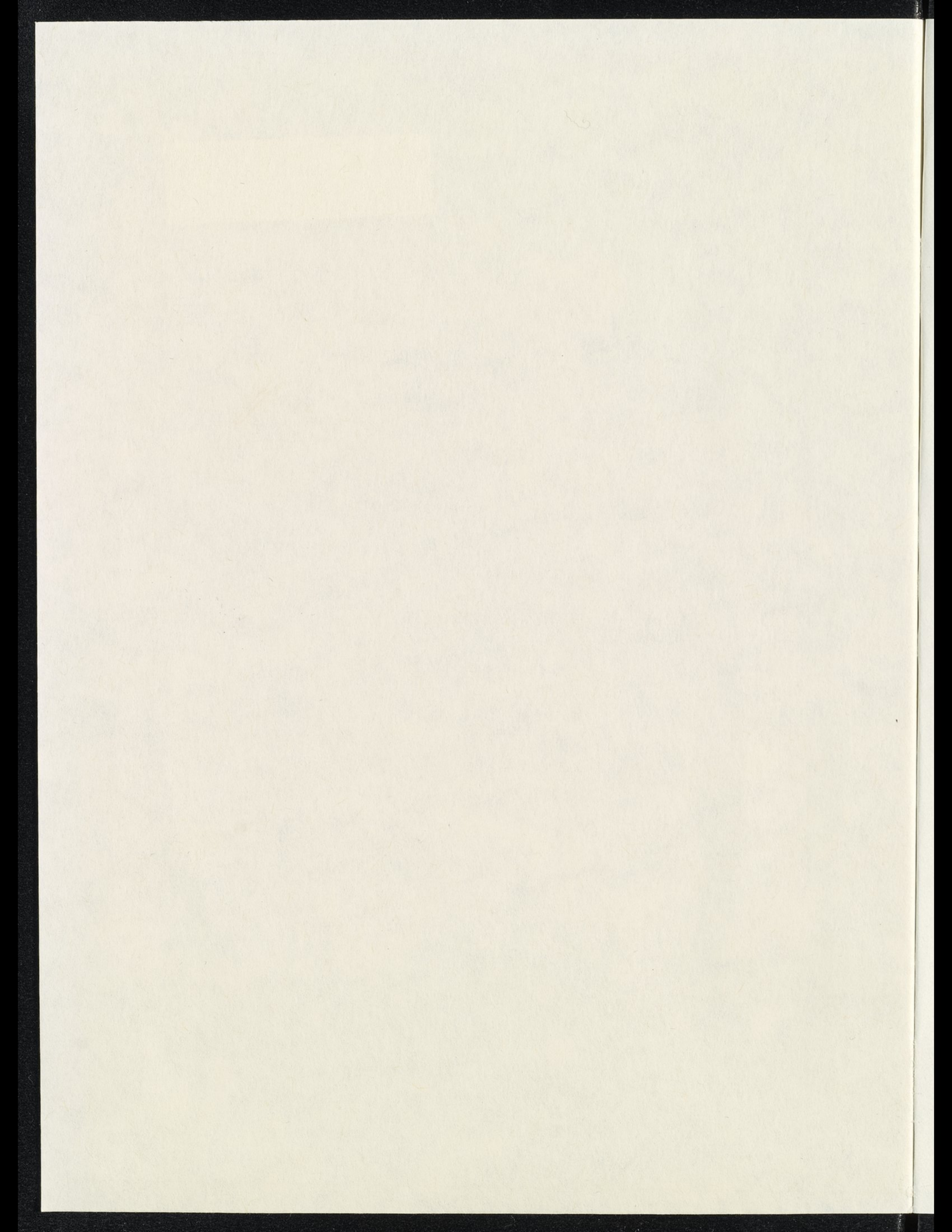
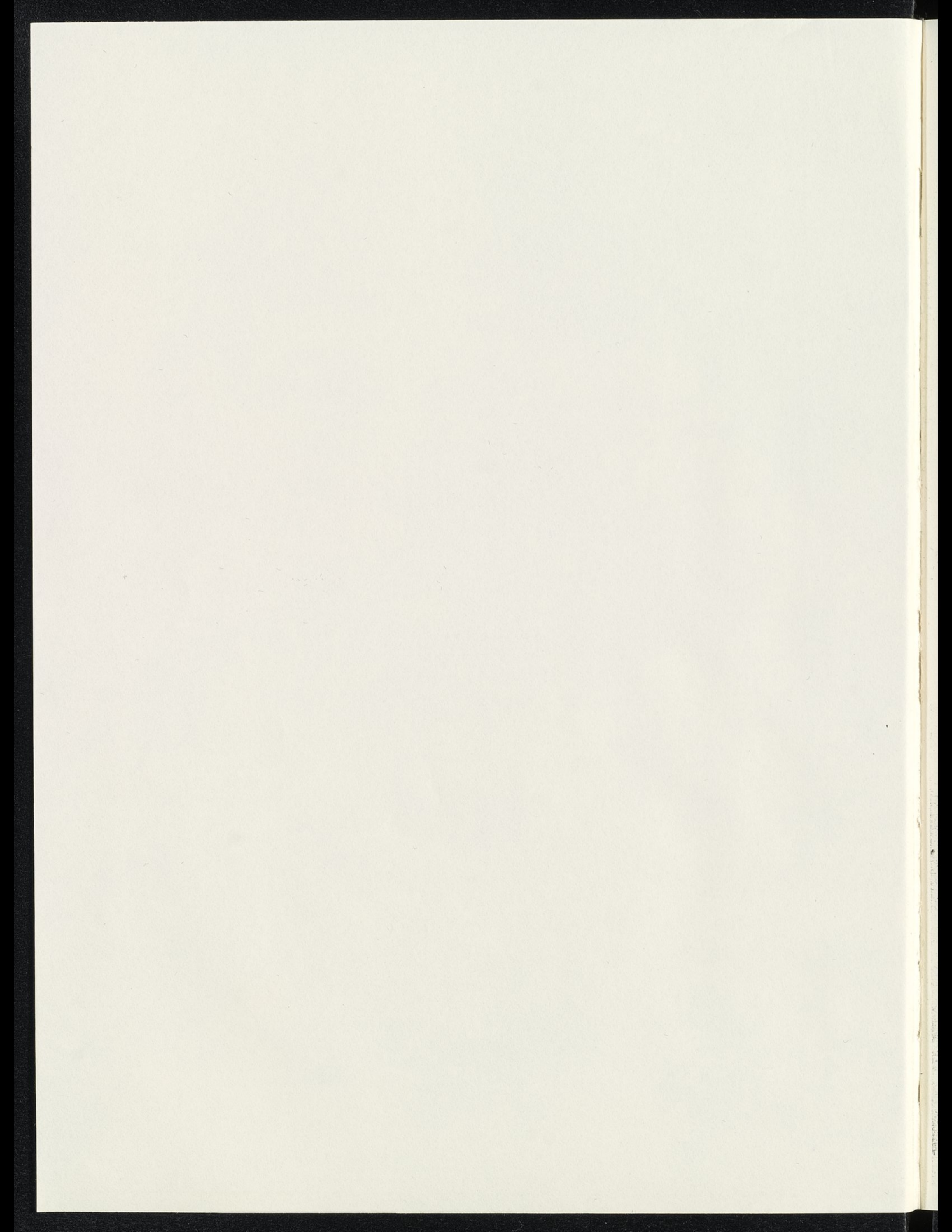
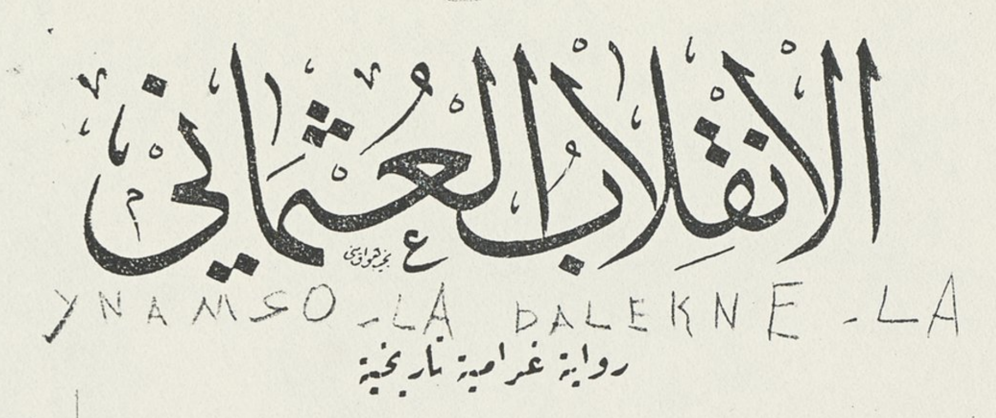





CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 073 798 393










رواية غرامية تاريخية



هي الحلقة الاخيرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

تتضمن وصف احوال الاحرار العثمانيين وجمعياتهم
السرية وما قاسوه في طلب الدستور . ووصف يلدز
وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه واعوانه
وسائر احواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل
الدستور في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠٨

تأليف

جرجي زيدان
NADYAZ YGREG
منشىء الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩١١

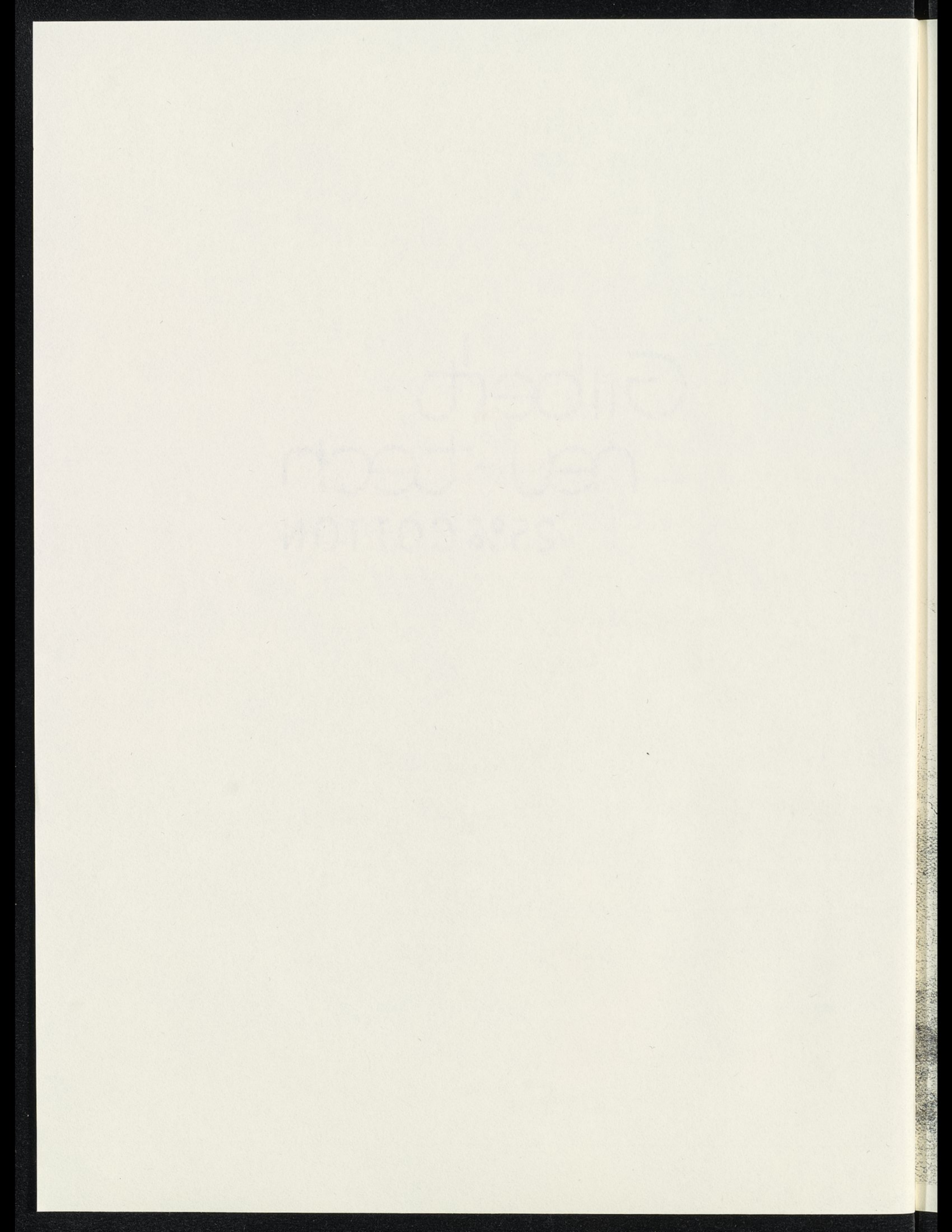

CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
ITHACA, N.Y.

# المقدمة

وصلنا في سلسلة روايات تاريخ الاسلام في السنة الماضية الى الحلقة الرابعة عشرة وهي رواية عبد الرحمن الناصر الاندلسي في اوائل القرن الرابع للهجرة . ولا يزال لدينا من هذه السلسلة عدة حلقات قبل الوصول الى الانقلاب العثماني في اوائل هذا القرن . ولكن القراء اقترحوا تاليف رواية عن هذا الانقلاب والحوا في ذلك فلم نجد بداً من اجابة اقتراحهم فكتبنا هذه الرواية وصفنا فيها الاحرار العثمانيين وجمعياتهم السرية ومساعيهم في طلب الدستور ومثالاً مما قاسوه في سبيل ذلك مع وصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه واعوانه وسائر احواله الى فوز جمعية الاتحاد والترقي بنيل الدستور في ٢٣ يوليوسنة ١٩٠٨ .ولم نتجاوز ذلك الى الانقلاب الثاني الذي خلع فيه عبدالحميد وتولى جلالة السلطان الحالي محمد الخامس

وقد سميناها « رواية الانقلاب العثماني » وجعلناها من جملة سلسلة روايات تاريخ الاسلام . وبما اننا لا نعلم كم عدد الحلقات الباقية بينها وبين رواية عبد الرحمن الناصر فقد عددناها الحلقة الاخيرة من تلك السلسلة

وسنعود في السنة القادمة الى تتبع حلقات السلسلة حسب الاعصر. فنكتب رواية في اهم الحوادث الاسلامية بعد عبد الرحمن الناصر ونعلن ذلك في حينه وبالله التوفيق



# الفصل الاول

## حديقة البلدية في سلانيك

سلانيك او سالونيك من اكبر مدن المملكة العثمانية وقد اشتهرت مؤخراً بنيل الدستور على ايدي احرارها . وهي واقعة على البحر مثل موقع ازمير وسكانها نحو ١٥٠ الفاً منهم ستون الفاً من اليهود والباقون من الاتراك والاروام والمقدونيين والالبان وسائر الاجناس . والسبب في كثرة يهودها انهم نزحوا اليها من اسبانيا كما نزحوا الى الاستانة وغيرها . ولا يزالون يتكلمون لغة الاسبان . والمدينة رصيف عريض يمتد على شاطئ البحر مسير نصف ساعة قد غرست الاشجار على جانبيه تحدّه المنازل الفخيمة من جهة والبحر من الجهة الاخرى وهو اجمل منتزهات سلانيك يؤمه الناس ساعات النزهة في العربات او الترامواي أومشاة على الاقدام

وفي سلانيك حديقة للبلدية هي احسن منتزه لتمضية الاوقات بالمنادمة والمحادثة وهي كبيرة واسعة فيها كل انواع الاشجار والرياحين والازهار ومطعمٌ وقهوات وتياترو نحو حديقة بتي شان في الاستانة وحديقة الازبكية في مصر يأتيها طلاب النزهة او اللهو نهاراً وليلاً وخصوصاً بعد الظهر الى العشاء . فانك تجدها غاصة بالواردين وفيهم الشاب والشيخ والصبية والعجوز ازواجاً او ثلاثاً او جماعات على اختلاف الاديان والاجناس من الافرنج او اليهود او الاتراك على تباين عاداتهم واخلاقهم . بعضهم يجلسون الى موائد يتعاطون المشروبات والبعض الآخر يمشون في طرقات الحديقة بين الاشجار يتمتع الناس بالتفرج بعضهم على بعض وقد اختلط الحابل بالنابل وكل منهم في شاغل بنفسه او بعائلته واولاده يراعيهم ويهيئ لهم ما يطلبون . او يتحدثون بما يطيب لهم بلا مراقبة ولا حذر

أما في زمن الاستبداد على عهد عبد الحميد فكان الناس اذا دخلوا الحديقة اوغيرها من اماكن الاجتماع تخاطبوا همساً خوفاً من جاسوس اوواش يغتنم لفظة يسمعها فيتجر بنقلها الى المابين واصحابه فيعرض قائلها للموت او الخراب . وقد لا يكون لذلك القول غرض او مغزى . ولكن الجاسوسية في زمن ذلك الطاغية بلغت مبلغاً لم يكن له مثيل في زمن من الازمان وخصوصاً في اواخر ايامه اذ تبدأ روايتنا هذه

ففي اصيل يوم من ربيع سنة ١٩٠٧ كانت الحديقة المشار اليها في ابهى حلاها قد

كستها الطبيعة حلة خضراء مزركشة بالازهار والرياحين وصفا الجو وفاحت رائحة الحقل باجمل ما يكون . وتقاطر الناس اليها على جاري العادة وفيهم النساء اكثرهن بالزي الافرنجي وبعضهن على الزي التركي . والتركيات اذا اتين الحديقة اخترن ناحية منها منفردة يجلسن اليها حتى لا يكن عرضة لعيون المارين . هناك تحت شجرة من الكستناء غضة الاغصان جلست امرأة متوسطة العمر على مقعد من مقاعد الحديقة والى جانبها فتاة في مقتبل الشباب . ولو رافقتني الى هناك في ذلك اليوم لرأيت ما يستوقف الخاطر من جمال وادب وذكاء وكمال

---

# الفصل الثاني

## شيرين

كان لباس المرأتين على الزي التركي الاخير لا يظهر منه الا رداء بني اللون كالبرنس له اكمام . يكسو الجسم كله كالجبة الواسعة . وعلى الرأس خمار شفاف يكسوه كله الا بعض الوجه . وكان شعر المرأة الكهلة مضفوراً على الزي القديم . اما الفتاة فقد ضفرته على النمط الافرنجي وغطته بالنقاب الشفاف ولا اظنك تحتاج الى امعان كثير في وجهيهما حتى يتبين لك ان الفتاة ابنة الكهلة لكثرة ما بينهما من المشابهة

وكان في يد الفتاة جريدة فرنساوية تطالع فيها وهي تحاذران يراها احد وقد طوتها طيات كثيرة حتى يصغر حجمها ولا ينتبه لها الناس فتقرأ ما يظهر منها ثم تديرها لقراءة ما بقي ووالدتها تنتظر ما تترجمه ابنتها من المقالة التي تقرأها . فلما طال انتظارها قالت بلسانها التركي « ما بالك لا تقرئين ياشيرين ؟ »

فرفعت الفتاة رأسها من الصحيفة ونظرت الى ما حولها كانها تحاذر ان يسمعها احد وقالت بصوت منخفض « ما ذا اقرأ يا اماه ؟ اني ارى رامزاً قد شدد اللهجة كثيراً هذه المرة »

قالت « انتِ تقرئين مقالة رامز ؟ كيف عرفت انها له ؟ هل وضع اسمه تحتها ؟ الا يخاف الرقباء ؟ »

قالت بحذر وهدوء « انه لا يوقع المقالات باسمه وانما يرمز عنه بحرف A وكل

مقالة في هذه الجريدة موقعة بهذا الحرف فانها له ولا يعلم ذلك احد سواي وسوى صاحب الجريدة . ولو اطلع رجال المابين على فحوى هذه المقالة لاخذهم الغضب »

قالت « وما هو فحواها ؟ »

فاقتربت منها وقالت همساً « انه يشدد النكير على عبد الحميد ورجاله ويهددهم بزوال ملكهم ويحتج عليهم وينسب اليهم الظلم والنهب . سامحه الله انها لهجة شديدة ولكنهم يستحقون اشد من ذلك »

فقالت والدتها « ولكننا نخاف على عزيزنا رامز من غدرهم »

وكانت شيرين ذات جمال جاذب مهيب وفي عينيها ماء لامع ينمّ عن الذكاء وسرعة الخاطر وعن شدة عاطفة الحب . وكانت طويلة القامة مع اعتدال وتناسب والصحة بادية في محياها وقوة الارادة ظاهرة حول فمها . لاينظر اليها ناظر الا هابها . وقد زادها العلم رونقاً وطلاوة لانها تثقفت احسن تثقيف وهي تحسن التركية والفرنساوية والرومية لغة تلك البلاد تكلماً وكتابة والفضل في ذلك الى والدتها فقد كانت من فضليات النساء واقواهن عقلاً وقد ربت ابنتها على الحرية وصدق اللهجة . فشبت شيرين كبيرة النفس قوية العزيمة تكره الظلم والظالمين . وقد احبت رامزاً كاتب تلك المقالة واحبها منذ الصبا وهو ابن خالتها وقد ماتت امه وهو صغير فعني ابوه بتربيته تربية خصوصية وغرس في قلبه حب الحرية وكره الظالمين لغرض سنذكره

فنشأت شيرين ورامز معاً وقد تحابا وامتزجت روحاهما وتعاهدا على الاقتران وكان هو من ارباب الاقلام يكتب الفرنساوية كما يكتب لغته التركية . واشتهر بين معارفه بحب الحرية فلم يجد سبيلاً للارتزاق من خدمة الحكومة كما جرت عادة امثاله من الشبان المتخرجين من مدارس الحكومة وربما سعى له بعض المتنفذين في خدمة فلا يلبث فيها اياماً حتى يخرج منها . فجعل همه الارتزاق من قلمه بمكاتبة الصحف التركية في الاستانة والفرنساوية في باريس بتوقيع مستعار واكثر مايكتبه في تلك الصحف انتقاد على الحكومة

والكتابة لذيذة وكانت تلذ لرامز على الخصوص لانه كان يجعلها وسيلة للاجتماع بشيرين . فاذا كتب مقالة واعجبته قرأها لها وسمع ملاحظاتها عليها وكثيراً ما كانت ترشده الى الصواب في بعض المواضيع لانه كان شديد الوطأة سريع الاندفاع فيقوده ذلك الى التطرف وكانت هي اعدل منه مزاجاً واربط جأشاً فتنتقده وتباحثه فيلذ له الرجوع الى رأيها — اما المقالة التي كانت تقرأها في ذلك اليوم فلم يكن اطلعها عليها قبل ارسالها فجاءت شديدة اللهجة

# الفصل الثالث

## رامز

فلما قالت لها امها « ولكننا نخاف على عزيزنا رامز من غدرهم » ظهرت البغتة عليها كأنها انتبهت لشيء فاتها وتصاعد الدم الى محياها ونظرت الى امها وقالت « صدقت يا اماه ان رامزاً يعرض نفسه للخطر ولو اطلعني على هذه المقالة قبل ارسالها لعدلت لهجتها... سأعاتبه على ذلك متى جاء .. يا ربي ما باله تأخر والشمس كادت تغيب ؟ » قالت ذلك والتفتت نحو باب الحديقة فرأت الداخلين يتزاحمون ورامز ليس معهم . ثم وقع بصرها على شاب بهي الطلعة منتصب القامة رشيق الحركة تتجلى الحماسة في وجهه ورأت امها تنظر اليه وتبتسم فقالت شيرين « من هو هذا يا اماه اراك تضحكين له ؟ »

قالت « ألم تعرفيه يا شيرين ؟ هذا نيازي بك صديق رامز ورفيقه في المدرسة »

قالت « عهدته ضابطاً »

قالت « نعم ولكن يظهر انه جاء متنكراً »

ولم تكد شيرين تعيد النظر الى نيازي حتى اختلج قلبها لانها رأت رامزاً بجانبه وقد قبض على ذراعه وجعل يقوده نحو تلك الشجرة ونيازي يلتمس التخلص والرجوع . ولما اقتربا من مجلس شيرين وامها سمعتا نيازي يقول « دعني يا رامز فقد داهمني الوقت »

ورامز يجرّه من ذراعه وهو يضحك ويقول « دقيقة واحدة فقط »

ووقع نظر نيازي على والدة شيرين فاسرع اليها وحياها باحترام وحيا شيرين تحية صديق قديم لانها عرفته من قبل وقد خطب فتاة من بنات مناستير تعرفها جيداً . وتقدم رامز والقى التحية وابتدر شيرين بالاعتذار وقال « قد تأخرت عليكما ولكن الحق على صديقي نيازي » وضحك

فقال نيازي « اسمح لي يا رامز ان اودعكم الآن لاني جئت خلسة ولا بد من رجوعي الليلة الى بلدي واني اتأسف لضياع هذه الفرصة فان هذه الجلسة تلذ لي كثيراً ولكنني لا احب ان اترك للقوم باباً للانتقاد حتى يأتي الله بالفرج » وابتسم

فقالت توحيدة والدة شيرين « تسافر الليلة ؟ الى اين ؟ »

قال « الى مناستير يا سيدي ومنها الى رسنة . . استودعكم الله الى اللقاء . كم كنت احب ان ابقى معكم ولكن . . » قال ذلك وحياهم وتحوَّل راجعاً ورامز يتبعه ببصره حتى قرب من منعطفٍ فالتفت اليهم وحياهم وانصرف

وتقدم رامز نحو شيرين وهو يبتسم ابتسام الاعتذار وقال « اظنني شغلت بالك عليَّ . . ولكنني شغلت بصديقي نيازي وانت تعلمين صداقتي القديمة له » وخفض صوته وقال وهو يحاذر ان يسمعه احد « وقد جاء اليوم لمقابلة بعض اعضاء الجمعية فاجتمعنا بصديقنا الشهم انور بك » قال ذلك وهو يقعد على كرسي

فقطعت شيرين كلامه وهي تقعد وقالت « هل ادخلتم نيازي في الجمعية ايضاً ؟ »

قال « ادخله انور بك في غير سلانيك وقد احسن بادخاله لانه من خيرة الضباط اهل المروأة والنجدة ممن يرجى نيل الدستور على يدهم » ولما لفظ كلمة الدستور تنهد وانقبضت نفسه واطرق فادركت شيرين ما جال بخاطرهِ فقالت « لا تتنهد ان والدك سيأتي ولو طال غيابه »

فهز رأسه وقال « يا حبذا ذلك . . كيف ارجو رجوعه بعد دخوله ذلك القصر الجهنمي من عدة سنوات ولم نعد نسمع عنه خبراً ؟ . من من الاحرار يدخل يلدز الملعونة ويرجع منها حياً . . اني لا احسبه الا اغرق في البوسفور كما اغرق مئات قبله ولكنني سأنتقم له » قال ذلك وحرق اسنانه وكاد الدمع يتناثر من عينيه

فاحبت شيرين ان تشغله عن ذلك فقالت « سامحك الله يارامز على هذه المقالة انها كالنار المستعرة »

قال « انها اقل ما يستحقه اولئك القوم الانذال قد آن الوقت يا شيرين ولا تلبثين ان تري الدماء تجري انهاراً »

فاجفلت شيرين عند سماع قوله وتصاعد الدم الى وجنتيها وقالت « ارجو ان لاتجري الدماء بل اتمنى ان يظهر الحق ويزهق الباطل »

قال « وانا اتمنى ذلك ايضاً ولكنهم لا يريدون الاذعان وهذا ناظم بك ( وخفض صوته ) قائد جند هذه المدينة صنيعة ذلك الطاغية واحد ياورانه قد تاتي الاوامر بالتشديد في البحث عن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي والقبض عليهم والتنكيل بهم بلا شفقة لان ظهور هذه الجمعية في سلانيك ادهشهم وهم يبحثون عن زعمائها ليفتكوا بهم »

فبغتت وتوردت وجنتاها والتفتت الى ما حولها كانها تحاذر ان يكون لتلك الشجرة آذان تسمعهم وتشي بهم وقالت « صحيح ؟ من قال لك ذلك ؟ »

قال « جاءنا الخبر من جاسوس لنا في يلدز وقد علمنا منه ان عبد الحميد وقع الرعب في قلبه لما علم ان الضباط ينتظمون في هذه الجمعية المقدسة وايقن ان الجيش لا يلبث ان ينقلب عليه فعمد الى التنكيل بهم فاستقدم ناظم بك اليه ورفع رتبته وزاد راتبه وارفقه بالاوامر المشددة في البحث عن رئيس الجمعية واعضائها العاملين ووعده اذا هو استطاع كشفها بهبات جزيلة »

فقالت توحيدة والدة شيرين « اسكت يا حبيبي . . ان للشجر آذاناً وقاك الله كيد الكائدين »

فقالت شيرين « لله در ابيك اذ لولاه لم تعمد الجمعية الى هذه الخطة »

قال « بل لله در ذلك الثاوي في الطائف المقتول ظلماً وعدواناً انها وصيته قبل موته اودعها اذن والدي لحملها الى الاحرار ولكن آه . . اين انت يا ابي واين باقي الوصية لعلها تنفعنا اليوم ؟ »

فقالت توحيدة « يكفي يا بني ان الحديث قد طال فاحتفظ بسرك واني انبهك الى شيء طالما نبهتك اليه .. احذر ان تذكر شيئاً من هذا القبيل امام طهماز والد شيرين فانه ضعيف الارادة بسيط القلب لا يؤمن معه ان يستغويه بعض الجواسيس ويسرق منه خبرك . . ان طهماز قوي البدن لكنه ضعيف الارادة . » قالت ذلك وتنهدت

# الفصل الرابع

## طهماز وصائب

وكانت الشمس قد غربت واخذ خدم الحديقة في انارة القناديل والناس يتزاحمون دخولاً وخروجاً . ولاحت من شيرين التفاتة فرأت والدها قادماً فصاحت « هذا والدي اتى »

وهي لم تظهر هذه البغتة من فرح بقدومه ولكنها ارادت ان تنبه رامزاً الى وجوده فالتفت رامز فرأى طهماز ومعه شاب يعرفه من ايام المدرسة حسن البزة قد ارخى لحيته على الطرز التركي وعلى عينيه نظارة مذهبة وقد ارتدى ثوباً اسود تعلوه الستامبولينا التي يلبسها الاتراك في المواقف الرسمية . رآه آتيا مع طهماز وهو يحادثه ويلاطفه فلما اقتربا منه

تقدم رامز لملاقاة صديقه ورحب به وقدمه الى شيرين ووالدتها قائلاً « هذا صديقي صائب بك »

فلما رأته شيرين نفرت منه وبان الانقباض في عينيها لكنها تجلدت تأدباً وحنت رأسها احتراماًفتقدم والدها طهماز وكان كبير الجسم عظيم العضل كبير الراس واسع الفم غليظ الشفتين معروفاً بين اهله ومعارفهِ بقوة الساعدين · يلبس ثوباً واسعاً اشبه بما يلبسه اهل الاناطول · يرفع الرجل بيده الواحدة ويرميه الي الارض كانه رغيف · وكان كثير الاعجاب بقوته وهي الهبة الوحيدة التي وهبته اياها الطبيعة لانه كان ضعيفاً في ما خلا ذلك · وكان بطيناً نهماً لا تكاد تراه الا وفي فيه شيء يمضغه من حلوى او نقولات او طعام · وكان ساعتئذ يأكل كعكة تناولها من احد الباعة في الطريق · فلما دنا من امرأته وابنته القى التحية ببرود ولم يسلم عليهما الا ليقدم لهما صديقه الفاضل الوجيه ! صائب بك فرحبا به · فصفق صائب بك لخادم الحديقة ان ياتيهم ببعض المشروب فاعتذر رامز انه لا يشرب شيئاً وكذلك فعلت شيرين وامها فابى الا ان يفتح قزايز البيرا والكازوزه ويعزم عليهم ان يشربوا فكان اكثرها من نصيب طهماز

وفي اثناء الشرب اجتهد صائب ان يستلفت انتباه شيرين الى حديثه بما اخذ يقصه من احاديث نفوذه في المابين وما اتاه من الجرأة عَلَى كبار المقربين مثل عزت باشا وتحسين باشا وغيرهم وانهم يخشون بأسه ويهابون جانبه · وانه طالما انتقد رجال الحكومة عَلَى مسمع منهم وخوَّفهم العاقبة وغير ذلك · وشيرين لم تزدد الا نفوراً وتظاهرت انها احست بالبرد فجعلت والدتها تساعدها في اثبات ذلك التماساً للنهوض · فاستاء طهماز وقال « انتم هنا من عدة ساعات ولم تشعروا بالبرد الا الان ؟ » قال ذلك بخشونة تعودوا سماع مثلها منه فاغضوا

اما صائب فحوَّل حديثه نحو رامز وقال لهُ « اني لا انسى الايام التي قضيناها معاً في المدرسة ... رعياً لها ·· ان ايام الصبا ليس الذ منها ·· هل تذكر من كان معنا ؟ »

فلم ير رامز بأساً من مسايرته فقال « كان معنا كثيرون اذكر منهم نيازي و ·· »

فقطع صائب كلامه قائلاً « نيازي ؟ اظنه الان ضابطاً في الجندية »

قال « نعم »

قال « ولماذا لم تنتظم انت فيها ؟ »

قال « لاني لم اوفق الى ذلك وليس فيَّ استعداد لها عَلَى ما اظن »

قال « اذا شئت فاني اتوسط لك في خدمة اذا لم تكن في الجندية ففي غيرها انت تحب

العلم والادب ولك معرفة جيدة باللغات لاني اذكر تقدمك عَلَى اقرانك فاذا شئت وجدت لك منصباً في المدارس او في الداخلية او غيرها ... لا يثقل عليك ان تطلب مني كل ما تريده وهذا هين عليَّ . طبعاً نحن اخوان لا تكليف بيننا وقد وعدت سيدي طهماز بك برتبة ستأتيه بعد ايام قليلة »

فلما سمعت شيرين ذلك شعرت كان احشاءها تتمزق ولم تتمالك عن الوقوف وهي ترتعد وتظهر انها ترتجف من شدة البرد والحقيقة انها ترتعد غيظاً من ذلك الثقيل فوقفت ووقفت والدتها معها ووقف رامز فلم يجد صائب بدًّا من الاذعان وضرب عَلَى المائدة بعصا قبضتها من ذهب تلمع في النور فاتى الخادم ( جارسون ) فدفع اليه ليرة عثمانية ولم ينتظر ان يرد اليه الباقي فانحنى الجارسون الى الارض . ونهض صائب ونهض طهماز ومشوا يلتمسون الخروج من الحديقة وقد دنا العشاء واخذ الناس ينسلون

# الفصل الخامس

## الوشاية

فلما صاروا خارج الحديقة ودعهم صائب وانصرف وقبل انصرافه اطال النظر في شيرين وهي تتجاهل وودعه طهماز وداع الصديق الحميم . اما رامز فرافق شيرين وابويها وفي اثناء الطريق خاطبته بالفرنساوية وشكت له نفورها من صائب واوصته ان يبتعد عن صحبته فقال « وما الذي يهمني منه ؟ »

قالت « لا ادري ولكنني شعرت بنفور منه ورأيت الشر ينبعث من وراء نظارته ولا يبعد ان يكون جاسوساً »

قال « فليكن ما شاء »

وبعد قليل وصلوا الى طريق عرج منه رامز الى منزله بعدان ودع رفاقه وقال لشيرين بالفرنساوية انه ذاهب الى منزله وسيكتب مقالة في تلك الليلة . فقالت له « سر بحراسة الله » وتواعدا ان ياتي في الغد ليقرأ لها ما كتبه ويتغدى معهم

اما صائب فلم يفته ما اضمرته شيرين من بغضه اذ من القلب الى القلب دليل فشبت الغيرة في قلبه فركب مركبة سارت به الى الفندق الذي كان نازلاً فيه وهو يشرف عَلَى الرصيف الذي تقدم ذكره ـ قضى معظم الطريق وهو مستغرق في الهواجس وقد اخذت شيرين

بجامع قلبه . وكان قد لمح الى والدها بشأنها فاظهر ارتياحه طمعاً بما وعده به من الرتب
وصلت المركبة الى الفندق وهو لا يدري فلما وقفت انتبه لنفسه وتحول وهو يفكر في رامز وشيرين وكلما تصور عيني شيرين ومبسمها يختلج قلبه . وكان قد شاهدها مراراً وهي لا تدري وافتتن بجمالها وهو صابر هادىء حتى لقي والدها وملكه باسلوبه ودهائه وصار له امل بنيلها فذهب معه وهو يرجو ان يرى منها انعطافاً فلما رآها تجافيه وتلاطف رامزاً هبت الغيرة في قلبه

ولم يصل غرفته حتى عزم على التنكيل برامز فاخذ في خلع ثيابه وهو يحدث نفسه قائلاً « اراها تستخف بي وما علمت اني قادر ان احرمها من ذلك الشاب المغرور الذي يعد نفسه من الاحرار . يحسب امره مجهولاً وفاته اني اعلم الناس به واقدر بكلمة يخطها هذا اليراع ان الحقه بقاع البوسفور . . اليس هو عضواً في الجمعية السرية الناقمة على السلطان ماذا يكون شأنه لو رفعت ذلك الى المابين ؟ اني فاعل الساعة »

وكان قد فرغ من تبديل ثيابه فتناول قرطاساً وقلماً واخذ يكتب تقريراً عن رامز واعماله ضد الحكومة وانه من اعداء الذات الشاهانية الخ . قضى ليله في كتابة ذلك التقرير وركب في الصباح باكراً الى ناظم بك وهو يعرف علاقته بالمابين فقال له « قد كشفت للذات الشاهانية عن شاب كل اسرار الجمعية عنده وهذا تقريري كتبته بهذا الشأن فاطلب اليك باسم جلالة البادشاه ان تقبض عليه وتحبسه وتبعث الى المابين خبره تلغرافياً وهذه صورة التلغراف « عثر صائب بك الخفية على احد كبار الجمعية الجهنمية وعنده اسرارها وقد قبضنا عليه وننتظر الامر بشأنه »

فبعث ناظم بك الى سامي بك رئيس البوليس ان يقبض على رامز واوراقه حالاً وارشده الى منزله وبعث صائب بتقريره مسوكراً الى المابين

وكان رامز قد قضى ليله في كتابة المقالة المشار اليها وتأخر في الفراش فما شعر الا والبوليس محيط بمنزله فايقظوه ودخلوا الغرفة وقبضوا عليه وعلى خادمه وجمعوا ما عنده من الاوراق جعلوها في ظرف كبير وختموها وقادوه الى السراي وحجزوه فيها فتأكد رامز انها فعلة صائب فلم يرَ بدًّا من الصبر

اما صائب فكان على موعد اللقاء بطهماز ذلك الصباح في احدى القهوات على الرصيف فذهب في الوقت المعين كانه لم يفعل شيئاً فوجد طهماز بانتظاره في قهوة قرب قصر اللاطيني في آخر الرصيف فرحب به طهماز وآنسه فقال له صائب « كيف فارقت رامزاً ؟ »

فهز رأسه وقال « فارقناه بعد ذهابك بقليل الى منزله »

فاصلح صائب نظارته على عينيـه وحك لحيته ثم اخذ يلاعب عصاه بيده وقال « انه شاب لطيف لكنه كثير الغرور بنفسه فعسى ان لا يجرّ غروره ضرراً عليه او عليكم لان الجاهل عدو نفسه . وقد كنت ولا ازال راغباً في مساعدته اكراماً لبيتكم لانه ينسب اليكم على ما اظن »

قال « نعم هو ابن اخت توحيدة ولكنه كما قلت طائش »

قال « واذا كان طيشه يقتصر على ضرر نفسه فذلك هين »

قال طهماز « وما الذي يهمنا منه »

قال « اراه يحب التقرب منكم فوق القرابة التي ذكرتها »

فضحك طهماز وكان خادم القهوة قد اتاهما بالقهوة فتناول الفنجان وشرق منه شرقة وقال « يظهر انه يطمع بشيرين ولكنني لا ازوجها لرجل لا عمل له »

فمد صائب يده الى جيبه واستخرج علبة للسكاير مذهبة واخذ منها سيكارة مذهبة من احد طرفيها ودفعها الى طهماز وهو يقول « ان شيرين تستحق رجلاً يستحقها فانها والحق يقال كاملة الاوصاف »

فتناول طهماز السيكارة بكنف كالمدراة وقال وهو يشعل السيكارة من عود اشعله له صائب بك وقدمه له « وانت كامل الاوصاف ياصائب بك » وضحك

فتنصل صائب بك من معزى هذا التعريض وقال « اني اجل الفتاة . . . واراها تستحق احسن مني »

فقال طهماز « انها لا تطمع باحسن منك ياسيدي »

فاجابه صائب بك « كل شيء نصيب . . » واظهر انه يريد تغيير الحديث تواضعاً فقال « قد ارسلت تلغرافاً الى صديقي عزت باشا اطلب منه رتبة تليق بشأنك واذا رأيت رامزاً يرضى خدمتي فاني اوصي له على منصب »

فعجب طهماز باريحية صائب وقال « ساخاطبه بذلك لعله يرضى وهو عندنا للغداء تعال نتغدى معاً »

فاجاب انه سيفعل

# الفصل السادس

## الانتظار شاق

اما شيرين فباتت تلك الليلة ونفسها تحدثها بشر تتوقعه ـ وكذلك شأن المرأة فانها كثيراً ما يدلها شعورها على امور لايدركها الرجل الا باعمال الفكرة والقياس العقلي اما هي فانها تشعر وتحكم بناء على شعورها بلا برهان ويصدق حكمها في اكثر الاحيان

قضت معظم الليل في الهواجس وما صدقت بطلوع النهار فاخذت تنتظر الوقت المعين لمجيء رامز وقد سرها خروج ابيها باكراً ليخلو لها المنزل برامز . ولم يكن وجود والدتها يعكر عليها صفو ذلك الاجتماع لانها كانت مستودع اسرارها وهي تحب رامزاً حباً كثيراً وتعدُّه بمنزلة شيرين لانه ابن اختها وقد ربي تحت نظرها

دقت الساعة العاشرة على الحساب الافرنجي ولم يأت رامز فزادت دقات قلب شيرين وصارت تتنقل من النافذة الى الشارع ومن الباب الى الدهليز ثم تعود فتقعد على المقعد فاذا سمعت مشياً نهضت تظن رامزاً قادماً مع انها تعرف خطواته دون خطى سائر الناس ولكن القلق اذهب رشدها . فلما دقت الساعة الحادية عشرة ذهبت الى والدتها وكانت تشتغل بشؤون المطبخ تساعد خادمتها في الطبخ ليكون الطعام حاضراً الظهر والاَّ غضب زوجها واسمعها كلاماً فظاً . فلما رات شيرين داخلة بادرتها قائلة « هل اتى رامز »

فكان لهذا السؤال وقع شديد انفجرت له عواطفها فقالت « لا . . لم يأت . . . » وغصت بريقها

فاستغربت توحيدة اضطرابها وقالت « لم يفت الوقت على مجيئه ان الظهر لا يزال بعيداً لا تقلقي »

قالت « اعلم ذلك ولكن . . . » وسمعت حركة في الدار فاصغت فاذا هي خطى ابيها فتأملت ان يكون رامز معه فخرجت لملاقاته فوجدت اباها وحده دخل يتمايل اعجاباً بقوته وقد زادته مواعيد صائب بالرتب اعجاباً بنفسه . فلما اقبل على شيرين حيته فرد التحية وابتدرها قائلاً « الم يحضر الغداء ؟ اين والدتك ؟ »

قالت « هي في المطبخ تعجل حضور الغداء » وهمت ان تسأله عن رامز فغلب عليها الحياء فذهبت الى والدتها وحرضتها على سؤاله

فخرجت توحيدة من المطبخ وهي تنشف يديها بمئزرها وتصلح ذيل فسطانها

وتأمر الخادم ان يضع المائدة ويحضر كل شيء لان الطعام قد حضر لعلمها ان ذلك يشرح صدر زوجها . فقابلها ضاحكاً فقالت « الم يأت رامز معك للغداء ؟ »

قال « لم اره اليوم »

قالت « دعوته امس للغداء معنا وها قد دنت الساعة الثانية عشرة ولم يأت . . »

قال « لعله استغرق في النوم وبعد قليل يأتي لاتخافي »

قال ذلك وهو يحل سيور نعاله وقد اسرع اليه الخادم بالقلشين ثم اخذ ينزع رداءه والخادم يساعده فلما سمعت شيرين قوله « لا تخافي » ادركت انه يقول ذلك تهكما فالتفتت الي والدتها فرأتها فهمت مرادها فقالت توحيدة « لست خائفة وما الباعث على الخوف ؟ »

قال « اما الباعث على الخوف فانه موجود لان رامزاً يتعرض لامور كثيرة لاتعنيه ولا تنفعه وقد تضره . . واذا خاطبه احد في سبيل مصلحته استخف به »

ففهمت شيرين انه يشير الى حديث الامس وان اباها ناقم على رامز استخفافه بصائب فتحولت من بين يدي ابيها الى غرفة قريبة وجلست تسمع صوته ولا تراه فسمعت والدتها تقول له « هذا شأنه وهو يعرف حسابه »

فقال بصوت عال « ولكن تردده الى بيتنا يوقع الشبهة علينا »

فعلمت توحيدة ان الكلام مع زوجها في هذا الشأن اصبح عبثاً بعد ان رفع صوته وقد تعودت طباعه وعرفت كيف تجتنب غضبه لانها كانت عاقلة حكيمة — والمرأة اذا عاشرت زوجها زمناً طويلاً يجدر بها ان تعرف ما يرضيه او يغضبه ـ فسكتت توحيدة واظهرت انها مشغولة في المطبخ فلحقتها شيرين والدمع ملء عينيها وصاحت فيها « اماه . . . يا اماه . . ان قلبي على مثل الجمر . . . »

فاشارت باصبعها على فمها ان « اسكتي » والتفتت الى الخادم وامرته ان يذهب الى مسكن رامز يسأل عنه ولا يطيل غيابه فذهب الخادم مسرعاً . وما عتم ان عاد وقص عليهم الخبر وان ناظم بك ارسل جنداً للقبض عليه واخذه مع اوراقه الى السراي

فلم تتمالك شيرين ان لطمت خدها وقالت « ويلاه . . ان قلبي دلني على شر اتوقعه له . . منذ اتانا ذلك الجاسوس . . قد صدق ظني . . . »

اما والدتها فاخذت تخفف عنها لئلا يسمعها ابوها وكان طهماز قرب غرفة المائدة واقفاً عند البوفيه يتناول قدحاً من الكنياك قبل الطعام فلما سمع التهامس صاح بصوت كالرعد « ما بالكم . . ماذا جرى . . هل اتى رامز »

فاسرعت توحيدة اليه وقالت « ان ناظم بك قبض عليه وسجنه مع اوراقه » قالت ذلك وهي تفرك يديها حسرة واسفاً

فضحك طهماز وقال « هذا الذي كنت اخافه عليه لتهوره .. ولكن لا تخافي ان صديقي صائباً يقدر ان يخرجه من السجن لان ناظم بك يراعي جانبه لنفوذه في المابين وسيأتي صائب بك بعد قليل فقد دعوته للغداء معنا »

# الفصل السابع

## الرياء

وكانت شيرين منزوية في غرفتها وقد استغرقت في البكاء لعلمها بالخطر الذي يهدد من يقع هذه الوقعة وهي تعلم اعمال رامز ضد عبد الحميد فايقنت من تلك اللحظة ان رامزاً مقتول لامحالة فاخذت تندبه . فلما سمعت اباها يطمئن امها بصداقة صائب مع ناظم تنفست الصعداء لحظة ثم تذكرت ان صائباً اصل هذه المصائب فعادت الى البكاء ولكن والدتها اظهرت التصديق فدخلت عليها وجعلت تخفف عنها قائلة « يقول ابوك ان صديقه صائباً ينقذه بكل سهولة وبعد قليل يأتي ونسأله » قالت ذلك وامسكت شيرين بيدها كانها تشغلها عن البكاء وهي تعتقد مثل اعتقاد ابنتها ولكنها ارادت تخفيف حزنها وهي خائفة عليها لعلمها ان بين اوراق رامز اوراقاً لها لا تقلُّ خطراً لانها كثيراً ما كانت تساعده او تكاتبه بمعنى الحرية والنقمة عَلَى المابين واهله

فاجتذبت شيرين يدها من يد امها وغطت بها عينيها وهي تقول « تسألون صائباً انقاذه وهو الذي رماه .. دعيني .. لا اغير اعتقادي فان قلبي دلني »

وهما في ذلك سمعا وقع حوافر افراس وقفت عند باب منزلهم وهرع الخادم لاستقبال القادم ثم سمعته يقول « اتى صائب بك »

فقالت توحيدة « اتى الرجل . تجلدي وقومي للغداء لعله قادر عَلَى انقاذه وعهدي بك جلودة واسعة الصدر فما لي اراك تغيرت . . لا يبعد ان يكون لهذا نفوذ عند اولئك لانهم من طينة واحدة . قومي تجلدي »

فنفرت وهي تهز رأسها هز الانكار وقالت « قد فارقني جلدي دعيني أم انت تطلبين مني ان ارى هذا الشيطان وآكل معه ؟ ابدل رامزاً به ؟ » ونهضت واخذت تحل ازرارها وهي تقول « اني مريضة لا استطيع الجلوس . »

فاستحسنت والدتها ان تمكث في الفراش لئلا يشاهدها ابوها عَلَى هذه الحالة فيغضب

وخرجت توحيدة لملاقاة الضيف والترحيب به مراعاة لحق الضيافة وخوفاً من غضب زوجها واملاً بالنفع عَلَى يده فوجدته قد دخل الدهليز وهو يضع عصاه الذهبية عَلَى المشمعة فلما رآها اسرع اليها متأدباً وحياها بلطف وانحناء وقد قبض عَلَى قفازه بيده الاخرى ثم تقدم الى طهماز فحياه وتلطف بمسايرته . فدعتهما توحيدة الى الصالون وهو مفروش عَلَى الطرز الافرنجي فدخلا وجعلت توحيدة تسايره كما ينبغي لها

فافتتح طهماز الحديث عن رامز قائلاً « ان خوفنا عَلَى رامز كان في محله وقد بلغني انهم قبضوا عليهِ في صباح اليوم واخذوه الى السجن .... الم تعلم بذلك »

فاظهر صائب البغتة وقال « وهل الذي قبضوا عليهِ اليوم هو رامز ؟ .. كنت عند ناظم منذ ساعة واخبرني انه قبض عَلَى رجل من اعضاء الجمعية السرية ووجدوا معه اوراقاً مضرة ارسلوها الى يلدز حالاً وارسلوا تلغرافاً بخبرها ولم يخطر لي ان الرجل هو صديقي رامز .. لا حول ولا قوة الا بالله »

وكانت غرفة شيرين بجانب قاعة الاستقبال ( الصالو ) فكانت تسمع كل كلمة من الحديث — فسمعت اباها يقول « ولكن رامزاً ابننا وانا اعدُّ نفسي بمنزلة ابيه وهو ايضاً صديقك الا تقدر عَلَى تخليصه من هذه الورطة ؟ »

قال وهو يمشط لحيته « لو اخبرتموني في الصباح لكان ذلك هيناً عليَّ . اما الآن وقد بلغت اخباره الى المابين وارسلت اوراقه الى الاستانة فكيف السبيل الى انقاذه »

قال طهماز « انت تقدر يا بك »

فاطرق صائب حيناً يفكر ثم قال « اما اخراجه من سجن سلانيك فقد اصبح مستحيلاً لكنني ابذل جهدي بتخفيف جرمه في الاستانة اذا امكن ولكنه سامحه الله لم يدع باباً للمصالحة . اخبرني ناظم بك ان بين اوراقه ما يدخل كثيرين في الخيانة معهُ وفيهم امرأة »

فلما سمعت توحيدة قوله « صعد الدم الى وجهها وظهرت البغتة عليها لعلمها ان هذه المرأة انما هي ابنتها وانها واقعة في الفخ لا محالة .. ولكنها تجلدت واصغت لعلها تسمع شيئاً جديداً وودت لو ان ابنتها مستغرقة في النوم حتى لا تسمع ذلك . ونهضت تظهر انها تريد مخاطبة الخادم لاعداد المائدة ودخلت الى غرفة ابنتها فرأتها مستلقية وقد اصاخت بسمعها فحالما اقبلت عليها قالت شيرين « سمعت كل شيء »

قالت « هل سمعت آخر فقرة »

قالت « الا تعنين تهمة امرأة مع رامز ؟ قد سمعتها . وهي تعزيتي الوحيدة لاني عند

ذلك احمل اليه فاما نموت معًا او نعيش معًا . . هل انا خير منه ؟ »

فاستولى الفشل عَلَى توحيدة لانها كانت تحسب وقوع شيرين تحت التهمة مع الامل بالنجاة عَلَى يد صائب يجعلها تلين وترضى بخاطبته لعله ينقذها لها . وهي وان كانت تحب رامزاً مثل ولدها لا يزال قلبها على ابنتها في الدرجة الاولى ـ فقالت « نعم يشق علينا وقوع عزيزنا رامز تحت الخطر ولكن هل نلقي بايدينا الى التهلكة واذا كان في امكاننا تخليصك فكيف لا نفعل ولعلنا بذلك ننجي رامزاً »

فقطعت شيرين كلامها قائلة « تريدين انقاذي عَلَى يد هذا الجاسوس وهل صدقت قولهُ انه لم يكن يعلم من هو الذي وشى به ؟ فانا لا اريد نجاتي عَلَى يده بل اريد ان يؤكد التهمة عليَّ لاشارك رامزاً في حظه خيراً كان او شرّاً . » قالت ذلك واستلقت عَلَى سريرها وغطت وجهها بزندها فتركتها والدتها وتوجهت الى المطبخ وامرت الخدم بالسكب واتت الى زوجها فوجدته يتهامس مع صائب وهو يضحك فلما رآها سألها عن الطعام هل هو حاضر فقالت « تفضلوا الى المائدة »

فنهضوا فغسلوا ايديهم وصائب يتوقع ان يرى شيرين قادمة الى المائدة فلما جلسوا ظل كرسيها فارغاً فقال « اني لا أرى شيرين معكم هل عليها بأس »

فقالت والدتها « انها تشكو من صداع اليم لم يفارقها من هذا الصباح . . »

فقال طهماز « دعيها تأتي لا بأس عليها »

قالت « الححت عليها كثيراً وأنا آتية من عندها الساعة فلم تقدر ان ترفع رأسها واستولى عليها البكاء من شدة الالم » قالت ذلك حذراً من ان ينهض ابوها فيراها باكية ويتهمها بشيء آخر

فقال له صائب « سلامتها لا باس عليها . هل علمت بحديث رامز لا شك انها تزعل كثيراً عليه . سامحه الله ما كان اغناه عن تلك الاعمال الصبيانية »

وكان الطعام قد حضر وصبّ في الاطباق واستغرق طهماز في الالتقام والمضغ فوضع صدر دجاجة كما هو في فيه ولما سمع كلام صائب هم ان يجاوبهُ وفمه مملوءٌ فاستمهله بضم اصابعه الثلاثة اشارة الاستمهال ريثما يبلع بعض اللقمة ثم قال وهو يقطع الخبز ويهيئ لقمة اخرى « كثيراً ما نصحته فلم ينتصح ان شبان هذا الزمان لا يعجبهم العجب . لا يعجبهم سلطاننا ايده الله مع انه من احسن سلاطين آل عثمان هل كان عبد العزيز احسن منه ؟ انه لا يفوت الصلاة مطلقاً وفي الاستانة الوف من الناس عائشون من بقايا مطبخه فلو اقفلت بلدز الآن لمات هؤلاء جوعاً . ثم هم كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول كان ينبغي

ان يكون لهم عبرة بالذين تقدموهم من امثالهم الشبان المغرورين كيف كانت عاقبة امرهم — ماذا ينالهم من هذا العناد غير العذاب الا يرضون ان يعيشوا كما عاش اباؤهم واجدادهم .. » وقد اختصر طهماز خطبته البليغة لئلاَّ يضيع عليه لقمة وعاد الى الاكل

فقال صائب « انا لا الوم الاحرار على التشكي من الخلل فانه موجود لكنني الومهم لاستعمالهم العنف في مساعيهم كعمل المكائد لقتل الخليفة او اعوانه والكتابة الشديدة في الجرائد الاجنبية هذا لا يفيد ولا بد من استعمال التؤدة »

وكانت شيرين تسمع قوله وتكاد تثب من السرير لتجاوبه لكنها صبرت نفسها وسكتت

# الفصل الثامن

## حديث الخطبة

ولما فرغوا من الطعام تناولوا القهوة ونهض صائب للانصراف فودع طهماز وزوجته وكلفهما بالسلام عَلَى شيرين ودعا لها بالسلامة وركب عربته وانصرف

ودخل طهماز لمشاهدة ابنته فرآها نائمة فتركها وذهب للقيلولة ولم تمض بضع دقائق حتى ملأ شخيره البيت . وكذلك فعلت توحيدة لكنها لم تنم لما تولاها من القلق علي ابنتها فضلاً عن خوفها عَلَى رامز

وفي الاصيل نهض طهماز وبعد ان تناول القهوة نادى امرأته الى غرفته فاتت وهي تقول في نفسها « ماذا اعسى ان يكون الغرض من هذا الطلب » فلما دخلت عليه ناداها للجلوس الى جانبه فجلست فقال لها « بعد قليل ياتي صائب بك . . . ماذا تقول له ؟ »

فلم تفهم مراده فقالت « عن اي شيء ؟ »

قال « عن شيرين »

ففهمت انه يريد خطبتها له ولكنها تجاهلت وقالت « من اي جهة .. »

قال « الم تفهمي ؟ . لا يخفى عليك ان رامزاً المسكين لن ينجو من هذه الوقعة وهو الذي رمى نفسه فيها وهذه شيرين اذا لم تفهم حقيقة مركزها تكون طائشة مثله . وقد تقدم لها هذا النصيب اعني صائب بك وهو رجل وجيه صاحب نفوذ وثروة واذا صاهرناه نلنا العز عَلَي يده وربما استطعنا بواسطته ان ننقذ رامزاً . لا يخطر ببالك اني اكره هذا الشاب

ان رامزاً مثل ابنتي كما تعلمين لكنه طائش تأخذه الحدة ويتطاول الى ما هو فوق طاقته حتى التى نفسه في ورطة لا نجاة له منها واخشى والكلام في سرك ان تقع الشبهة علينا غداً لكثرة تردده الى منزلنا فنقع في الشراك . فاذا كان صائب بك صهرنا كنا في مأمن من ذلك كله »

فرأت في كلامه تعقلاً لم تعهده من قبل فقالت « ارى الحق في جانبك ولكن هل نفعل ذلك بدون رأي شيرين ؟ »

قال « نسألها .. ولكنها لا تخالف رأي والديها طبعاً .. »

قالت « لا نقدر ان نخطبها لاحد الا بارادتها »

فهز راسه وقال « ان بنات هذا العصر مثل شبانه لا يعملون الا ما يخطر لهم . وكنا في زماننا نلتي اتكالنا على ابائنا . وهذا هو سبب الشرور التي نراها تنتابنا من كل ناحية لم يعد يعجبنا العجب .. نريد ان نتداخل في كل شيء ونعمل على هوانا حتى صرنا نطلب ان نشارك سلطاننا بالحكومة واذا ابى علينا ذلك نقمنا عليه واردنا قتله .. ما لنا ولذلك فاذهبي الآن الى شيرين واقنعها بوجه الحق وافهميها مركز صائب واهميته »

فنهضت توحيدة وهي على ثقة من رفض ابنتها لكنها اطاعت زوجها ودخلت على شيرين وكانت قد تولاها الوسن لحظة فلما سمعت وقع اقدام والدتها استيقظت مذعورة وجلست على الفراش حالاً وهي تنظر الى ما حوالها وتفرك عينيها لتتحقق انها في يقظة فلما رات والدتها صاحت « اماه ! اين رامز اين رامز؟ ويلاه اني في منام ...» وعادت الى فرك عينيها

فادركت والدتها انها رأت رامزاً في المنام لفرط تفكيرها فيه وتقدمت اليها وضمتها الى صدرها وقبلتها في عنقها تقبيلاً طويلاً شاركها الدمع بالانحدار عليه . فاحست شيرين بالدمع يتساقط على عنقها سخيناً فاسفت لانها سببت لها ذلك الحزن فتباعدت عنها قليلاً وتفرست في وجهها وتوحيدة تحاول اخفاء دموعها بالابتسام فلم تقدر فقالت شيرين « قد سببت لك حزناً وتعباً يا اماه »

قالت « كلا يا حبيبتي ان تعبك راحة ولكنني لا احب ان يستولي عليك اليأس وعهدي فيك عاقلة حازمة اصبري .. ولا تستسلمي للحزن . »

فقالت شيرين « صدقت يا اماه لا بد من الصبر » ومسحت عينيها وتنهدت تنهداً خفيّاً وهي تصلح شعرها وتنظر الى مرآة معلقة بالحائط مقابل باب الغرفة المستطرق الى الدار فرات خيال ابيها في المرآة يمشي حافياً على رؤوس اصابعه مسرعاً فاجفلت عند رؤيته وظهرت البغتة في وجهها ولحظت والدتها فيها ذلك فقالت « ما بالك يا شيرين؟

ما الذي تفكرين فيه ؟ »

فاجابتها وهي تلتفت نحو الدار وقالت بصوت منخفض « لا افكر في شيء لكنني رايت والدي ماراً من هنا . العله استيقظ ؟ »

قالت « نعم يا عزيزتي وكنت معه الان نشرب القهوة في غرفته وانا قادمة من عنده »

فدلها قلبها على شيء تكتمه والدتها لانها دقيقة الشعور الى درجة التنبؤ فلا يكاد جليسها يهم بالكلام حتى تفهم مراده لكنها كانت تصبر نفسها عن التصريح بما يجول في خاطرها فقالت « لامرٍ ما اتيتِ الي .. خيراً ان شاء الله »

فمدت توحيدة يدها الى شعرات مسترسلة على جبهة شيرين وجعلت تعبث بها كانها تضفرها وقالت « لم آت الا لخير يا حبيبتي » وغصت بريقها وتلألأ الدمع في عينيها فتداركت نفسها بالكلام فقالت « قد كلمني ابوك بشأن صائب بك . . ان الرجل سيعود الينا بعد قليل »

فاجفلت شيرين عند ذكر اسمه وحولت وجهها نحو الحائط وقالت « مالي وله .. ان عاد او لم يعد . . اني لا اريد ان اراه »

قالت « ليس الامر ان تريه او يراك فقط »

ففهمت مرادها لكنها استبعدت ان يقدم صائب على خطبتها بعد ما لاحظه من جفائها وتباعدها فقالت « ما الذي يبغيه اذاً ؟ »

قالت « ان والدك خاطبني بشأنه وكلفني باقناعك انه شاب وجيه غني مقدم عند رجال الدولة وهو الان صاحب النفوذ الاكبر .. فمثله لا يرد طلبه يا عيوني » قالت توحيدة ذلك وهي لا تعنيه لكنها تعلم ان زوجها لا بدَّ ان يتلصص لسماع ما تقوله لابنتها لسوء ظنه بها وتحققت مما قالته شيرين انه دخل الصالون ليسمع ما يدور بينهما وهي مع ذلك على ثقة ان ابنتها سترفض ذلك الطلب بتاتاً

# الفصل التاسع

## الرفض

اما شيرين فاستغربت كلام والدتها بهذه اللهجة مع علمها بما في نيتها عن رامز فلحظت انها تقوله كانها على مسمع من ابيها تتجنب به غضبه وفظاظته فرأت ان تجاريها

بالملاطفة لنفس هذا السبب فقالت « انه نعم الشاب او فليكن كما يشاء ما الذي يعنيني من امره .. انه لا يعنيني »

قالت « ان والدك الح علي ان اقنعك بانه شاب يليق بك وانه اذا قبلت به قد يكون واسطة لانقاذ رامز بنفوذه »

فاحبت شيرين ان تبقى على تجلدها لكنها غلبت على صبرها فقالت « انقاذ رامز؟ هو ينقذه ؟ واذا انقذه ماذا يفيدني انقاذه اذا كنت عند هذا الجاسوس .. بل كيف ينقذه وهو الذى رماه في هـذا الفخ و . » فبادرت توحيدة فاقفلت فم شيرين بكفها وهي تشير بوضع سبابتها الاخرى على فمها اشارة السكوت خوفاً من سامع او متلصص

فنفرت شيرين وازاحت كف والدتها عن فمها وقالت « ولماذا اسكت ... باي قلب تخاطبوني بهذا الشأن ؟ » وغلب عليها البكاء فلم تر والدتها خيراً من تركها لئلاَّ تقول ما يكدر والدها خوفاً من الفضيحة لانه اذا غضب لا يقدر عواقب ما يقوله فتنحت عن سرير ابنتها وهي تقول لها « اني تاركتك الان ريثما تفكرين في الامر وساعود اليك بعد قليل » واشارت بعينيها انها تفعل ذلك محاذرة من طهماز. وخرجت واغلقت باب الغرفة وراءها واظهرت انها ذاهبة الى غرفة زوجها لتخبره بما جرى وهي تعلم انه في الصالون . فما مشت خطوتين حتى راته يمشي في اثرها وهو يشتغل باخراج فضلات الطعام من بين اسنانه بظفر خنصره ويتلمظ . فتظاهرت بالبغتة واومأت اليه ان يتبعها فدخلا غرفته وقالت له « لا بد من الصبر ياسيدي ان شيرين لا تزال منحرفة الصحة فلنتركها الان .. »

قال « نتركها ؟ ولماذا ؟ وبعد قليل يأتي البيك ويجب ان نجيبه سلباً او ايجاباً وانا وعدته بالايجاب فهل اكذب عليه ام كيف تريدين يا هانم افنـدي » قال ذلك بتهكم وجعل يعبث باخمص رجله اليسرى باصابع يده اليمنى

فاهتمت توحيدة بالامر لعلمها ان زوجها لم يعط الثبات والحزم الا في معاكستها . فهو ضعيف مع كل انسان كثير الاصغاء والاذعان لاهل الدسائس يدار بكلمة ويقاد بشعرة الا مع امرأته فانه عنيد لا يرجع عن قوله لانه يعدُّ رجوعه ضعفاً — كيف وهو رجل البيت لا يكون كلامه نافذاً ؟ فلما رات توحيدة تصميمه قالت « لا بد من التأني ياسيدي .. لان شيرين الان مشغولة الخاطر على رامز مثلنا فاتركني ريثما اخاطبها في فرصة مناسبة »

قال « بل هي مشتغلة الخاطر عليه اكثر منا جميعاً لانها تريد ان تكون من الاحرار

ما شاء الله .. هل تظنين سكوتي عنها في الماضي كان عن رضى وقبول بما كانت تأتيه ؟ ولكني كنت اغتفر لها ذلك احياناً لان رامزاً ابن خالتها واتوقع ان تنتهي من نفسها فاذا هي لاتزداد الاتمادياً حتى كادت توقعنا في ورطة لا خلاص لنا منها .. الا على يد صائب بك وقد تفضل علينا الرجل وحذرنا بارك الله فيه .. فكيف نقابله بالكذب او الجفاء ها اني صرحت لك بكل شي .. فهمت ؟ » قال ذلك وهو يشير بيديه متحمساً ثم استخرج سيكارة من صحن بين يديه واشعلها واتكأ واخذ يدخن ولسان حاله يقول « قد فعلت ما عليّ فافعلي ما عليك »

اما توحيدة فلم يبق عندها شك في حرج مركزها فاستندت الى الحائط واخذت تفكر في الامر وقد بدا القنوط في محياها خوفاً على شيرين من دناءة ذلك الجاسوس واستبداد والدها . وهي تعلم جيداً ان ابنتها لاتقبل بدلاً من رامز فكيف اذا كان البدل مثل صائب . لكن خوفها على حياتها وحياة رامز هون عليها الاقتناع برأي زوجها — وهم في عصر كل مفعول فيه جائز — عصر الجاسوسية والظلم وقد اصبحت الارواح والاعراض والاموال في ايدي الجواسيس يضعون من شاؤا ويرفعون من شاؤا لا يتكلفون في ذلك الا كلمة يقولونها بتقرير يرفعونه الى ذلك الطاغية السفاح . وقد عرفت اناساً ذهبوا غرقاً في البوسفور او قتلاً بحد السيف او بالسم وهم ابرياء فخافت ان يصيب ابنتها شيء من ذلك وهي متهمة بالحرية ولابد من اوراق لها عثروا عليها في جملة اوراق رامز وفيها ما يكفي لاثبات التهمة عليها . واذا اغضبت صائباً تمت اسباب التعاسة لانه يسعى في الانتقام لنفسه من رامز ومنها

---

# الفصل العاشر

## التلغراف

مرت هذه الخواطر امام مخيلة توحيدة وهي مسندة كتفها الى الحائط وقد اطرقت واستغرقت في لجج الافكار وزوجها مشتغل بالتدخين يتلاهى عنها بمراقبة حلقات الدخان وهي صاعدة . او ينفض الرماد عن طرف السيكارة وان لم يكن هناك رماد

وهي في ذلك سمعت جرس الدار يدق فاستيقظت من هواجسها واسرعت دقات قلبها خوفاً من ان يكون القادم صائباً فاصغت ريثما يفتح الخادم الباب . ولم يمض يسير

حتى جاء الخادم مسرعاً وهو يقول « اتى البيك .. اتى صائب بك »

فهب طهماز من مجلسه ولم يعرف كيف يشتعل قلشينه من البغتة والدهشة . وانصرفت توحيدة الى بعض مهام البيت وهي تود ان تعود الى ما كان يريده زوجها من التحجب عن كل زائر لتتخلص من رؤية هـذا القادم لانها هي التي حملته على التساهل في امر الحجاب جرياً على مقتضى التمـدن الحديث . على ان الاتراك وخصوصاً في سلانيك كانوا قد خففوا الحجاب على الاجمال فالمراة تجالس الرجال وهي مكسوة الراس بالنقاب او الشال ولم يكن طهماز يأذن ان تلاقي غير الاخصاء مثل صديقه صائب

فودت توحيدة في تلك الساعة ان تكون محجبة لانها كرهت ان تعود الى موضوع خطبة هذا الرجل لابنتها رغم ما همها من امره بعد ما سمعته من التهديد . فتولتها الحيرة وذهبت من تلك الغرفة الى غيرها وهي تسمع قرقعة عصا صائب وهو يضمها على الشماعة . ثم سمعت طهماز يرحب بضيفه العزيز ويدعوه الى الصالون

فخطر لها ان تفتقد ابنتها لترى حالها بعد سماع جرس الدار وعلمها بقدوم صائب . فدخلت الغرفة من باب داخلي فوجدتها قد توسدت الفراش واحاطت راسها بعصابة كانها تشكو صداعاً . فهرعت اليها واخذت تجس يدها لئلاَّ تكون محمومة فلم تجد بها باساً فضمتها وقبلتها وهي تقول « ما بالك ياعيوني .. مم تشكين ؟ »

فاجابت شيرين بصوت ضعيف « اشكو من صداع خفيف لا تخافي »

فقبلت جبينها وكانها تجسه بشفتيها لتتحقق خلوه من السخونة ثم قالت « توسدي يا حبيبتي نامي .. ان النوم يخفف الصداع »

فقالت « انا احاول النوم جهد طاقتي » وارادت توحيدة من اغرائها على النوم ايضاً نجاتها من سماع ما قد يدور بين ابيها والضيف من الحديث الذي يؤلم عواطفها لقرب غرفتها من الصالون فسرها انها اذعنت حالاً ونامت بدون ان تبدل ثيابها . وخرجت توحيدة وهي تسمع صوت زوجها يناديها فاصلحت من شأنها ووضعت الخمار على راسها ودخلت الصالون . فوقف صائب بك وهو يهش لها ويرحب بها وقال « اني في غاية الامتنان للطف سيدي طهماز بك وانسه فانه يعدُّني من اهل المنزل كاحد اولاده . وانا اعلم انه لا يفعل ذلك مع كثيرين وهذه هي المرة الثانية التي جئت بها اليكم اليوم .. تفضلي اجلسي » قال ذلك وجلس

فجلست باحترام وهي تجامله بالترحاب فوقع نظرها على ورقة في يد طهماز يتصفحها وهو يبتسم ولسان حاله يقول « اسألوني عن فحواها »

فادركت توحيدة غرضه فقالت « ما هذا ياسيدي » واشارت الى الورقة فقال « تلغراف من الاستانة » وابرقت عيناه

فتبادر الى ذهنها انه تلغراف باطلاق سبيل رامز فتسارعت دقات قلبها وهمت ان تختطفه من يده لتقرأه لكنها امسكت نفسها تأدباً وقالت « لعله بشأن رامز ؟ »

فهز كتفيه وقال « ان امر رامز بعيد المنال . ولكنه بشأن آخر لا اقوله لك » وفي غنة صوته دلال او مداعبة

فلم يرق لها ذلك الدلال بعد ذهاب املها ان يكون التلغراف بشأن رامز ولكنها تجلدت وقالت « باي شأن يا سيدي ؟ هل يهمني ان اعرفه »

فضحك وقال « طبعاً يهمك لانه بشأن زوجك .. لا تخافي ليس فيه امر بالنفي ولا السجن والحمد لله . »

فتناول صائب الحديث وهو يتواضع وقال « طبعاً لا ينبغي ان يكون فيه شيء من ذلك لان المخلصين للذات الشاهانية يعاملون غير معاملة الخوارج المارقين » وتشاغل باصلاح نظارته لحظة وتنحنح ثم قال « هذا تلغراف يا سيدتي من المابين الهمايوني ينبئ بان جلالة مولانا البادشاه اعزه الله قد انعم على سيدى طهماز بك برتبة سنية بناء على ما تحققوه من صدق عبوديته للذات الشاهانية المقدسة .. »

فقطع طهماز كلامه قائلاً « ومن اين عرفوا ذلك لو لم يتفضل سعادة البيك بابلاغه اليهم — فانك صاحب الفضل في هذه الرتبة .. »

فاخذ صائب يتلطف ويتواضع وانه لم يفعل شيئاً وان طهماز انما نال تلك الرتبة عن استحقاق لصدق عبوديته ولما يرجوه امير المؤمنين من الخدم النافعة على يده . وطهماز يجيب معتذراً متواضعاً وتوحيدة بينهما جامدة كالصنم لاشتغال خاطرها بما تخافه من حديث زوجها بشأن الخطبة او ما يجري مجراها . فاحبت ان تشغلهما عن هذا الموضوع فقالت « الم يعلم صائب بك شيئاً عن رامز ؟ »

فتزحزح صائب عن كرسيه وهو يظهر الاحتفاء بحديث توحيدة وقال « نعم يا سيدتي ان امر هذا الشاب همني كثيراً نظراً لما علمته من علائق القربى بينكم وبينه وقد سألت ناظم بك القومندان عما جرى بشأنه فقال انه جاءه تلغراف من المابين يطلبون فيه توجيه رامز الى الاستانة حالاً واظنهم يحملونه اليها بقطار الليلة »

فاجفلت توحيدة وندمت لانها فتحت هذا الحديث خوفاً من ان تسمعه ابنتها فارادت تحويله فلم تجد غير الرجوع الى حديث الرتبة فقالت « كم ينبغي ان نشكرلك

سعيك في هذه الرتبة . . »

فقطع طهماز كلامها قائلاً « وسنشكر فضله أكثر من ذلك متى نجح سعيه في سبيل رامز .. لا اظن ذلك يصعب عليه . اين ولدنا شيرين ؟ »

قالت « لا تزال مريضة وقد مررت بها قبل مجيئي الى هنا فوجدتها نائمة مشدودة الراس من صداع طرأ عليها »

فقال وهو يتناول سيكارة من علبة بين يديه ويقدمها الى صائب « طبعاً اصابها الصداع من الزعل .. ولكن .. »

## الفصل الحادي عشر

### الهدية

فقطع صائب كلامه قائلاً « الا يحق لها ان تزعل والشاب ابن خالتها وقد تعاشرا كالاخوين ؟. اني قاسيت كثيراً ومرت بي اهوال عديدة ومع ذلك فان امر رامز اقلق راحتي .. مسكين .. سابذل جهدي في التخفيف عنه .. وانا اعدُّ ذلك واجباً عليَّ بالنظر لما لاقيته من مؤانسة سيدي البيك وحضرة هانم افندي ( واشار الى توحيدة ) واود ان استطيع امراً معجلاً يخفف عن شرين لاني اشعر بانعطاف خصوصي نحوها بعدما آنسته من ادبها ولطفها وحسن تربيتها.. حفظها الله .. » قال ذلك ومد يده الى جيبه واستخرج علبة مكسوة بالمخمل المزركش وقال وهو يفتحها بين اصابعه « واظن مما الاقيه من لطفكم ان شيرين تشعر نحوي بمثل ما اشعر به نحوها . فاذا قبلت هذه الهدية مني يتحقق ظني وعند ذلك اعد نفسي سعيداً »

ثم وجه خطابه الى توحيدة وقال « لا تستغربي ياسيدتي هذه الجسارة مني فان سيدي طهماز بك جرأني على ذلك » وقدم العلبة مفتوحة الى توحيدة فوقع بصرها فيها على قطعة من الحلى بشكل الطير مرصعة بحجارة من الماس والياقوت يأخذ لمعانها بالبصر لايقدره العارفون باقل من خمسمائة ليرة . فتناولت العلبة ويدها ترتجف من الارتباك لعلمها ان شيرين لا يرضيها شيء من ذلك فلم تعرف ماذا تجيب

فاجاب طهماز عنها قائلاً « ان شيرين عاقلة ومدركة وهي من بنات هذا العصر اللواتي اختبرن وطالعن . فهي لا تجهل مركز صائب بك بل هي تقبل هديته مع

الامتنان .. » وتناول العلبة وجعل يتفرس باحجارها ولمعانها وقال « انا اقدم لها هذه الهدية عنك » قال ذلك ونهض وهو يتهادى بمشيته والعلبة في يده فتبعته توحيدة وقلبها يختلج خوفاً مما تخشى وقوعه على اثر تلك المقابلة

وكانت شيرين متوسدة الفراش واذناها مصغيتان لما يدور من الحديث في الصالون فلم تفتها كلمة قيلت هناك . فلما سمعت قول والدها وعلمت انه مشى نحو غرفتها ارتعدت فرائصها وغلب عليها الغضب وودت لو انهم يعفونها من تلك المقابلة لكنها ما لبثت ان سمعت نحنحة والدها بالباب . واسرعت والدتها امامه تسترق الخطى نحو سريرها وتحسبها نائمة فاذا هي قد جلست واخذت تفرك عينيها فقبلتها والدتها وقالت لها « كيف تشعرين الان ياشيرين ؟ »

فلم تجبها لكنها تجلدت وحولت نظرها نحو الباب فرأت اباها داخلاً وقد استخرج الطير المرصع من العلبة وتقدم نحوها بلطف لم تعهده فيه من قبل . حتى اذا دنا من السرير تبسم وهو يتجشأ وقدم الطير اليها قائلا « كيف تجدين هذا الطير يابنية الا تستلطفينه ؟ »

فتباعدت شيرين عن الطير كانها تخاف ان يلسعها ولم تجب . فتفرس ابوها في وجهها وهو يضحك وقال « لا تخافي انه لا يعض بل هو حلي ثمين يليق بعنقك الجميل » وقربه نحو صدرها

فتراجعت وهي لا تنظر اليه ودفعت يد والدها عنها بلطف فقال « ما بالك العلك لا تزالين مريضة ؟ »

فسرّها سؤاله لانه فتح لها باباً للكلام فقالت « نعم يا ابي .. اني اشكو من صداع شديد » واظهرت ميلها الى الرقاد

فامسكها بذراعها ليمنعها من النوم وقال « اذا كنت تشكين صداعاً ضعي هذا الطائر على راسك فانه يشفيه » ورفعه الى راسها

فردته واظهرت التمنع فاظهر انه عاتب عليها وقال « اقدم لك هدية وترفضينها يا شيرين ؟ »

فنظرت اليه نظر الاستعطاف وقالت « انك والدي وتقدر ان تأمرني بما تريده فاطيعك الا هذا الامر فاني لا طاقة لي به »

فقال « لا اظنك فهمت مرادي . . اني اقدم لك هدية ثمينة جاءنا بها صديقنا صائب بك »

قالت وصوتها يرتجف « اذا كان صديقك قدمها لك فالبسها انت واعفني منها »

قال « انها هدية لك وليست لي »

قالت « لا اعهد بيني وبينه ما يسوغ له تقديم هدية من هذا النوع »

قال « ان الرجل ذو فضل علينا وقد اراد اكرامنا ايليق بنا ان نرفض اكرامه »

قالت « يمكنك ان تقبل ما يقدمه لك اما انا فلا »

فاظهر الغضب وقال « انا اقول لك اقبليها »

فلم تعد تستطيع صبرًا على الكظم ـ فقالت وقد ارتفع صوتها رغم ارادتها « لا لا .. لا يمكنني قبولها يا سيدي . »

## الفصل الثاني عشر

### قلب الوالدة

وكانت والدتها واقفة وقد تولتها الحيرة ونظرًا للهفتها على ابنتها واملها بمساعدة صائب في انقاذ رامز احست بميل الى قبول شيرين بما يعرضه عليها ابوها فقالت « لا تتشبثي برايك يا شيرين يا حبيبتي . . استوعبي المقصود ثم قولي ما يبدو لك »

فالتفتت الى والدتها لفتة العتاب وقالت « وانت ايضاً يا اماه ؟» وغصت بريقها وبان الدمع في عينيها فكان لذلك المنظر وقع شديد على قلب والدتها فسكتت . فعاد ابوها الى الكلام فقال « الا ترينني اطيل بالي عليك واتلطف في محادثتك ؟ فاصغي لما اقوله لك . انا اعلم انك غاضبة مما اصاب عزيزنا رامزاً اليوم ولكن ... »

فقطعت كلامه ولم تعد تتمالك عن البكاء فادارت راسها نحو الحائط واكبت على ذراعها فوق الوسادة وبكت همساً لكن والدها عرف بكاءها من اهتزاز كتفيها فغضب لانها قطعت كلامه بالبكاء وقال « وتبكين ايضاً ؟ وانا اتزلف اليك وارأعي خاطرك ؟ تبكين لذكر رامز وهو الذي جرّ البلاء على نفسه وعلينا وانا اسعى في ترقيع ما مزقه بطيشه ؟ الا تعلمين انه اوقع نفسه في غضب الباد شاه واخشى ان يكون أوقعنا معه ؟ وقد وفقت بمعونة الله الى من ينقذنا من هذه الشرور عند الحاجة . اعني صديقي صائب بك وهو مع ذلك يعرض علينا مودته فكيف ترفضينه بهذه الفظاظة .. قومي .. اجلسي .. »

وامسكها بذراعها يريد اجلاسها فانتترت منه وظلت مكبة على ذراعها وقد اغرقت في البكاء

فالتفت طهماز الى توحيدة وهزّ راسه استنكافاً من تصرف ابنته فوقعت توحيدة في حيرة وخافت الفضيحة فاشارت الى زوجها بضم اصابعها الثلاثة اشارة الاستمهال واومأت اليه بعينيها ان يخرج ويتركهما معها على انفراد . فاستبشر انها ربما استطاعت اقناعها فتنحى الى بعض جوانب الغرفة ثم خرج الى الدار

فعلمت شيرين بخروجه من صوت مشيه ومن سعاله وهو خارج ثم سمعت والدتها تهمس في اذنها قائلة « لايليق يا حبيبتي ان تجيبي والدك على هذه الصورة .. ولو علمت ما فعلوه برامز بعد القبض عليه لما .. ؟ »

فقطعت كلامها قائلة « نعم علمت »

فقالت « هل علمت انهم سيأخذونه الليلة الى الاستانة بامر من السلطان ؟ »

قالت « نعم . وانا اتوقع اعظم من ذلك .. ؟ »

قالت « فاذن .. تبصري بالمركز الحرج الذي نحن فيه وانا على يقين اننا اذا سايرنا صائب بك يقدر ان ينقذ رامزاً وينقذنا اذا لحقتنا تهمة بسببه ... بالله الا خففت من جفائك وسايرت اباك بحسب الظاهر لنرى ما يكون . . . قومي قبلي يده وخذي الهدية فانها لا تقدم ولا تؤخر .. »

فرفعت شيرين راسها عن الوسادة وقد احمرت عيناها كانها محمومة وتكسرت اهدابها من فرط البكاء وقالت « لم اكن احسبك تصدقين الاكاذيب او تخدعين باقوال المنافقين . . وهي ان الرجل صادق بما يقول فاني لا استطيع ان تصوره ولا ان اقبل شيئاً منه . . لا تتعبي نفسك »

قالت « اخاف ان تندمي ياشيرين اذا علمت بعدئذ انه كان في امكانك ان تنقذي رامزاً من الخطر ولم تفعلي »

فحرقت اسنانها وهي تتنهد وقالت « لا . لن اندم لان هذا الرجل الذي يدعي الغيرة علينا وعلى رامز هو الذي رماه في ذلك الفخ »

فغطت توحيدة فم شيرين بكفها مخافة ان يسمعها احد وقالت بصوت ضعيف « لا نقدر ان نثبت عليه هذه التهمة .. وما علينا الا ان نلحق الكاذب الى باب الدار »

فبادرتها قائلة « كفى يا اماه اني لم اعد استطيع صبراً على هذا الجدال ان موتي وموت رامز اهون علي من قبول هذا الرجل .. » قالت ذلك وشرقت بريقها وعادت الى البكاء

وهما في ذلك سمعا وقع اقدام طهماز داخل الغرفة وهو يقول « اسمعي يا توحيدة

ان صائب بك يحب ان يكلم شيرين رأساً . لعلها تقتنع منه »

فلما سمعت شيرين قوله وثبت عن السرير ووقفت واسندت يدها الى احدى قوائمه وقد حولت وجهها عن باب الغرفة كانها تحاذر ان يقع بصرها على ذلك الرجل الذي لا تقدر ان تخيله

فاعاد طهماز كلامه قائلاً « ان صائب بك يريد ان يكلم شيرين على انفراد . فهل من بأس ؟ »

فارتبكت توحيدة من هـذا الاقتراح لانه يخالف العوائد المألوفة ونظرت الى زوجها كانها تستشيره فقال « دعيهما يتحادثان اذ ربما كان صائب بك اقدر على الاقناع منا وهو لم يقدم على ذلك طبعاً الا لشدة محبته .. الا اذا كانت شيرين ترفض هذا الطلب مني ايضاً »

اما شيرين فاستجمعت رشدها وتجلدت وأحست بميل الى مشافهة ذلك الرجل وهي في تلك الحال من الغضب لتقول له في وجهه ما تعتقده فيه وتشفي غليلها بتوبيخه وتعنيفه والتفتت الى ابيها وقالت « لا بأس من دخوله »

## الفصل الثالث عشر

### صائب يتكلم

وكان صائب واقفاً بالباب ينتظر الاذن بالدخول فلما سمع قولها استبشر واستبشر ابوها ايضاً . فخرج الابوان من الغرفة ودخل صائب وهو ينظر الى شيرين نظر المحب الولهان ويتشاغل باصلاح نظارته باحدى يديه وقد حمل بيده الاخرى العلبة وفيها الطير المرصع

فلما دنا منها وهي واقفة بجانب السرير التفتت اليه شزراً وقالت « ما الذي تريده يا سيدي ؟ »

فتقدم بلطف كانه يحاذر ان يدنو منها وقال « اريد رضاك »

قالت « وما الذي يهمك من رضاي ؟ »

قال « ذلك كل ما يهمني فاذا حصلت عليه فقد حصلت على السعادة .. وتكونين انت سعيدة ايضاً بل تكونين اسعد مخلوقة على وجه الارض » قال ذلك بنغمة التذلل والتودد

فقالت « اية علاقة بين سعادتي وسعادتك ؟ »

فابتسم وقال «لانكِ اذا رضيتِ وقبلت هذه الهدية الحقيرة بذاتُ نفسي في سبيل سعادتك » وقدم العلبة على كفه نحوها فتباعدت هي عنه وخبأت يدها وراء ظهرها وهي تقول « انت لا تقدر ان تجعل احدًا سعيداً »

فاستبشر بذلك التوبيخ وقال « جربي يا شيرين وانظري .. فانك ترين مني خادماً مطيعاً اصدع باوامرك واكون طوع ارادتك . فابذل جهدي في كل ما تريدينه »

قالت « اصحيح ما تقوله ؟ »

فسرّه سؤالها وتأكد رضاها فقال بلهفة « اقسم لك اني افعل ما تريدينه »

فقالت « ان غاية ما اريده ان تكون بعيداً عني .. فاذا كنت صادقاً في ماتقول فانصرف بسلام »

فنظر اليها نظر العتاب وقال « ابمثل هذا الجواب تقابلين توددي .. ثقي يا شيرين اني مفتون بك لا اذخر وسعاً في سبيل نيل رضاك .. »

فقطعت كلامه قائلة « اكان من عظم حبك لي وشغفك بي انك رميت ذلك الشهم الحر في اعماق السجن ؟ »

فتحمس عند سماع كلامها وقال « انا رميته في السجن ؟ اعوذ بالله .. انا رميته ؟ . انما رماه طيشه وسوء تدبيره .. ولكنني مستعدٌ ان انقذه من ذلك الفخ اكراماً لعيونك »

قالت « تنقذه من الفخ ؟ ومن رماه فيه سواك ؟ »

فبالغ في الاستغراب وقال « انا ؟ انا رميته ؟ ارجعي الى رشدك » واظهر الاستخفاف بقولها ليبعد التهمة عنه وتجاهل وقرب يده والعلبة فيها وقال « دعي الاوهام عنك وارجعي الى رشدك واقبلي هذه الهدية واعلمي ان ذلك الغلام ليس اهلاً لك . بل هواوشك ان يوقعك في خطر لاينجيك منه احد . اوشك ان يجعلك سجينة مثله لتهمة مثل تهمته . ولولاي .. ولولا حبك لكنت الان تحت غضب الذات الشاهانية .. صدقيني يا شيرين اني خدمتك خدمة لا تثمن بالاموال » قال ذلك والعلبة لا تزال مرفوعة على كفه يقدمها نحوها وهو ينظر في عينيها نظر العاشق المفتون

فاختطفت العلبة من يده ورمتها الى الارض وهي تقول « دعني من هديتك الملطخة بالدم وقل لي كيف انقذتني من الهلاك ؟ ان حبل الكذب قصير »

فشق عليه عملها ولكنه تجلد والتقط العلبة فوضعها في جيبه وقال « اني اعذرك

لجنونك ولا اعاملك بعملك . لكنني انصح لك ان تصدقيني • صدقيني يا شيرين اني انقذتك من الهلاك »

قالت « كذبت ان مثلك لا يستطيع غير ايقاع الناس في المهالك . »

قال « ولكن الذي يقدر ان يوقع الناس في المهالك يقدر ان يخلص الناس منها » ومد يده الى جيبه واستخرج ورقة قبض عليها وقال بلحن التهديد «اعلمي ان حياتك وموتك في قبضة يدي هذه »

فضحكت ضحك الازدراء وقالت « خسئت ... يكفيك تمويهاً يكفيك ما ارتكبته بايقاع ذلك الشاب الحر في ايدي القوم الظالمين . اوقعته بين مخالب الموت لترضي ذلك الطاغية السفاح .. قبحكم الله من اشرار.. ويل لكم من موقفكم يوم الحساب» وغصت بريقها رغم ارادتها ثم تجلدت وقد احست بقوة وبسالة لم تشعر بمثلها من قبل وحوّلت وجهها عنه وجعلت تمشي في الغرفة مشية الاسد الظافر

# الفصل الرابع عشر

## التهديد

فأخذ الحنق من صائب مأخذاً عظيماً وحرق اسنانه ومد يده وهو قابض بها على تلك الورقة وقال « لا اراك فهمت ما اقوله لك . . قلت ان موتك وحياتك في قبضة يدي هذه فاذا اطعتني ورجعت الى رشدك ورضيت بما عرضته عليك كنت سعيدة والا فاني ... »

فقطعت كلامه وقالت « انك اقصر باعاً مما تشير اليه .. »

فتقدم نحوها وقد اخرج تلك الورقة وامسكها بسبابتهِ وابهامهِ حتى ظهرت كلها وانحنى انحناء التهكم وقال « الا تعرفين هذه الورقة ؟ »

فلما وقع بصرها عليها علمت انها من الورق الذي كانت تكاتب به رامزاً احياناً فاجفلت ولكنها كظمت وقالت «وما عساها ان تكون ؟ »

قال « انا اقول لك ما هي • هي كتاب منك بخط يدك وجدتهُ بين اوراق ذلك الطائش الغر... اتعلمين ماذا تقولين له فيهِ ؟ »

فاوجست خيفة لعلمها انها كانت تكتب الى رامز بدون حذر وقد يكون فيها ما

تؤاخذ عليه لكنها ادارت رأسها وقالت « لا اعلم ما بها ولا يهمني ان اعلم »

قال « ألا يهمك اذا كنت تقولين له فيها انك تجدين بقاء الذات الشاهانية جلالة مولانا امير المؤمنين مصيبة على الامة العثمانية ؟ »

قالت « اليس ذلك حقاً ؟ »

قال « لا ادري ؟ ولكنني اعلم ان وصول هذه الورقة الى يدي جلالته يجعلك ان تندمي ساعة لاينفع الندم . واذا كنت لم تصدقي ما اقوله فهذا خطك اقرأيه » قال ذلك وفتح الورقة فوقع بصرها عليها فعرفت خطها فلم يبق عندها شك بوقوع الخطر لكنها ظلت تظهر الاستخفاف

اما هو فقال « هل تظنين هـذه الورقة لا تحوي غير ما ذكرته لك ؟ لو قلت لك فحوى ما بقي منها لترامیت على قدمي تلتمسين كتمان هذا الكتاب ... تقولين له فيه انك تستغربين صبر الاحرار على بقاء هذا السلطان حياً » هل في الدنيا ذنب اعظم من هذا ؟ هل تجدين سبيلاً للانكار ؟ » ثم خفض صوته وقال « هل تحققت الان ان حياتك وموتك في قبضة يدي ؟ » قال ذلك وشمخ بانفه ووقف وهو يتوقع ان تترامى شيرين على قدميه كما قال . لكنه رآها لا تزال مستخفة به كانه لم يقل شيئاً فتقدم نحوها وقال « ومع ذلك فانا حتى الساعة اعرض عليك حياتك ٠ اي اني اهبها لك على شرط ان ترجعي عن غيك وتعتذري عما مضى وتعتقدي اني احبك والاَّ ... »

فحولت وجهها عنه وهي تنظر اليه بطرف عينها ازدراءً وتمتمت « اعتذر عما مضى ٠٠٠ ! » ثم توجهت نحوه بجسارة وقالت « اسمح لي ان اثبت كذبك قبل كل شيء ٠٠٠ لما قلت لك انك القيت رامزاً في السجن بوشايتك تنصلت وانكرت وانت تقول الان انك اخذت هذه الورقة من بين اوراقه فكيف وصلت لها لو لم تكن انت الساعي فيه ٠ ثم اعلم ان الحياة ليست هي وحدها غاية الانسان في دنياه ٠٠٠ هل تحسب السعادة بالطعام والشراب او باكتساب الاموال ؟ اذا كنت تعد ذلك سعادة فاعلم انها سعادة حيوانية وانما السعادة سعادة الضمير الحر ٠ سعادة القلب السليم ٠ تلك سعادة النفوس الابية طلاب الحرية . ولكنك لم تذق هذه السعادة ولن تذوقها ٠ انك وامثالك تحسبون الغرض من الحياة ان تجمعوا الاموال باية وسيلة كانت تبيعون ضمائركم بالجاسوسية فتخربون البيوت العامرة وتقتلون النفوس البريئة سعياً وراء الدينار كما تسعى الكلاب وراء الجيف المنتنة ٠٠ هنيئاً لكم تمتعوا ما شئتم واقتلوا ما شئتم ٠ ليس هذا مذهب الاحرار الصادقين . فاذا علمت ذلك هان عليك ما تجده

من استخفافي بتهديدك .. فافعل ما تراه .. فما انا خير ممن سبقني الى هناك »

وكانت تتكلم كانها تخطب على جمهور وصائب يسمع كلامها ويهز راسه تارة ويقلب شفته تارة اخرى ولسان حاله يقول « هذا هو الجنون بعينه » فلما فرغت من كلامها سكت هنيهة وهو مطرق وقد اخذته الحيرة ثم رفع بصره اليها وقال « لا ازال اراك تتكلمين كلام اهل الطياشة الذين يتفلسفون فيضيعون ايامهم بالكلام الفارغ . وقد كان يجدر بي بعد ما سمعته منك ان اكتفي برفع امرك الى صاحب الامر وهو يعرف شغله معك . لكنني لا ازال ضنيناً بحياتك شفوقاً على شبابك اكراماً لابيك ولاني احبك . فانا اعرض عليك الحياة مرة ثانية واجيبك على قولك ان ما ذكرته من الالفاظ الضخمة كالضمير والحرية والنفس الابية انما يلجأ اليها اهل الفاقة الذين تضيق دونهم سبل الرزق فاذا عجزوا عن اكتساب المال عدوا اكتسابه رذيلة .. اي فائدة لاصحاب تلك النعوت ان لم يكن لديهم من المال ما يدفعون به الجوع والبرد ؟ وما هي الحرية أو ما الفائدة منها لمن خلا جيبه وخوى جوفه ؟ هل تجدين بين اولئك الذين يسمون انفسهم احراراً من يستطيع ان يعيش من ماله — حتى اصبح لفظ حر لقباً لاهل الطيش الافاقين الذين يضربون في الارض لخلو ايديهم من المناصب فيزعمون انهم تخلوا عن الخدمة رغبة في الحرية . ولكنهم يفعلون ذلك عن عجز ولو أعطيت لهم المناصب لنبذوا الحرية واركنوا الى العبودية . . كما فعل كثيرون منهم انا كنت الوسيلة في ردهم الى رضى الذات الشاهانية . . ما لنا ولذلك الآن هذه آخر كلمة اقولها لك ثم يكون دمك على راسك — اني اعرض عليك النجاة من خطر الموت . ولا ازال اقول اني اعدك بانقاذ رامز ايضاً ولا اشترط شيئاً غير رضاك بي والا فلا تلومي الا نفسك » قال ذلك بلحن التهديد وتحول نحو الباب وهو يتوقع ان تندم فتستقدمه وتباحثه فلم يسمع منها الا قولها « افعل ما بدالك . . واذا كانت الحياة على يدك وايدي امثالك لاحاجة لي بها »

فعاد صائب اليها بعجلة وهو يشير بيديه اشارة الوعيد والتعنيف وقال « تزعمين انك تحبين رامزاً وها انت تقتلينه بيدك . قد سنحت لك فرصة لانقاذه فلم تفعلي . . »

فاجابته « ان حبي رامزاً لا دخل لك فيه . وان رامزاً لا يرضى ان تكون حياته منة من جاسوس منافق . واما انا فاني افضل ان يموت رامز واموت انا معه ضحية الحرية وقول الحق ولا نعيش عيشة المتملقين المنافقين . وزد على ذلك فان يدك اقصر من ان تستطيع خيراً . . انك لاتقدر على غير الشر فانصرف عني ودعني »

فضحك صائب ضحكة طويلة وان كانت اغتصابية وتحول وخرج وهو يردد قولها باستهزاء « نموت ضحية الحرية وقول الحق » ما شاء الله

# الفصل الخامس عشر

## الخلوة

وكان طهماز وامرأته جالسين في الصالون يسمعان ما دار بين شيرين وصائب وكانا يتوقعان ان تذعن شيرين خوفاً فلما رايا هذا التصلب قال طهماز « قبح الله هذه الفتاة ما أجنها . . اذا كانت لا تخاف على حياتها فاننا نخاف على حياتنا بسببها » فلما خرج صائب بادر طهماز اليه واخذ يستعطفه ان لا يتعجل بالانتقام وان يعذر شيرين على طيشها ويمهل ريثما يقنعونها . فرفض في بادئ الرأي فبالغ طهماز في استعطافه فوعده انه صابر يوماً أو يومين اكراماً لخاطره وودعه وانصرف وهو ينتفض من شدة الغيظ لما سمعه من شيرين وكان يتوقع استسلامها له بمجرد اطلاعها على ذلك الكتاب وكان قد وجده بين اوراق رامز فاحتفظ به ليتخذه ذريعة لاذلالها . فلما راى جفاءها حدثته نفسه ان ينتقم منها لكنه علم انه اذا فعل خرجت شيرين من يده فلما استمهله والدها ووعده باقناعها تربص ليرى ما يكون من امرها

اما توحيدة فانها اصبحت لا تعلم ماذا تعمل وقد لامت ابنتها على ما بدا منها وصممت على اقناعها بالرجوع عن عنادها وتقدمت الى طهماز ان يعول عليها في اقناع شيرين وان يلحق بصائب ويؤكد استعطافه ويعتذر له عما بدا . فلبس ثيابه وسار في اثره

أما شيرين فلما خرج صائب من غرفتها اغلقت الباب بعنف واظهرت انها تلتمس الانفراد والراحة في الفراش فتركتها والدتها وذهبت الى غرفتها لتعمل فكرتها في حيلة تخترعها لاقناعها

فلما خلت شيرين بنفسها فكرت في ماسمعته ورأته فتحققت وقوع الخطر عليها وعلى رامز وايقنت انهما مقتولان . . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب وهي ساعة تستولي فيها الوحشة على قلوب البشر كانهم يشاركون الطبيعة بالاسف على فراق سيدة العالمين فتنقبض القلوب وتظلم النفوس وتتسلط السويداء على العقول فلا يرون من الدنيا الا وجهها المظلم فكيف في من كان في مثل حال شيرين من اليأس بعد ان قضت نهارها بين جدل وبكاء وحزن وخوف ؟

فاغلقت شيرين غرفتها وقد جاش الحزن في خاطرها فتذكرت حبيبها وكيف كان يأتيها في مثل تلك الساعة فيخفف احزانها ويذهب وحشتها بلطف حديثه فيتشاكيان ويتحادثان. وتصورت ماهو فيه من الضيق وكيف انه لا يلبث ان يصير فريسة لذلك الظالم ولا تدري ما يكون من امره هناك. اذ قد يسجن ويعذب أو يقتل او يلقى في البوسفور فيذهب فريسة للاسماك. فلما تصورت ذلك اقشعر بدنها وغلب الحزن عليها ولم تجد ما يفرج كربتها غير البكاء. فاطلقت لنفسها العنان واخذت تندب سوء حظها وتبكي وتشهق كالطفل وجعلت تناجي نفسها قائلة «رامز.. حبيبي رامز اين انت الآن يا ترى؟. انك مسجون وعما قليل يحملونك الى يلدز قبر الاحرار ومدفن الحرية.. لا تخف.. لا تبال بالموت في سبيل الحق والحرية.. ولكن اه.. يموت رامز... يموت حبيبي رامز الحر الصادق ويبقى هذا الجاسوس واصحابه في قيد الحياة؟»

قالت ذلك وحرقت اسنانها ووثبت من فراشها وقد اظلمت الغرفة فاتسع مجال الخيال فتصوّرت رامزاً في ضنك وانه لاشك يفكر فيها ويخاف عليها ويخشى ان يحظى صائب بها بعده فقالت «لا تخف يا حبيبي اني ثابتة على ودادك.. اني متفانية في حبك.. وان يد ذلك المنافق اقصر من ان تنال مني شعرة وابعد من ان يحظى مني بنظرة.. ولكن آه ما الفائدة من ذلك وانت تحت خطر القتل الشنيع.. ما العمل الآن يا شيرين؟»

وكانت تقول ذلك وهي تمشي في الغرفة وقد اصبحت في غفلة عما يحيط بها ونسيت موقفها فاخذت تستجمع قواها فرجعت الى السرير واستلقت عليه واطلقت لتصورها العنان فسمعت وقع خطوات في الدهليز عرفت انها خطوات امها ثم سمعت نقراً على الباب فعلمت ان والدتها تطلب الدخول عليها فتظاهرت بالنوم ولم تجب فالحت والدتها في القرع خوفاً على ابنتها من تلك الوحدة لئلا يصيبها اغماء او سوءٌ آخر. فلم تجد شيرين بدّاً من النهوض فنهضت وفتحت الباب وهي تتجلد لتخفي ما في نفسها. فدخلت والدتها وفي يدها مصباح وقد بلل الدمع عينيها فتأثرت شيرين من حنو تلك الوالدة التي ليس لها تعزية في الدنيا سواها. وكانت رابطة شيرين بوالدتها اشد من رابطة سائر البنات بامهاتهن لان شيرين كانت مستودع اسرار تلك الوالدة التعسة التي خانها الحظ وصارت زوجة لذلك الرجل الجاهل. فاحتملت فظاظته وحماقته اكراماً لابنتها. فربتها أحسن تربية ولما كبرت اتخذتها صديقة تشكي اليها همومها ومصائبها وهي التي سهلت عليها الاجتماع

برامز . وكانت تسر باجتماعهما وينشرح صدرها لتحابهما وكانت تعد الايام ليتم قرانهما. وقد احبت رامزاً محبة الوالدة لولدها فكان وقوعه في هذه الورطة من اكبر اسباب شقائها . وزاد بلبالها لما علمت مما دار بين شيرين وصائب ان ابنتها عرضة لذلك الخطر الا اذا رجعت عن عنادها ورضيت بصائب مع كرهها له واستنكافها من دناءة اخلاقه . ولكن غلب عليها الحنو الوالدي فاختارت اهون الشرين لعلمها ان صائباً اذا لم ينل رضاها وشى بها وساعد على قتلها

كل هذه الهواجس مرت في خاطر توحيدة لما انفردت في غرفتها بعد ذهاب صائب وكانت تنوي ان تؤجل مخاطبة شيرين الى الصباح لكنها لما تراكمت عليها الهواجس لم تعد تصبر عن رؤيتها لتطمئن عليها ولعلها تستطيع اقناعها بالقبول . وكان زوجها قد غادر البيت فرحاً برتبته ليقضي السهرة مع صائب ويطمئنه على نيل بغيته. فحملت المصباح واتت الى غرفة شيرين كما رايت

## الفصل السادس عشر

### شيرين ووالدتها

فلما تلاقى نظراها ابتسمت كل منهما للاخرى تخفيفاً عنها والدمع يتقطر من اعينهما . وغلب حنو الوالدة فوضعت المصباح من يدها على طاولة هناك واكبت على ابنتها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهي تقول لها « اين كان هذا البلاء مخبأ لنا ؟ . قبحك الله ياصائب . . قد كنا في نعيم وراحة فاتيت وكدرت عيشنا » ثم رفعت راسها عن عنق شيرين وقالت « سامحك الله ياطهماز . . » وأمسكت شيرين من يدها واجلستها على المقعد وهي تقول لها « لا تحزني ياعيوني .. لاتيأسي . . ان الله لايتركنا »

فظلت شيرين ساكتة وقد اطرقت وعيناها مغرورقتان بالدمع ولاتقدر على الكلام فاستخرجت توحيدة المنديل من جيبها ومسحت عيني ابنتها وهي تقول « لا بأس عليك ياحبيبتي . تكلمي . فقد اتيتك وابوك خارج البيت لاخفف عنك . ما من علة الا ولها دواء »

فتنهدت شيرين تنهداً عميقاً ولم تجب

فقالت توحيدة «ان الامر صعب ولكن نجاتك في يدك .. » وسكتت وهي تراعي

مايبدومن شيرين فاذا هي لم تزد على ان نظرت الى والدتها بطرف عينها ولم تتكلم فقالت توحيدة « ألا ترين الحق معي ياحبيبتي . . اليس خلاصك في يدك ؟ »

فتنهدت شيرين ثانية وقالت « اذا كنت تعنين خلاصي من الموت فنعم » فقالت « اذاً فافعلي . . ارجعي عن عزمك وقولي كلمة فتنقذي حياتك وحياة رامز أيضاً »

فقالت « ولكن اذا رضيت انا بانقاذه على هذه الصورة لاسمح الله فانه لايرضى »

فاستبشرت بقرب رضاها فقالت « اما رامز فانا اضمن انه يرضى . . لا أعني ان تقبلي بصائب فعلاً بل اعني ان نسايره ونعده ريثما نرى مايكون من امره . فاذا انقذ رامزاً فليفعل رامز به مايشاء . . وانما نحن ننجو من الخطر الذي يهددنا به »

فقالت وهي تهز رأسها هز الانكار « وان رضي رامزفانا لاارضى . . لا أرضى »

قالت « لقد حيرتني . . بالله عليك اشفقي على والدتك اذا كنت لا تشفقين على شبابك . ان هؤلاء القوم لا يخافون الله ولا يبالون بماذا يفعلون . . دعينا نخادعهم مرة واحدة التماساً لحياتك وحياة حبيبنا رامز وحياتي . »

فتململت شيرين وبلعت ريقها كأنها تهم ان تقول شيئاً وتمسك نفسها فعادت توحيدة الى الكلام قائلة « بالله قولي ياشيرين . قولي انك اصغيت لتوسلي . »

فقالت « دعيني الآن يا أماه اني لا املك نفسي »

قالت « سأتركك . . تفكري في الامر الليلة وارجوان تتحققي صواب رأيي وتطيعيني وسأعود اليك في الغد ان شاء الله . . هل آتيك بالطعام ؟ انك لم تأكلي شيئاً اليوم . »

فاشارت براسها ان « لا »

فألحت عليها ان تأكل فقالت « لااشعر بالجوع الآن واذاجعت فاني اعرف مكان الطعام كوني براحة »

فاطمأن بال توحيدة ونهضت وانهضت شيرين معهاوساعدتها على خلع ثيابهاووضعتها في الفراش ومضت وقد أنعشها الامل



# الفصل السابع عشر

## الى اين ذهبت

ونهضت توحيدة في الصباح باكراً قبل ان ينهض زوجها من الفراش وذهبت الى غرفة شيرين فوجدت الباب مفتوحاً وليس في الغرفة احد . فظنتها في مكان آخر من البيت ففتشت في سائر الغرف فلم تجدها . فعادت الى غرفتها وأمعنت النظر فيها فعلمت من عدم وجود نعالها والثوب الذي تلبسه في الخارج انها ليست في البيت فاقشعر بدنها واعملت فكرتها في المكان الذي يمكن ان تذهب اليه فتذكرت صاحبة لها كانت مستودع اسرارها تسكن على مقربة من بيتهم فنادت خريستو (الخادم) لترسله في التفتيش عنها فلم تسمع جواباً فظنته لايزال نائماً فاسرعت الى حجرة ينام فيها فوجدتها مفتوحة وليس فيها احد فوقعت في حيرة وترقرق الدمع في عينيها. ولكنها مازالت ترجو ان تقف على خبرها فلم تشأ ان تبكي فعادت الى غرفة شيرين وجلست على المقعد خائرة القوى واسندت رأسها بين كفيها واخذت تفكر في خروج ابنتها على تلك الحالة خلسة . واول خاطر بدا لها انها هربت خوفاً من غضب المابين عليها اذا اطلعهم صائب على كتابها . ولكنها لم تجد سبباً لفرارها خلسة عنها . ولكن الى اين تفر ؟ فتذكرت الخادم خريستو وهو الباني الاصل متقدم في السن وقد ربى شيرين في صغرها وكان يستهلك في سبيل مرضاتها . وهو نشيط همام يحب الحرية ويكره اهل الاستبداد وكان يزداد احتراماً لشيرين وتفانياً في خدمتها كلما رآها تحب الاحرار وتخدم مصلحتهم فتصورت توحيده ان خريستو أغرى شيرين على الفرار الى بلده

على انها لم تجد باعثاً على خروجها بدون ان تخبر والدتها فوقعت في حيرة واذا هي تسمع سعال زوجها وهو خارج من غرفته . ثم رأته وعليه لباس النوم وعلى رأسه طاقية حمراء وقد انتفش شعر رأسه ولحيته وحمل على كتفه منشفة واتجه نحو حنفية الغسيل وهو يحك رأسه ويفرك عينيه. فلم تشأ ان تباغته لكنها سمعته ينادي خريستو ويلح في المناداة فتقدمت نحوه وقالت « ان خريستو ليس هنا »

فالتفت اليها وقال « الى اين ارسلتموه في هذا الصباح ؟ . »

قالت « لم نرسله الى مكان ولكن شيرين ايضاً ..» وغصت بريقها وغلب عليها البكاء فاستغرب بكاءها فقال « مابالك تبكين ؟ ماذا فعلت شيرين ؟ انها لاتزال تتعبنا باعمالها وعنادها »

فتجلدت توحيدة وقالت « شيرين ليست هنا . لا ادري الى اين ذهبت . » وكانت تتوقع ان يشاركها طهماز بالاستغراب والبغتة فاذا هو تحول نحو الحنفية واخذ يعالج الصابون ليغسل وجهه وهو يقول « ولا أنا ادري . . يظهر انها توجهت الى بعض صواحبها اللواتي يوافقنها على التحدث بالحرية والطعن في السلطان واعوانه . . انها سترمينا في ورطة لاخلاص لنا منها » واخذ في الغسيل كأن الامر لا يهمه

فاستخفاف طهماز بخروج شيرين خفف دهشة توحيدة لانها اعتقدت نفسها مبالغة بالخوف اذ قد تكون في زيارة عند بعض صواحبها كما قال على انها لم يطل صبرها على هذا الاعتقاد فعادت الى الوجل واحبت ان تبعث من يفتش عن شيرين في مظانها وليس عندهم احد ولم تجسر ان تطلب الى زوجها ان يذهب بنفسه فاخذت تستعد للذهاب . فلبست ثيابها ولم تقل شيئاً حتى فرغت من اللبس وكان طهماز قد فرغ من الغسيل وهي تعلم انه سيطلب القهوة ثم الطعام فاذا وافقته ضاع الوقت فغافلته وخرجت الى الاماكن التي تظن شيرين ذهبت اليها وهي قريبة من المنزل ولم تغب نصف ساعة حتى عادت ولم تقف لها على خبر هناك فوجدت زوجها قد طبخ القهوة لنفسه واخذ في لبس ثيابه

فقالت له « ذهبت للتفتيش عن شيرين فلم اجدها عند احد من اصحابها »

فقال « ستجدينها بعد قليل .. ولكن يظهر من ذهابها مع خريستو انها هربت وكم من مرة اردت اخراج هذا اللعين من بيتنا وانت لا تريدين . انه من جملة اسباب تمسك شيرين بعنادها ومتابعة اولئك الاغرار الذين يسمون انفسهم احراراً لانه من اهل ذلك الجنون ايضاً — اذا كنت تظنين شيرين قد هربت فلاحيلة لنا فيها ولاذنب لنا لاننا نصحنا لها وكدنا نقبل يدها لترجع عن غيها وتوافق صائب بك على طلبه لتنجو وتنجينا من الخطر فلم ترض . . وها هي قد هربت وتركت الخطر علينا . فان الحكومة اذا طلبتها ولم تجدها تمسكت بنا . . . اخاف ان يكون صائب بك قد دفع كتابها الى ناظم بك رغم التماسنا ان لا يفعل »

قال ذلك وهو يلبس ثيابه وتوحيدة واقفة بباب الغرفة مطرقة لا تدري ماتقول ولما ذكر صائباً وكتاب شيرين خافت ان يصح قول طهماز ويكون صائب قد بعث الكتاب الى المابين غيظاً من شيرين ولم يصبر فقالت « صدقت اني اخاف ان يفعل صائب ذلك . ما العمل ؟ »

قال « وعدني امس انه يصبر الى صباح اليوم فاذا لم ترضَ بعث الكتاب وتواعدنا ان يأتي الينا في الصباح فلا يلبث ان يكون هنا . . اعدي لنا الفطور »

فنهضت نحو المطبخ واخذت في اعداد الطعام وركبتاها ترتجفان من شدة التأثر وتعجبت كيف يخطر لزوجها ان يطلب الاكل وهم في تلك الحال من الاضطراب

## الفصل الثامن عشر

### الاستمهال

وبعد ساعة سمعت توحيدة قرقعة المركبة بجانب البيت تلاها الوقوف فعلمت انها مركبة صائب فاخذتها الرعدة فتشاغلت باعداد المائدة ريثما يدخل . ثم سمعت وقع خطواته وطرق عصاه على السلم وما لبث ان صار في الدار ووضع عصاه على الطاولة وخف طهماز لاستقباله وهو يهش له . فتصافحا ودخلا الصالون وصائب يمشي مرحاً مشية الظافر ويتكلف التواضع والتلطف . وجاءت توحيدة بعد قليل للسلام عليهِ فلحظ دمعاً في عينيها فسأل عن السبب فقال له طهماز « لا شيء . لكننا اصبحنا اليوم فلم نجد شيرين في البيت فاضطرب بالنا عليها »

فاجفل صائب واول شيء خطر ببالهِ انها هربت فصاح « الى اين تهرب . . » ونهض كانه يهمُّ بالخروج وقد بدا الغضب في عينيه فاستوقفه طهماز قائلاً « تهرب ؟ لا نظنها تفعل ذلك . . انها لا تلبث ان ترجع الينا . . افرض انها اختبأت عند بعض اصحابها يوماً او يومين ثم . . . »

فابتدره صائب قائلاً « كيف تذهب وحدها ؟ »

قال « يظهر انها ذهبت مع خريستو الخادم لاننا لم نجده في البيت »

فجلس وهو يهز رأسه للتهديد وقال « مع خريستو الالباني ؟ ها ها . . . » واخذ يفتل شاربيه وهو يعمل فكرته ثم استخرج علبة السكاير واخذ سيكارة فاسرعت توحيدة الى عود من الكبريت اشعلته وقدمته له ويدها ترتجف . فاشعل سيكارته منه ونفخ الدخان نفخة طويلة وهو ينظر في صورة معلقة بالحائط كانه يتشاغل عن الغضب الذي تولاه فابتدرته توحيدة قائلة « ان شيرين لا يمكن ان تفرَّ يا سيدي . لعلها عند بعض اصحابها وان كانت لم تفعل ذلك من قبل»

قال « تفرُّ ؟ الى اين ؟ وكيف ؟.. اننا نسد الطرق دونها . . . واذا هربت فانها تطلب موناستير او غيرها او لعلها تذهب الى رسنه لان لكم اهلاً بها . وهب انها فرت

مع خادمها الى البانيا بلده فانها تحمل الينا صاغرة »

فصاحت توحيدة بلهجة الاستعطاف « اتوسل اليك يا سيدي ان تساعدنا في استرجاعها . . . »

فقال « ولكنني لا استطيع ذلك الا اذا أبلغت الحكومة ذنبها لتبعث الرسائل البرقية الى محطات السكك الحديدية لتوقيفها »

قالت « لا . لا ياسيدي . ليس هذا ما نطلبه واخاف حينئذ ان نقع نحن فيما هو اشرّ من ذلك وانت لا ترضي ان تلحق بنا هذا الاذى اذ لا ذنب لنا ولا الذنب لشيرين ولكنها مغرورة . ولو صبرنا عليها يوماً او يومين واخذناها بالتؤدة لانصاعت الى ما نريد ولكننا تعجلنا رضاها وهي في ابان غضبها فلم تطع . . ومع ذلك لا اعتقد انها خرجت من سلانيك لانها لم تتعود الخروج من المنزل فكيف تطلب موناستير اوغيرها . فلنصبر هذا اليوم فقط ونحن نفتش عنها في بعض الاماكن التي نظنها توجد فيها الى المساء فاذا لم نجدها تكلمنا في الطريقة المثلى للتفتيش عنها » قالت ذلك وعيناها تذرفان الدمع وصوتها مختنق ولم تعد تستطيع الوقوف فانصرفت الى غرفتها

فلما خلا طهماز بصائب قال له « لا تخف انها لا تهرب . . وكيف تهرب وهي لا نقود عندها ؟ انها سترجع صاغرة مطيعة وتعترف بخطأها . وقد صدقت توحيدة باننا اخطأنا بمباغتتها وتعجل رضاها . . انا وعدتك بها وانا مطالب بوفاء الوعد . . . قبحها الله اين تجد احسن من صائب في كل الذين حولنا ؟ »

قال صائب « لايهمني الآن رضيت ام لم ترض بعد الذي شهدته من فظاظتها وعنادها . . لكنني اصبحت مطالباً ان لا اخون ولي نعمتي . . »

فادرك طهماز انه يشير الى الكتاب الذي بيده منها وانه ينوي تبليغه الى المابين فقال « لا تفعل ياسيدي فانك اذا بلغت خبر هذا الكتاب الى الحكومة ولم يجدوا صاحبته وقع الغضب على اهلها . هل اذنبنا نحن لك ؟ ألم تجد اننا اخلص الناس للذات الشاهانية فهل تريد ان نؤخذ بذنب سوانا ؟ »

قال « انت والحق يقال مخلص لامير المؤمنين ولو كان الكل مثلك لخلصت البلاد من القلاقل . وستنال المكافأة اللازمة . ولاريب عندي انك اذا اطعتني وذهبت معي الى المابين ستلقى ما يسرّك . . . »

فابرقت أسرة طهماز اعجاباً بنفسه وقال « اذن فلننتظر يوماً او يومين ولا بد من ظهور الفتاة بعد ان تكون قد قاست الهوان والعذاب فترجع عن غيها وتثوب الى رشدها

وتعلم انك نصحت لها . ولا ينبغي لنا ان نحاسبها على ما فرط منها فانها لم تخرج عن كونها امرأة . وهل تحاسب النساء على اعمالهن وهن ناقصات عقول . وخصوصاً في هذا العصر الذي اصبح رجاله لا يحاسبون على غلطهم لشذوذهم عن المألوف في ايامنا . . انهم يخرجون على الخليفة ويطلبون قلب الحكومة . . أليس هذا من الطيش وهل يحاسب صاحبه على عمل يعمله فكيف اذا كان فتاة والنساء لم يخلقن الا للطبخ والخدمة وتربية البنين .. ولكن الزمان تغير وقانا الله عاقبة اعمالنا »

فصادق صائب على ما قاله طهماز ووافقه على الانتظار وكانت المائدة قد اعدت فنهضوا للطعام

---

# الفصل التاسع عشر

## رامز

لنتركهم يفتشون عن شيرين ولنذهب الى رامز لنرى ماذا جرى له . انه سيق الى سراي الحكومة مخفوراً كما يساق المجرمون في مركبة مقفلة ومعه اثنان من الضابطة وحملوا اوراقه معه في محفظة كبيرة قد ختموها في غرفته بوجود ناظم بك . فكان وهو في المركبة المقفلة مستغرقاً في تصوراته وقد علم انه صائر الى اشد الاخطار فلم يبال بشيء منها لولا شيرين . لانها كانت مستقر آماله ومستودع مسراته يكفيه منها نظرة تودد او كلمة اعجاب بما يكتبه حتى يستفزه الطرب وتهب فيه الحماسة وينشط الى مواصلة الاخذ بناصر الاحرار . وكانت هي التي زادته تمسكاً باذيال الحرية والدفاع عنها بشدة والطعن بالظالمين حتى تهور والقى نفسه في ذلك الخطر

وللمرأة روح تبثها في قلب الرجل فتنبه عقله وتثير همته ويصبح طوع ارادتها يحب ما تحب ويتفانى في سبيل ما يرضيها . فاذا كانت قوية المبدأ سامية الخلق شريفة الاحساس صعدت به الى سماء المجد واصبح همه التخلق بتلك الاخلاق . وقد علمت ان شيرين كانت مفطورة على حب الحرية تعشقها وتتغزل بها فكيف لا يعشقها رامز ويستهلك في نصرتها . وكم من قائد يخوض ساحة الوغى ويعرض حياته للخطر وهو لا يرجو من وراء ذلك الا ابتسامة من حبيبته او كلمة اعجاب من شفتيها . وكم من ع... او كاتب او جواد او مصلح انما يشقى في جهاده التماساً لرضى حبيبة عاقلة فطرت على

حب هذه الفضائل . فيا لسعادة الامة التي تسمو فيها اخلاق المرأة حتى تعشق الفضائل فتكون عوناً للرجل على المبرات او الحسنات او السعي في سبيل الحق والحرية اذ تكون محرضة له تستنهض همته بنظرة اوكلمة ـ الام تحرض ابنها والحبيبة حبيبها والاخت اخاها وويل للامة التي انحطت فيها اخلاق المرأة فاقتصر همها على الاكل والشرب وانحصرت احاديثها في الخرافات والاوهام

قضى رامز مدة الطريق من منزله الى سراي الحكومة وهو غارق في بحار الهواجس لم تبرح صورة شيرين من مخيلته كما فارقها للمرة الاخيرة . وتذكر نصيحتها له ان لا يستخلص صائباً فقال في نفسه « لا بد ان تكون هذه الوشاية منه » ثم اكبر ان يرتكب صديق بصديقه مثل هذه الرذيلة

ولم ينتبه لنفسه الا وقد وقفت المركبة به وفتح بابها فنزل منها وهو يتجلد ويظهر عدم المبالاة باعمالهم . فاستقبله ضابط كان واقفاً هناك وأشار اليه ان يمشي في أثره فتبعه حتى دخل قاعة ناظم بك القومندان . وكان رامز طويل القامة جميل الطلعة متناسب التكوين وفي عينيه ذكاء ومهابة . حسن الهندام نظيف الثوب لكنه لم يستطع اصلاح شأنه في ذلك الصباح لانه نسي نفسه وانصرف بكليته لما بين يديه . فلما دخل قاعة ناظم بك وجده جالساً في صدرها بلباسه العسكري وبين يديه المحفظة المختومة وبجانبه صائب بك . فلما رأى صائباً اجفل وتحقق ظنه فارتعدت فرائصه من الغيظ لكنه تجلد فابتدره ناظم بك قائلاً « كيف ترى نفسك يا رامز افندي . »

قال « لا أرى شيئاً .. » وهز كتفيه ازدراء

فتصدى صائب للكلام بلطف وهو يظهر الاسف وقال مخاطباً ناظم بك « ان رامز افندي مغشوش في الطريق الذي سار فيه . وانما اغراه اهل الطياشة ولا شك عندي انه حمل على ما فعله مراعاة لاصدقائه »

فقال ناظم « كيف يكون كذلك وهذه الاوراق تؤيد انه خائن الدولة والملة وهذه كتاباته في الجرائد التركية والفرنساوية تشهد عليه . واظنك تدافع عنه لانه من اصدقائك »

فقال صائب وهو يظهر الاهتمام « افندم . نعم ان رامز افندي صديقي لكنني اقول الحق وانا اعرف اخلاقه فانه مغرور . . » ثم حول خطابه الى رامز وقال « أليس كذلك ؟ »

فهز رامز رأسه بانفة ورفعة وقال « لا »

فقال ناظم لصائب « وتقول انه مغرور .. ان هؤلاء الغلمان المتهورين الخارجين على جلالة البادشاه ينبغي ان نجتث ارومتهم و نعلمهم كيف تكون عاقبة الخائنين . . . » وهمَّ ان يأمر بأخذه الى السجن . فوقف صائب واظهر انه يبذل وسعه في الدفاع عن صديقه رامزوقال « افندم . تمهل . اني اعرف رامزاً من الصغر وكناً معاً في المدرسة.. انه مغترٌ ومن غروره انكاره ذلك بين يديك »

ثم تحول نحو رامز وقال « لا يغرنك الغلمان الذين يزعمون انهم ينصرون الحرية فانهم انما يطلبون وظيفة متى حصلوا عليها تركوك في الخطر. وقد سبق وخدعوا كثيرين من امثالك ثم رجعوا الى صوابهم ونالوا رضى الذات الشاهانية وتنعموا بخيراتها . وانما المطلوب ان نعرف الاشرار الاصليين الذين يحركون هذه الشرور وهم قليلون واكثر الذين معهم مغشوشون نظيرك . فانت الآن اذا دللتنا على رؤساء هذه العصابة التي تسمي نفسها جمعية الاتحاد والترقي او دللتنا على محل اجتماعها فقط فانا الضمين لك باطلاق سراحك . واحفظ هذه المحفظة بما فيها من الاوراق امامك واضمن لك مكافأة عظيمة بالرتب السنية والرواتب الباهظة . . . » ولما وصل الى هنا بلع ريقه وتحنح يتشاغل لحظة ليرى مايبدو في اثنائها من رامز فوجده ساكتاً مطرقاً فتخيل له قرب قبوله فعاد الى الكلام فقال « واعلم انه لايمكن ان يعجزنا الوصول الى سر هـذه العصابة ومكانها من احد اعضائها اذ لا بد من ان يعضهم الجوع ويتعبوا من مناطحة الصخر فيرجعوا الى مراضاة مولاهم ومولانا جلالة البادشاه امير المؤمنين كما فعل الذين سبقوهم في باريس وجنيف ومصر وغيرهم ولا بد من ان ينال المكافأة الكبرى من يبلغ خبرهذه الجمعية ويقع الغضب على الباقين . فكن انت ذلك المبلغ ونحن نوافقك في اخراج من شئت من الاعضاء الذين تعتقد انهم مغشوشون نظيرك . . يكفي ان تخبرنا عن المكان الذي يجتمع فيه أولئك العصاة الخوارج »

وكان ناظم بك يسمع كلام صائب وعيناه تراعي رامزاً وما يبدومنه فلما طال سكوته استبشر. فلما فرغ صائب من كلامه رفع رامز بصره اليه وقال « ان عزة النفس والحرية الشخصية وشرف القول الفاظٌ لامعنى لها عندك . ولاتقدر ان تتصورها فالكلام معك عبث .. انا لست مغروراً ولارفاقي مغرورون وانما المغرورون انتم الذين تبيعون وطنكم وتسوقون اهله الى الخراب طمعاً بالمال . فاذا كان عندك كلام تقوله في غيرهذا الموضوع ومنه فائدة قل . والا فافعلوا بي ماتشاؤون »

فرجع صائب وهو يهز راسه استغراباً وجاس على كرسيه وتناول ناظم بك الكلام

قائلاً « ان صائب اخاص لك النصح . . فكيف تخاطبه بهذا الاسلوب ان غاية مايطلب منا ان نرسلك مغلولاً الى الاستانة مع هذه الاوراق وانت تعلم مصيرك . لكن صائب بك اراد ان ينجيك فعرض عليك هذا الامر فاجبته بكلام قبيح تستوجب عليه القصاص »

قال « لاحاجة لي بنصحه فافعل ماتشاء . »

قال « خذوه الى السجن »

فمشي رامز بقدم ثابتة وهو لايبالي . وبعد انصرافه اتفق صائب وناظم بك على ارسال تلغراف الى المابين بالقبض على احد اعضاء الجمعية واوراقه ويسألهم عما يريدون ان يفعلوا به

# الفصل العشرون

## الاستانة

نترك اهل سلانيك ونذهب الى الاستانة دار الخلافة ومصدر متاعب الاحرار ومرجع آمالهم . ونشرف على يلدزمدفن الافكار الحرة وبؤرة الجواسيس ومسرح اهل المطامع والاغراض

الاستانة هي القسطنطينية مدينة قسطنطين الكبير وكانت قبله تسمى بيزانطية فسماها باسمه وجعلها سنة ٣٣٠م كرسي المملكة الرومانية الشرقية او مملكة الروم في اصطلاح العرب . وقد خصها الله بموقع طبيعي لامثيل له على سطح هذه الكرة لانها موصلة بين القارتين ووسط بين البحرين تمنعها المضائق وتصونها البواغير . وتقسم الى الاستانة المدينة الكبرى والى الضواحي

والاستانة ثلاثة اقسام اثنان في اوربا والثالث في اسيا كأنها تتجاذب للمعانقة فتحول بينها المياه . او هي ثلاث مدن برية تفصل بينها ثلاثة ابحر كما ترى في الخارطة . فالاقسام البرية هي استامبول في الجنوب وبك اوغلي او بيرا في الشمال وكلاهما في اوربا واسكودار في الشرق وهي في اسيا يفصل بينها البوسفور في الشمال الشرقي ومرمرا او الدردنيل في الجنوب وقرن الذهب في الغرب الشمالي ـ تلك هي اقسامها اليوم اما في زمن الروم فلم يكن عامراً منها الا استامبول وهي البلد الذي فتحه العثمانيون وجعلوه مقر حكومتهم ولا تزال الى الآن مقر رجال الدولة وفيها ابنية الحكومة والجوامع والمساجد والمدارس

وهي تعد اسلامية لان اكثر سكانها من المسلمين . ولذلك فاكثر الآثار التاريخية فيها . وكانت بيرا عند الفتح ضاحية يقيم فيها بعض الاجانب اذا نزلوا الاستانة ثم عمرت فصارت بلداً اكثر سكانه من الافرنج ونحوهم . ويوصل بين استامبول وبيرا جسران احدهما جسر غلطه القديم وهو اقربهما الى البوسفور وثانيهما الجسر الجديد الى غربيه . اما اسكودار فانها بلد اسلامي تركي يتفاءل به الاتراك خيراً لانهم نزلوه قبل الفتح ومنه انتقلوا الى اوربا ومدوا سلطانهم فيها .

خريطة الاستانة

وضواحي الاستانة اهمها واقع على شاطيء البحر وهي قسمان شمالي وجنوبي والشمالي على ضفاف البوسفور والجنوبي في جنوبيها مما يطول شرحه فنذكر اهمها وهو البوسفور

(البوسفور) يمتد من الاستانة شمالاً الى البحر الاسود على مسافة ٢٧ كيلو متراً فهو موصل بين البحر الاسود في الشمال وبحر الدردنيل في الجنوب وعرضه عند مدخله نحو كيلو متر ونصف واضيق المسافات فيه عند روملي حصار واناطول حصار نحو ٥٠٠ متر واوسعها عند بيوك دره فان المسافة بين الشاطئين هناك ٣٥٠٠ متر . وهو عبارة عن قرى متقاربة تمتد على ضفتي البوسفور شرقاً وغرباً . يهمنا منها مما على شواطيء اوربا محلة بشكطاش التي فيها يلدز وقصورها وحدائقها

وفي جنوب الاستانة عدة قرى على شاطيء اوربا ووراء سور استامبول والبعض الآخر على شاطيء اسيا وهناك خط آخر بحري تكتنفه القرى من الجانبين في قرن الذهب وهو يعد من الاستانة نفسها . والاستانة كثيرة الشواطيء عليها الاغراس والاشجار وبينها الابنية . ثم ان هذه الشواطيء سلسلة تلال او هضاب بينها الاودية . حتى الاستانة نفسها فانها مؤلفة من هضاب تكسوها القصور والجوامع والشوارع اذا اطل عليها القادم بالبحر راى تلك الابنية تتدرج صعوداً من الشاطىء الى قمم الهضاب وتتخللها الحدائق . فاستامبول مثلاً مؤلفة من سبع هضاب متصلة العمارة ممتدة على شاطىء قرن الذهب لا تظهر جلياً الا للمتأمل : اولها تشرف على الدردنيل وعليها الآن بناية الطوبخانة والسراي القديمة (طوب قبو) وجامع اياصوفيا وجامع السلطان احمد . وعلى الهضبة الثانية جامع نوري عثمانية . وعلى الثالثة سراي السر عسكرية وجامع السلطان سليمان او السليمانية . وعلى الرابعة جامع السلطان محمد الفاتح او المحمدية . وعلى الخامسة جامع السلطان سليم او السليمية وحي الاروام المعروف بالفنار وفيه بطركخانة الروم . وعلى السادسة ابنية سراي لكفور عند محطة بلاطه وبعدها وعلى السابعة جامع ايوب وغيره . (انظر الخارطة) وبين هذه الابنية البارزة القصور والمنازل والاسواق والبساتين وغيرها متلاصقة او متقاربة تظهر للناظر اليها من البحر كأنها معرض منضد بعضه فوق بعض بشكل امفيتياتر

واعتبر ذلك بيرا تجاه استامبول على قرن الذهب فانها مؤلفة من تلال متقاربة . وهكذا ايضاً ضفتا البوسفور وشواطيء الدردنيل فانها عبارة عن تلال متحاذية على الشاطىء يختلف طول قاعدة كل منها من نصف كيلومتر الى كيلومترين او اكثر او اقل . وعلوها من مئة متر الى بضع مئات . اجملها على ضفاف البوسفور فانك ترى

القرية من قراها اشبه بمعرض من الحمائل والقصور تتدرج بعضها وراء بعض من الشاطيء الى قمة التل وبينها بساتين بعضها من الشجر القديم كالسنديان والصنوبر والدلب ونحوها تقادم عهدها واهملها الانسان فنمت على الفطرة بلا تعهد ولا تقليم فاشتبكت اغصانها وتعانقت افنانها ثم جاء الانسان فابتنى بينها قصوراً متفرقة او بيوتاً صغيرة من الخشب سقوفها من القرميد — وانما عمدوا الى الخشب دون الحجر لانه اقل كلفة وابعد عن خطر الزلازل فوقعوا بذلك في خطر الحريق

فالمتوغل في البوسفور على الباخرة يرى انه في بحيرة تحيط بها الهضاب المكسوة بالحمائل والحدائق بينها الابنية مختلفة الالوان والاشكال مما يشرح الصدر ويطلق عنان الخيال . واجمل ما تشاهده من مناظرها قبيل الغروب انعكاس أشعة الشمس عن زجاج النوافذ من منازل الشاطيء الاسيوي لامعة تبهر النظر كانها منعكسة عن الماس ترصعت به تلك المنازل . ثم تحمرُّ فيخيل لك ان النار شبت في الغرف حتى كاد لسان لهيبها يندلع من الشبابيك مما يستوقف النظر . فاذا غربت الشمس وخيم الظلام ارتسمت السماء على صفحات الماء . والجالس في اي منزل من منازل تلك القرى سواء كان على الشاطيء قرب الماء او في سفح الهضبة او على قمتها فانه يشرف على المياه والبواخر تسبح فيها ويرى وراءها التلال المكسوة بالاشجار والابنية

ذلك شأن ضفاف البوسفور وغيرها من شواطيء الاستانة وضواحيها . واذا اوغلت في البر وراءها لا يقع نظرك الا على واد خصيب او غابة غضة او جبل مكسو بالاشجار الكثيفة بينها ينابيع باردة مثل ينابيع لبنان تجري صافية كالزلال . وقد اقيمت هناك اماكن للنزهة يقصدها الناس يقضون عندها الساعات والايام كما يفعل المصطافون بلبنان في خروجهم الى الينابيع المشهورة كعين الرمانة وعين حمانا ونبع العسل ونبع اللبن وغيرها وان كانت هذه اشد برودة من ينابيع الاستانة الا ان هذه اجمل منظراً واكثر خضرة لان معظمها يجري في جبال تكسوها اشجار هائلة الكبر قد تعانقت اغصانها وتكاثفت اوراقها حتى تحجب اشعة الشمس لكنها لا تضيق الصدر لانها عالية وبين جذوعها منفرجات . وقد تعاظم جرمها لقدم عهدها ويندر ان تكون للانسان يد في اصلاحها . وهذه الينابيع كثيرة بعضها في شاطيء الاناطول والبعض الاخر في جهات الروملي . واشهر المياه في الروملي نبع الكاغدخانة في اخر قرن الذهب وهو متنزه جميل مساحته عشرات من الافدنة مكسوة بالاشجار والاعشاب وتجري فيها المياة فيقصدها الناس زرافات ووحداناً في فصل الربيع . وجرجر نبع كثير الشبه بموقعه

وبرودته بعين الرمانة بلبنان . وبالقرب منه نبع خونكار ( خونكار صو ) وهو اعلى كثيراً من جرجر لا يمكن الصعود اليه الا بالمركبات ويصعب تسلقه على الدواب

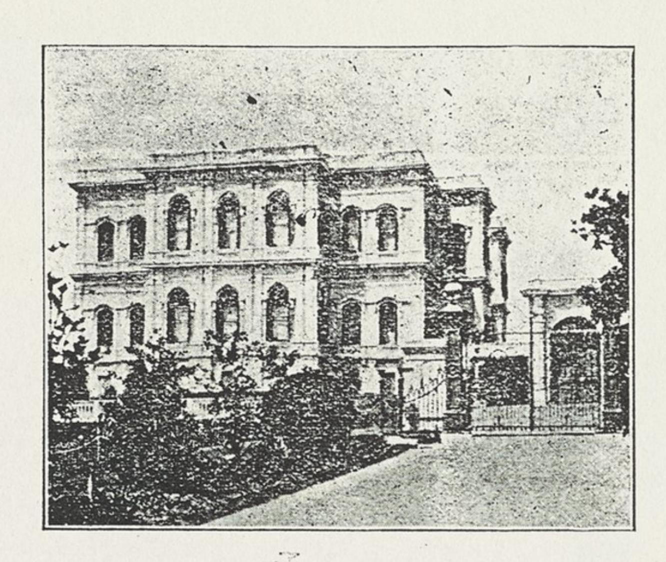
فالطبيعة وهبت الاستانة هبات يعز مثالها في مشارق الارض ومغاربها ولكن الانسان لم يحسن استخدام تلك الهبة – فبين ترى منازل الاستانة متراصة بعضها وراء بعض تشرف على البحر وعلى ما جاورها من المنازل ترى شوارع المدينة ودروبها تكاد تكون خراباً لتقلقل بلاطها وقلة العناية في اصلاحها فضلاً عن ضيقها . كأن حكام العصر الماضي لم يكن يهمهم الا ما يخصهم او يأول الى منافعهم الشخصية لانك ترى منازلهم على اتم نظام وحدائقهم على اجمل ترتيب يتعهدون اشجارها بالمقراض على احسن هندام ويرصفون الطرق بين المساكب بالحصى الملونة على شكل الفسيفساء . وكانوا ينفقون الملايين على بناء منازلهم ومنتزهاتهم ويضنون بالقروش على الاماكن العمومية

## الفصل الحادي والعشرون

### يلدز

اما وقد عرفت الاستانة فتعال معي الى يلدز وان كان ذهابنا اليها في زمن روايتنا خطراً. فاني اطير بك الى عالم التصور لاصف لك تلك السراي التي جرت اكثر وقائع هذه الرواية فيها . وهي وان سموها بالسراي او القصر ليست قصراً واحداً فخماً كما يتبادر الى الذهن وانما هي عدة قصور قد لا يرى في احدها فخامة ما يراه في قصر طولمه بغجه او الجمال الذي يراه في قصر جراغان . وانما هي هضبة كبيرة واقعة في بشكطاش وراء محطة اورته كوي فوق قصر جراغان تكتنفها الاودية والتلال وقد انشئت فيها الحدائق والبساتين والبحيرات وبنيت فيها قصور تتفاوت قدراً وجمالاً وهي عديدة ومتفرقة بين الخمائل والغابات على غير نظام . وليس في وصف هذه القصور كثير مما يدهش القارىء ولكن العبرة بما هنالك من المخبآت الغريبة التي نفتقر اليها في اثناء حوادث روايتنا واليك تفصيل ذلك :

ان البقعة التي اقاموا فيها قصور يلدز واسعة تزيد سعتها على مساحة بلد كبير اكثرها غابات كثيفة الاشجار بينها حدائق غناء وبحيرات تجري فيها القوارب وتقسم بجملتها الى قسمين كبيرين (١) الحديقة الداخلية (٢) الحديقة الخارجية . وليلدز باب



يلدز من الباب الخارجي الكبير الى باب الحديقة الداخلية

خارجي كبير تدخله المركبات الى بقعة فيها طريقان احدهما الى اليسار يؤدي الى باب الحديقة الداخلية والآخر الى اليمين يؤدي الى طريق الحديقة الخارجية وفي كل من الحديقتين قصور وابنية سنذكر ما يهمنا منها

الحديقة الداخلية ومسارح الطير

فالحديقة الداخلية عبارة عن بستان كبير محاط بسور عال اشبه باسوار الحصون منه بالحدائق يفصله عن الحديقة الخارجية . يدخل الي الحديقة الداخلية من باب كبير مذهب هو باب السراى المؤدي الي القصور الداخلية . وهي قصر المابين الصغير مسكن السلطان المخلوع وقصر جيت وقصر مالطة وقصر جهان نما ومعرض الحيوان . فهذه القصور متقاربة كل منها يستطرق الى الحديقة الداخلية . وفي الحديقة المذكورة بحيرات تجري فيها القوارب . ومسارح للطير هي عشرات من الغرف المتقنة مصنوعة من الخشب المزخرف ملاصقة لجدار الحديقـة الشرقي . ولها واجهات من الزجاج وشبابيك من الاسلاك وبعض الغرف كلها من الزجاج . يسرح فيها الحمام كل نوع في غرفة او بضع غرف متقاربة وبينها الحمام الابيض والاسود والمرقط وذات العرف الطويل او الذيل العريض على اختلاف الاجناس . ولها في مسارحها مجالس تأوي اليها وتبيض او تفقص فيها على ابدع نظام . ويلي مسارح الحمام غرف لتربية الازهار الشتوية التي يضر بها البرد مصنوعة من الزجاج المضبوط التماساً للدفء . ويلي ذلك اقفاص فيها بنات آوى او بعض الكلاب الضخمة . وفي بعض جوانب هـذه الحديقة اسطبلات فيها مواقف للخيل في كل موقف اسم الجواد الذي كان يقف فيه

واهم القصور الداخلية في يلدز قصر جهان نما وهو صغير لكنه في غاية الاتقان يشرف على البوسفور اشرافاً رحباً . وقصر چيت سمي بذلك لانه مبطن بالانسجة بابه خارج باب الحديقة الداخلية لكنه يعدُّ منها لانه من جملة ابنيتها . وقد يدخل اليه من باب سري فيه . ومعرض للحيوانات فيه انواع الطيور وغيرها محنطة . وقصر چادر وقصر مالطة وقصر مراسم في الحديقة الخارجية وهو اجملها كلها وافخمها وفيه من التحف ما يعجز القلم عن وصفه . وقصر المابين الكبير في تلك الحديقة ايضاً . وهناك جامع لتلك القصور اسمه الجامع الحميدي . ثم المابين الصغير او مسكن عبد الحميد وهو اهمها كلها بالنظر الى ما نحن فيه وهو اول قصر يستقبله الداخل من باب الحديقة الداخلية الى يمينه وليس هو بالقصر الفخيم . يرقى اليه على بضع درجات بسيطة ومدخله باب اعتيادي يؤدي الى فسحة صغيرة ومنها الى الدهاليز والغرف على غير نظام وفيها غرف المائدة والاستقبال والكتابة وغيرها وسيأتي وصفها في عرض الكلام

# الفصل الثاني والعشرون

## يلدز بعد نصف الليل

نام اهل الاستانة واستغرقوا في احلامهم ـ والاحلام يقظة ثانية يكابد فيها الناس شقاء ثانياً في عالم آخر . وكانت الليلة مقمرة وقد وقعت اشعة القمر على الاستانة وضواحيها فانعكست عن مياه البوسفور فاصبح سطحه كالصحيفة البيضاء لا يخترقه قارب ولا تمخر فيه سفينة خوفاً من غضب رب يلدز لانه امر الناس ان لا يعكروا ماءه ليلاً والا ارسلهم الى قاعه جثثاً هامدة . حتى الريح فانها اطاعته ولم تهب في تلك الليلة فظل سطح البوسفور هادئاً لا تتلاطم فيه امواج ولا يتحرك فيه ساكن . او لعله شارك اهل الاستانة في رقادهم فانه كان رفيقاً بهم وقد عاصر اجيالاً منهم فلم يمر به جيل اتعس حالاً من هذا الجيل — حتى في اقدم ازمنة الاستبداد . شاهد اليونان والرومان والفرس والعرب والاتراك واخترقه داريوس وقسطنطين ومحمد الفاتح وغيرهم من كبار الرجال . وقطعه الصليبيون في طريقهم الى الحرب المقدسة فلم يرَ بين هؤلاء ولا غيرهم من اشبع جوفه من الجثث كما فعل صاحب الاستانة ورب يلدز في هذا العصر

نام اهل الاستانة بين كهل يحرق الارم اسفاً على ما ذهب من شبابه عبثاً في معالجة باب الرزق فلم يجد له فيه مدخلاً . وسجين يدعو ربه خلسة ان يقتصّ له من القوم الظالمين . وارملةٍ اغرق بعلها في مياه البوسفور ضحية الجواسيس . ويتامى يتضورون جوعاً ولا ذنب لهم الا انهم ولدوا في عصر طاغية لا ينام عن الاذى تتنابهم المخاوف حتى في الاحلام فيتصور لهم عبد الحميد كالتنين فاغراً فاه او كالثعبان ينساب بين اسرتهم ينفث سمه في جراحهم

حتى اهل يلدز - وهي الجنة باغراسها وقصورها ومياهها والنار بمن تفشى في اكنافها من اعداء الانسانية الذين تغمض عيونهم للرقاد ولاتنام افكارهم عن نصب الحبائل . يمضي النهار بنوره ويقبل الليل بديجوره وتتبدل مظاهر الوجود ولا يتغير ما في نفوسهم . اذا خيم الظلام سكنت الطبيعة وتجلت هيبتها واتسع مجال الخيال وانقشعت بهرجة النور عن وجه الحقيقة فيرى العقل من مساوئ النفس ما لا يراه في رابعة النهار — كالسكوت اذا استولى على المكان اسمعك اخفت الاصوات . فالليل بديجوره يكشف لاهل الارض سيئاتهم ويجسم اعمالهم . اذا نظروا الى السماء راوا نجومها كالعيون المحدقة بهم او كالضابطة تراقب اعمالهم — وكأن النوم يجرد النفوس من الاجساد فتتقابل وتتعاتب لا فرق فيها بين الملك والصعلوك والظالم والمظلوم كانها في حضرة الديان العظيم — ان الظلمة تكشف لاهل الظلم موبقاتهم فيرونها مكبرة في ذلك السكوت المهيب كان الطبيعة صامتة غضباً من اعمالهم

ذلك موقف يريك فضل الحيوان على الانسان . ان الحيوان لا يؤذي اخاه الا اذا جاع فيتنازعان على الفريسة فاذا شبعا تآلفا وتكاتفا . والانسان كلما زاد شبعاً زاد طمعاً وكلما زاد ثروة زاد جشعاً . اذا شبع قتل اخاه الجائع وقد يقتل المئات ليقال انه قاتل . ويستعبد الالوف ليسمي نفسه الحاكم . فيموت هو من التخمة واخوه بجانبه يموت من الجوع

انظر الى اهل يلدز فقد ناموا ملء جفونهم بعد ان تآمروا وتجسسوا وتخادعوا وتواطأوا على خراب بيت او تعذيب نفس او ابتزاز مال . ولو اطمأنت نفوسهم وهدأت ضمائرهم لم يركنوا الى الاسوار العالية والابواب الموصدة يقيمون عليها الحفظة سبعة آلاف رجل من الالبان والشراكسة

هناك الحدائق الغناء والقصور الزهراء . يعيش من فضلات طعامها الوف من المتزلفين وقد ابيح دخولها للدبابات تسرح في ساحاتها والطيور تدف في اكنافها

ولم يتنعوا الافاعي من الانسياب بين اغراسها – حتى الحشرات والديدان وادنى انواع الحيوان وجدت فيها مقيلاً او مسرحاً . وانما اوصدت ابوابها في وجه طلاب الرحمة من بني الانسان

انظر الى تلك القصور وما انفق فيها من الاموال وما اهرق في سبيل بنيانها وزخرفها من الدماء وقد اقيم على ابوابها وفي طرقاتها وحول اسوارها الوف من الرجال الاشداء باسلحتهم وافراسهم وعيونهم كالشهب وقلوبهم كالرجم . وقد جردوا السيوف واغمدوا الضمائر وباعوا الآخرة بالدنيا لحماية رجل واحد لا تقع العين عليه الا بعد اختراق الابواب وتسلق الاسوار . يحسبه غير العارف متمتعاً باشهى ملاذ الحياة وهو محروم مما يتمتع به احقر رعاياه مع مخاوفهم ومظالمهم . انهم ينامون بلا حراس واذا خافوا نزحوا وبلاد الله واسعة وهو لايستطيع نزوحاً . لانه يخاف على حياته من كل احد حتى من اعوانه وحراسه ومن اولاده ونسائه . يخاف من طعامه وشرابه . يخاف من فراشه ووساده لا يستقر به مضجع ولا يهدأ له بال . يقضي ليله ساهراً حذراً واذا غلبه النعاس توسد كرسياً وكان نومه متقطعاً يتقلب على اشواك المخاوف

## الفصل الثالث والعشرون

### عبد الحميد في ليله

كذلك كان عبد الحميد سلطان البرين وخاقان البحرين الذي دانت له الرقاب وقبض على الحياة والموت . ويزعم المتملقون انه اذا غضب غضبت العناصر وان رضي ابتسمت الطبيعة . تحييه الرياح وتطيعه الامطار – لم ينفعه ذلك بعد ما ارتكبه من الشطط في تلك السيادة فتجاوز بها الحد فتولاه الخوف والقلق . تلك كانت حاله في ذلك الليل

ولو اوتيت المعجزة حتى لبست قبع الاخفاء ودخلت ذلك القصر الفخيم في غفلة من الحراس واقبلت على المابين الصغير مسكنه الخاص في الساعة الثالثة بعد نصف الليل لعلمت ان اهل تلك القصور قد استغرقوا في نومهم حتى الحراس الموكلين بالسهر والحذر — حتى هؤلاء غلب عليهم النعاس فناموا ولم يبق احد ساهراً هناك ولا الحشرات — حتى الاشجار اطبقت ازهارها تلتمس الراحة . الا صاحب ذلك القصر وسيده الذي اوصدت الابواب لوقايته واقيم الجند لحمايته . فانه ما زال

ساهراً يتقلب على كرسي طويل توسده وقد التف بملاءة من الصوف واخذ يقرأ تقريراً جاءه من بعض جواسيسه فاقلق راحته وحرمه النوم . وقد غلب عليه التعب والارق وهو يطلب الرقاد ليريح جسمه ويبعد مخاوفه فلا يجد اليه سبيلاً

فلما دقت الساعة الرابعة اطبقت اجفانه واصبح كالنائم ولكنه ساهر مستيقظ بما انتابه من الاحلام المزعجة ففضل اليقظة لان النور يؤنسه — والاستغراق في الافكار المتضاربة اولى من الذهاب فريسة تلك الاحلام . فعمد الى كتاب تعوَّد ان يلهو بقراءته تأليف ما كيافالي الشهير . ففتحه وقرأ فيه هنيهة . ثم تركه وخطر له ان يلهو بالنجارة وعنده في ذلك القصر غرفة فيها كل معدات هذه الصناعة ولكنه تكاسل

وظن العلة من الفراش فغادر الكرسي في غرفة المائدة الى كرسي في غرفة البيانو فلم يجد «التغيير نفعاً . فرمى الورق من يده ومشى يطلب رقاداً في غرفة اخرى . ثم ندم فعاد والتقط تلك الاوراق المتناثرة فجمعها ورتبها واحتفظ بها وضمها الى صدره وذهب الى كرسي آخر في غرفة الكتابة وطفق يقرأه وهو لا يفهم مايقرا لفرط التعب فغلبه النعاس فنام حتى طلع الفجر . وكأن صياح الديك نبهه فنهض ودقت الساعة السادسة ثم سمع صوت المؤذن فعرف ان الصلاة قد ازفت فخرج للوضوء فرأى صاحب الوضوء بانتظاره - ووضوءه عبارة عن الاستحمام مختصراً فهرع بالبنطوفلي الى حمامه الخاص في ذلك القصر وفيه الاجران الرخامية المعرقة بالذهب والحنفيات المذهبة وسائر معدات الاستحمام فاستحم وافكاره تائهة . وادى فرض الصلاة وعاد الى التقرير فتأبطه ومشى نحو باب من ذلك القصر يستطرق الى الحديقة الداخلية وقد التف بعباءة كستنائية اللون واسعة الاردان تكسو اثوابه

وهو نحيف الجسم ربعة او تحت الربعة لا يزيد طوله على خمسة اقدام عصبي المزاج وكان في شبابه طلق المحيا مستدير الوجه فاصبح يومئذ وقد تغيرت سحنته لفرط ما عاناه من بواعث الحذر على حياته — لانه قاسى عذاب الموت خوفاً من الموت وكابد مرارة الاستعباد رغبة في الاستبداد . فمن عرفه في شبابه قد ينكره في ذلك اليوم كما ترى الفرق بين رسميه . فقد برز فكاه ووجنتاه وانفه وخفت لحيته وغارت عيناه لارتخاء الجفن العلوي من الشيخوخة وظهرت غضون وجهه وتساقط شعر رأسه فصار يغطي صلعته بطربوش كبير ينزل الى أذنيه وقد لبسه في ذلك الصباح فبان امتقاع وجهه من تحته

واصبح في شيخوخته سوداوي المزاج فاذا رايته تحسبه مثقلاً بالهموم ولو كان في اسعد احواله فكيف وهو في ما تقدم من القلق



عبد الحميد في شبابه



عبد الحميد في ذلك الصباح

دخل الحديقة وهو ملتف بالعباءة وقد تأبط ذلك التقرير تحتها . وكانت الشمس قد اطلت من وراء جبال آسيا فاصابت اشعتها اطراف الاغصان فاستيقظت العصافير واخذت ترفرف وتزقزق . وابتسمت الازهار وصفقت الاوراق وسرح الاوز في البحيرة حول القوارب . وتطاير الحمام في ابراجه واخذ يتداعب هذه تتفلى وتلك تهدر وتلك تحضن فراخها . وبسط الطاووس ذيله وتبختر في قفصه مرحا . وتجاوبت الكراكي والحساسين وصهلت الخيول . واصبح كل حيٍّ في تلك الحديقة ضاحكاً مسروراً الا عبد الحميد فانه مشى في اكنافها مقطب الوجه منقبض النفس في غفلة عن كل ذلك والقهوجي باشي يسير في اثره ومعه ادوات القهوة لعل سيده يطلب طبخها . ولم يكن هناك سواهما مع كثرة من في تلك القصور من النساء والرجال وعددهم يزيد على خمسة آلاف . لكنهم لا يجسرون على الظهور في حضرته الابطلبه . على انهم كانوا يتشوفون اليه من النوافذ يراقبون حركاته خلسة

# الفصل الرابع والعشرون

## البيغاء

وبعد ان جال في الحديقة هنيهة تحول الى كشك من الخشب بجانب البحيرة وجلس على مقعد فوق وسادة من الحرير واشار الى القهوجي باشي ان يطبخ له القهوة واستخرج التقرير من جيبه وعاد الى تلاوته . ثم جاءه القهوجي بالقهوة فتناولها وهو يعمل فكرته في ما قرأه . واذا هو يسمع ضحكاً عرف من طوله واطلاقه انه ضحك ابنه احمد نور الدين افندي وهو يومئذ في السابعة من عمره — ومن يجسر على الضحك في حضرة البادشاه سواه ؟ فالتفت نحو الصوت فرأى الغلام يلاعب ببغاء جميلة اللون بين يدي مربيته ويضحك لرفرفة جناحيها وصياحها

ولم تكن المربية عالمة بوجود السلطان هناك فاسترسلت في ملاعبة الغلام . وما لبثت ان سمعت نحنحة السلطان فاجفلت وهمت بالفرار . ثم سمعته يناديها فتململت واحتجت بالغلام فقادته بيده الى الكشك تلتمس الاعتذار عن جسارتها بوجوده معها . فافلت الغلام من يدها واسرع بدالة الطفل على ابيه ورمى نفسه عليه . فاستقبله ابوه وقبله واراد ان يخفف ما به بمحادثته فاقعده على حجره وسأله عن سبب قدومه الى الحديقة في تلك الساعة

قال الغلام «جئت لاكلم صديقتي البيغاء » وضحك ضحكة الطفل واشار الى البيغاء في يد المربية . وكانت لا تزال واقفة في الخارج وقلبها يختلج خوفاً من غضب السلطان لئلا يظن بها سوءاً فيقتلها . وقد عرفت كثيراً من امثال هذه الفظائع في يلدز يقتل فيها الرجل او المراة بطلق ناري من يد عبد الحميد لمجرد التوهم انه جاء بدسيسة . فظلت واقفة في الخارج وودت لو ان الارض تبتلعها وتخفيها . ولولا علمها ان عبد الحميد يكون في مثل ذلك الوقت منزوياً في مكتبه يقرأ التقارير ما رافقت الغلام الى هناك

فلما اشار الغلام الى البيغاء التفت ابوه الى المربية واومأ اليها ان تعيد الطير الى قفصه . وكان قفصه معلقاً بشجرة من الدلب قريبة من الكشك . فما صدقت انه امرها بذلك حتى مشت الى احد البستانيين فاعانها في ادخال البيغاء الى القفص وانزوت في بعض جوانب الحديقة

واخذ عبد الحميد في مداعبة ابنه فقال له « تحب البيغاء كثيراً يا نور الدين ؟ »

قال « نعم يا بابا احبها »

فقال السلطان « اكثر مني ؟ »

فاهتم الغلام بذلك السؤال رغم طفوليته لان تعظيم شخص عبد الحميد كان قاعدة متبعة يتدارسها الكبار والصغار . ولعله آنس في عيني ابيه ما بعثه على الاهتمام . فقال « عفو افندم .. لا ينبغي ان نحب احداً في الدنيا اكثر من الذات الشاهانية »

فادرك عبد الحميد ان مثل هذه العبارة لا يقولها هذا الغلام من عند نفسه فقال له « ومن علمك ذلك ؟ »

فخاف الغلام ان يكون قد اخطأ فبدا الخوف في وجهه مع التردد ولم يدر بماذا يجيب فضحك ابوه تشجيعاً له على الكلام فقال الغلام « علمتني اياه قادين ج ... »

فبدا الغضب في وجه عبد الحميد عند سماع ذلك الاسم وتمتم قائلاً « انها تحتال في استرضائي . يالها من خائنة . . وتظن هذه الحيلة تنطلي علي ؟ » ثم تجاهل وعاد الى مداعبة ابنه فاستخرج من جيب عباءته سبحة من الكهرباء دفعها اليه وجعل يلاعبه بها ويداعبه والغلام يضحك وابوه يتضاحك ويتلاهى فتحرك الغلام حركة اوقعت التقرير من حجر السلطان فتطاول ليلتقطه فاضطر لذلك ان ينهض من مقعده فتحول وجهه نحو الببغاء في القفص فراى ان يعود الى مداعبة ابنه بها فقال « الا تعطيني هذه الببغاء واعطيك هذه السبحة الجميلة ؟ »

قال « ان الببغاء لك أيضاً .. السنا جميعاً ملكاً لك تفعل بنا ماتشاء ؟ »

فعلم ان ذلك الجواب من دروس تلك القادين ايضاً فلم يعبأ به ولكنه اشار الى بستاني ان يأتي بقفص الببغاء الى ما بين يديه . فجاء به ووضعه على مقعد خارج الكشك فخرج الغلام وطفق يكلم الببغاء وهي تقلد كلامه . وشغل عبد الحميد باختلاس النظر الى ما يحدق به من المطال فرأى نادراغا وهو رئيس الخصيان وصاحب النفوذ الاكبر في تلك القصور — رآه خارجاً من مكان لم يكن يتوقع ان يراه فيه ، فلما وقع نظره عليه صاح به « نادرآغا ! نادر آغا ! » بنغمة الآمر المستبد فاسرع نادرحتى وقف بين يديه وسلم بالاحترام اللازم والدعاء فقال له « من اين انت آت ؟ »

قال « من حوالي قصر مولاي »

قال « وما الذي كنت تفعله ؟ »

قال « كنت ساهراً على راحته لاني شعرت بما اصابه من الارق وياحبذا لو استطعت نفعه بشيء »

فتحقق عبد الحميد صدق قوله وكان حسن الظن به ويرى سواد جلده بياضاً

وكثيراً ما جعله عيناً على حرسه الخاص الموكل بحراسته لانه كان يسيء الظن بهم .
فانبسطت نفس عبد الحميد واثنى عليه ثم قال « ادع سر خفية (رئيس الجواسيس)
وقل له ليقابلني في المابين ويتناول الفطور معي »

فالقى تحيـة الاحترام وانصرف . واخذ عبد الحميد يهتم بالنهوض واذا هو يسمع صوتاً مثل صوته تماماً ينادي « نادر آغا نادر آغا » وفيه نغمة الاستبداد مثله فاجفل وما لبث ان رأى نادر آغا عائداً ويكاد يتعثر بساقية لطولهما فقال عبد الحميد « من دعاك ؟ »

قال « الم يدعني مولاي ؟ اني سمعت امره باذني »

وكان نور الدين افندي واقفاً بازاء قفص الببغاء وقد اغرب في الضحك . فقال له ابوه « وما يضحكك ؟ من نادى نادر آغا ؟ »

فاشار الغلام الى الببغاء وقال « هذه » قال ذلك وهو يتوقع ان يبدو سرور الاعجاب في سحنة ابيه لاتقان الببغاء التقليد ولكنه راى عكس ذلك فبان الغضب في عيني عبد الحميد وصاح « اخرجوا هذا الطير من قصري او اقتلوه فاني لا اطيق ان اسمع صوتاً يأمر وينهى غير صوتي » قال ذلك بلحن الحنق والاستبداد حتى سمعه كل من في الحديقة من الحاشية والنساء والسياس وتولاهم الرعب من شؤم ذلك النهار الذى ظهر غضب السلطان في اوله . وبادر البستاني فاخذ القفص وطار به وتبعه البرنس احمد نور الدين يتوسل اليه ان يستبقي ذلك الطير ولم يعد يجسر ان يخاطب اباه بشأنه

# الفصل الخامس والعشرون

## السر خفية

اما عبد الحميد فمشى الى قصره ونظر الى القهوجي نظرة فهم منها انه يريد التدخين فقدم له سيكاراً وبادر الى اشعاله . فسار وهو يدخن وجعل طريقه في دهليز يستطرق الى باب القصر الرئيسي حيث يقف الحرس الالباني بالاسلحة . فمرَّ بين صفوفهم وهم يحيونه التحية العسكرية وهو يرمقهم خلسة ويلاحظ حركاتهم ويده في جيبه تحت العباءة على المسدس لئلا يكون هناك من يترصد قتله فيسبقه هو الى القتل بالرصاص — وكان من امهر الناس باطلاقه — حتى وصل الباب . وكان نادر آغا واقفاً في انتظاره هناك ففتح له الباب

فدخل يطلب غرفة اللبس . ومر بطريقه اليها في ممر قد كسيت جدرانه بالخزائن المملوءة بالتقارير السرية وفيها الوف منها جمعت بتوالي السنين . فلما وصل الى غرفة اللبس ساعده نادر آغا في تبديل ثيابه فلبس الاسطنبولينا السوداء كالعادة وسأل نادر اغا اذا كان استدعى السر خفية

فقال « نعم افندم هو آت حسب الامر ومعه بريد هذا الصباح »

فلما سمع لفظ البريد تذكر التقرير الذى كان معه فتفقده فاذا هو على مائدة هناك . وبعد ان فرغ من اللبس توجه الى غرفة المائدة وهي قاعة واسعة في ارضها بساط واحد فيه رسوم جميلة تشبه رسوماً مثلها في السقف بالوانها واشكالها . وفوق البساط مائدة كبيرة تسع حولها بضعة وعشرين رجلاً . وفي صدر الغرفة موقد التدفئة من البورسلين الابيض المذهب عليه حرف H مرسوماً بالذهب . وتجاه الموقد ( ويسمونه في اصطلاحهم صوبا ) في الحائط المقابل له ساعة كبيرة موضوعة على كونسول متقن الصنعة . ولا تخلوا غرفة من غرف ذلك القصر من ساعة وترمومتر وبارومتر لان عبد الحميد كان شديد الولع بهذه المقاييس

والى كل من الجانبين خزانة من الخشب الثمين بشكل البوفيه ولكن احداهما اذا فتحت ظهرت انها بيانو من اعلى طرز . وهي هدية من امبراطور الالمان لصديقه عبد الحميد

دخل غرفة المائدة والتقرير في يده فوضعه على طرف المائدة وكان الطعام قد اعد على الطرف الآخر منها وهو بسيط يقتصر على اللبن والبيض وبعض المربيات والفاكهة . ونظر الى الساعة فراى وقت مجيء السر خفية ( رئيس الجواسيس ) لم يحن بعد وتقدم نحو خزانة البيانو التى تقدم ذكرها وبادر نادر اغا الى فتحها لعلمه ان سيده يحب الضرب على تلك الآلة احياناً وخصوصاً اذا كان قلق الخاطر

فجلس عبدالحميد الى البيانو والسيكار في يده فوضعه على منفضة هناك واخذ يضرب لحناً تعود الارتياح اليه ونادر اغا واقف ينتظر امره . ثم شعر عبد الحميد بخطوات في الفسحة الفاصلة بين تلك الغرفة وباب القصر . فأمسك عن الضرب والتفت فاسرع نادر اغا الى الباب ليستفهم عن القادم . ثم عاد وقال « ان السرخفية جاء ومعه حقيبة البريد وضعها على الطاولة في الفسحة

ثم دخل السر خفية وهو كهل قصير القامة عليه اسطمبولينا فالقى التحية الى الارض ووقف بالباب فتبسم عبد الحميد واشار اليه ان يدخل فدخل باحترام وهو

يتلملم ويتأدب على جاري عادتهم

فجلس عبد الحميد الى المائدة واشار اليه ان يجلس تجاهه وامر نادر آغا بالانصراف وان يقف في مكانه خادم المائدة اصم ابكم تعود ان يخدمه اذا كان في جلسة سرية لا يريد ان يسمع الخدم شيئاً منها . فاتى ذلك الخادم الاصم لتقديم ما يلزم للمائدة والسلطان يخاطبه بما يحتاج اليه بالاشارة

اما السرخفية فقعد وهو يعلم ان دعوته لتلك المائدة شرف عظيم قلَّ من يناله من الاخصاء وشعر بذكائه ان عبد الحميد لم يكرمه الى هذا الحد الا لامر هام. فلم يتناول من الطعام الا قليلاً وذلك من قبيل التأدب في مثل تلك الحال . وبالغ السلطان في اكرامه فقدم له سيكاراً من علبة بجانبه فيها مشروبه الخاص . فتناول السيكار وقبله ولم يدخنه

ففتح السلطان الحديث وقد بدل سحنته كأن لم يكن به قلق — ومن مزايا عبد الحميد اقتداره الغريب على اخفاء ما به والظهور بالحالة التى يريدها وقال « كم ينشرح صدري بمجالسة الامناء من اعواني »

فقال « انا عبيد مولانا امير المؤمنين والامانة فرض علينا »

فتناول فنجان اللبن وادناه من فيه وهو يقول « نعم ولكن الامناء قليلون وانت واحد منهم . » وشرق شرقة من الفنجان واعاده الى الصحن وقال « بل انت موضع ثقتي وعليك المعول في أستطلاع دسائس الخوارج من رعيتي . وهم كثيرون »

فقال « ان اكثر رعايا امير المؤمنين صادقون في عبوديتهم وانما الخائنون شرذمة قليلة قادها فساد التربية الى الدسائس »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلا « انهم كثيرون على مايظهر . . » واشار بيده الى التقرير الذى كان يطالعه

فتناول السرخفية التقرير وهو يقول « ارى مولاي البادشاه ايده الله قد اعار دسائس اولئك الاغرار اهتماماً . »

فقال « هل قرأته ؟ » واشار الى التقرير

قال « نعم افندم »

قال « الم تقرا ما فيه عن الجمعية التي انشأوها في دمشق . . ان العرب . . اه من العرب . . قد ذهب احساني اليهم عبثاً . . »

قال « لم يذهب الاحسان عبثاً يا سيدي . فقد جاء في هذا التقرير ان بعض الاغرار من اهل دمشق اخذوا في انشاء جمعية جديدة . . ولكن اولئك قليلون لاينبغي لمولاي

ان يعتد باعمالهم فكم انشأوا من الجمعيات السرية وكم كتبوا ونشروا وقد غلب توفيق جلالة السلطان على كيدهم لان الله معه .. »

فقال « الا ترى انهم اتخذوا في جمعياتهم خطة جديدة »

قال « اظن جلالة البادشاه يعني دخول الضباط فيها »

فكادت تظهر البغتة في وجه عبد الحميد عند ذكر الضباط ولكنه تجلد وقال «الا تظن دخول الضباط في هذه الجمعية يعظم امرها ؟ »

قال « ان العمدة في الجند على العساكر وهم السواد الاعظم ونحن على ثقة انهم يتفانون في الدفاع عن امير المؤمنين ظل الله على الارض »

فاثر ذلك الاطراء في نفس عبد الحميد وقال « انا اعلم ان الخونة لا يقوون على شيء طالما كنا على بينة من اغراضهم .. ولكن لا اكتمك ما يجول في خاطري لاني عظيم الثقة بامانتك وصداقتك .. » قال ذلك وتناول تفاحة واخذ في تقشيرها واشار اليه ان يأخذ تفاحة لنفسه وقال بصوت خافت « لا اكتمك اهتمامي بامر العرب وخصوصاً اهل الشام لا اعني انهم يقدرون على شيء .. ولكنهم اصحاب اقلام وفيهم همة ولهم يد في اوربا بما يعرفونه من الالسنة الافرنجية... وهل نسيت ما كانوا يكتبونه في الصحف الاوربية من المقالات العصيانية . » وسكت ينتظر ما يقوله السرخفية

فقال « لم انس ما كان من ضوضائهم في اوربا ولكنهم غلبوا على امرهم وسكتوا »

فابتدره السلطان قائلاً « سكتوا . . صحيح . . ولكن حركتهم الاخيرة تختلف عن تلك .. انهم الآن على ما يظهر في هذا التقرير داخلون مدخلاً جديداً . ليس فيه ضوضاء بل هم عازمون على انشاء جمعية يجرّون اليها ضباط الجند وهم مسلمون فيدعونهم باسم الامة العربية ويزعمون انهم مادة الاسلام واصله وربما حدثتهم انفسهم باسترجاع مجدهم .. وقد يستطيعون خداع بعض الضباط جندنا بهذه الحيلة واذا فعلوا ذلك ...» وسكت ووضع قطعة من التفاحة في فيه

فتبسم السرخفية تبسم الاستخفاف وقال « اذا اذن لي مولاي البادشاه قلت ما يخطر لي وهو ما تدعوني اليه عبوديتي . . »

فاستبشر السلطان بشيء جديد يسمعه . وان لم يفته شيء يخطر ببال محادثه لفرط دهائه وسرعة خاطره وحذره فاظهر الاصغاء وقال « قل ما يخطر لك »

فقال « هب يا مولاي ان العرب في الشام عزموا على انشاء جمعية سرية يدخلون فيها ضباط الجيش .. لنفرض ذلك ممكناً لهم وانهم نجحوا لا سمح الله وتكاثر عددهم

ففي الامكان ارجاعهم او اسكاتهم كما أسكتنا غيرهم قبلهم بالمال او بالاسترضاء او بقوة الجند او على يد بعض المخلصين للعرش العثماني من عبيد مولانا السلطان لانهم في داخلية المملكة لا يرجون نصرة اعدائنا دول اوربا . . » وبلع ريقه وبان الاهتمام في وجهه كانه يكتم شيئاً مهماً

# الفصل السادس والعشرون

## البريد

وكان عبد الحميد يسمع كلامه وهو يتشاغل بفتات من لب الخبز يعركه بين الابهام والسبابة فلما لحظ فيه الاهتمام بعد ان ذكر دول اوربا ادرك ما يشير اليه فقاطعه قائلاً « فهمت مرادك صدقت ان العرب لاينبغي ان نخافهم ... هل حدث شيء جديد في في سلانيك ؟ ان اشقياء هذه المدينة لا يركن اليهم لقربهم من اعدائنا » وبان الغضب في وجهه ولم يتمالك عن الوقوف والمشي نحو الباب فوقف السرخفية ومشى في اثره وقد ادرك انه يطلب فسحة الاستقبال التي جرت العادة ان يقابل فيها كبار موظفيه كالسرخفية والباشكاتب والسرعسكر وغيرهم ليطلع على ماجاء به البريد على عادته من اللجاجة في استطلاع الاخبار. فقال السلطان « اقصص عليَّ ما تعلمه من امر تلك المدينة الجهنمية .. هل اتاك شيء بشأنها ؟ »

فقال « ارجو ان نجد شيئاً في هذا البريد »

فدخلا الفسحة وهي كالغرفة الصغيرة في وسطها طاولة مستديرة عليها غطاء من المخمل المزركش حولها مقعد وكراسي وليس على جدرانها الا اطار معلق في صدرها وقد كتب في وسطه بخط جميل هذه الفقرة في الاعلى « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً » وتحتها « امان يارسول الله »

فلما دخل السلطان الفسحة جلس على المقعد وحقيبة البريد على الطاولة بين يديه واشار الى السرخفية ان يقعد فقعد على كرسي وبادر الى فض الحقيبة واخرج منها اوراقاً واغلفة وظروفاً والسلطان يساعده في قراءة العناوين . فافرد السرخفية ظرفاً كبيراً عليه ختم « سلانيك» فتناوله السلطان وهو يقول « هذا من ناظم بك اني اتوسم في هذا الشاب خدمة صادقة .. الا تعرفه ؟ »

قال « كيف لا ؟ انه بالحقيقة من العبيد المخلصين للسدة الشاهانيـة عرفت ذلك من بعض رجالي الذين بعثت بهم الى تلك المدينة »

فقال السلطان وهو يفض ذلك الظرف « ماذا قال لك رسولك ؟ »

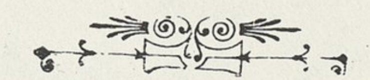
قال« اكد لي صدق خدمة ناظم بك مما يكابده في البحث عن اعضاء تلك الجمعية »

فلما قال السرخفية ذلك تغير وجه السلطان وابرقت عيناه غضباً وقال « كانت تلك الجمعية الملعونة التي تسمي نفسها جمعية الاتحاد والترقي في باريس ضعيفة ولو لم ينشطها الداماد محمود واولاده لامحى اثرها »

فقال السرخفية « قد امحى اثرها فعلاً يا مولاي من مدة طويلة . ولكن بلغني انهم اعادوا الكرة واستأنفوا السعي .. ولعل في كتاب ناظم بك ما يكشف الحقيقة »

وكان السلطان وهو يسمع كلام جليسه يقاب تقرير ناظم بك وقد وقف بصره على فقرة اخذ يقرأها ويعيد قراءتها والسرخفية ساكت ينتظر ما يقوله السلطان . فاذا به قد طرح التقرير اليـه وهو يقول « قد تحقق ظنك ... انك مجتهد في البحث .. وقد صدقك مخبروك .. خذ اقرا »

فتناول السرخفية التقرير وقرأ فيه ما معناه « ان الجمعية الملعونة التي رفعتُ الى اعتاب مولانا الباد شاه خبرها على سبيل الظن قد تحقق لي الآن انها تشكلت فعلاً وانتظم في سلكها كثيرون من ضباط الجيش وغيرهم وانا ساع في كشف امرها والاطلاع على مكان اجتماعها . . ولكنني علمت من بعض المخبرين ان مثل هذه الجمعية تشكل في الشام بين الضباط ابناء العرب وان بعضهم جاء سلانيك للاشتراك في هذه الجريمة ويقال انهم اكتفوا بجمعية سلانيك ووضعوا كل قوتهم فيها وغضوا النظر عن دمشق . فاذا وفقنا الى كشفها قطعنا دابر المفسدين . . ولكنني أؤكد لمولاي البادشاه ملجأ الخلافة الاقدس ان عبده ساهر على مصلحة الدولة وخدمة الذات الشاهانية ولا البث ان اكتشف مكائد الخائنين . واطهر الارض من وجودهم »



# الفصل السابع والعشرون

## الدستور

وكان السرخفية يقرأ والسلطان يتشاغل بالسيكار ينقله بين انامله ويدخن بسرعة وبلا نظام فادرك جليسه قلقه فقال « صدق ناظم بك ان سلانيك اعظم خطراً من سائر مدائن المملكة وقد عرفت ذلك من قبل كما عرضت لمولاي البادشاه . ولذلك فقد ارسلت رجلاً من جواسيسي منذ بضعة اسابيع عهدت اليهِ البحث والتنقيب عن جمعية جديدة تشكلت في سلانيك من ضباط الجيش . . عرفت ذلك من بعض مخبريَّ في دمشق . . فقد كتب اليَّ بعضهم ان بعض المغرورين سافر من دمشق الى سلانيك للمخابرة بهذا الشأن فاذا كانوا قد جمعوا كيدهم كله في سلانيك فيرتاح بالنا من جهة الشام ونوجه اهتمامنا لمطاردتهم هنا »

فقال السلطان « هل انت على ثقة من جاسوسك الذي ارسلته الى سلانيك ؟ »

قال « نعم يامولاي انه شابٌّ ذكيٌّ اسمه صائب بك من اشد الخدمة الامناء غيرة على الجناب الملوكي الهمايوني . وجاءني منه بالامس انه اوشك ان ينجح في كشف خيانة الخائنين »

فهز عبد الحميد راسه وقد تولاه الحنق وقال « ويل للخائنين . ناكري الجميل . . حتى الجنود فسدوا علي وانا لم اذخر وسعاً في التوسعة عليهم ؟ . اني سانتقم منهم شر انتقام »

فتهيب السرخفية من غضب السلطان وقال « ان الجنود الشاهانية كما قلت لمولاي لا يزالون على ولائه الهمايوني . حتى الضباط فانهم موالون الا نفراً قليلين اغراهم اولئك الخوارج على نبذ الطاعة . . وهم يزعمون انهم يجاهدون في سبيل الدستور . . »

فاجفل السلطان من ذكر الدستور وصاح « الدستور ! لماذا يطلبونه ؟ »

قال « انهم مغرورون يامولاي . . انا اعلم ان امير المؤمنين من ارغب الناس في منحه لرعاياه متى رأى فيهم الاستعداد له ، ولكن متى كان اهل الشرق يحكمون بالدستور ؟ وقد تكرم جلالة البادشاه فمنحهم اياه فلم يفلحوا . ولا عرفوا كيف يستخدمونه »

فسرَّ عبد الحميد بهذا التخلص وان لم يستخلص قائله ولكنه جاراه وقال « قد اعطيناهم الدستور فافسدوه . انهم لا يصلحون له »

فقال السرخفية « على ان الدستور يا مولاي يخالف الشرع الشريف . أليس جلالة السلطان خليفة الرسول صلى الله عليه وسلم وينبغي ان يقتدي به ؟ هل كان

الخلفاء الراشدون يحكمون بالدستور ؟ انه من بدع النصارى اهل اوربا . ولو كان ملكهم خلافة دينية لم يسلموا بالدستور ولا عملوا به . . ولكن بعض المغرورين اللئام من رعايا جلالة السلطان فسدت طباعهم بمعاشرة الافرنج فارادوا ان يقلدوهم بالحكومة كما قلدوهم باللباس والطعام والسكر والمقامرة . فاغفلوا قواعد الدين الحنيف وعصوا اوامر النبي صلى الله عليه وسلم ويريدون ان يعصوا اوامر خليفته فخرجوا عليه . »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « والخوارج الملاعين ! . ما الذي حملهم على الخيانة . . وما هو العمل الذي اوجب خروجهم ؟ هم يطلبون المناصب ويطمعون بالترضيات المالية وقد تعبت في مراضاتهم . . من اين آتيهم بالمناصب التي يطلبونها ؟ . امن الاخلاص انهم اذا جاعوا خرجوا على مولاهم ؟ . »

فأخذ السرخفية يخفف عنه قائلاً « ان مساعيهم ستعود على رؤوسهم ولا اظنهم الا نادمين عما قليل . وماهذه اول مرة رجعوا فيها صاغرين . . لم يكن فيهم اشد وقاحة من مراد الداغستاني وانصاره وقد ندموا ورجعوا فأكرم جلالة السلطان مثواهم واغدق عليهم النعم . ولعل ملجأ الخلافة ايد الله ملكه قد بالغ في الاحسان اليهم والاصغاء الى صراخهم . ولو انه اهملهم واستعمل القسوة في عقابهم لكانوا عبرة لسواهم . . ولكنه عاملهم بالرفق والاحسان فطمعوا وتمردوا وقد قرب الوقت الذي يدركون به شططهم في انكار حق العبودية »

فابتدره السلطان قائلاً « بل آن الوقت للاقتصاص منهم والفتك بهم » وصفق فدخل احد الحجاب فقال له « ادع الباشكاتب »

فخرج ولبث السلطان ساكتاً وهو يرتعد من الغضب والسرخفية تهيب من رؤيته في تلك الحال . وبعد قليل دخل الحاجب يستأذن للباشكاتب فاذن له

فدخل وحيّا ووقف فاومأ اليه ان يقعد فقعد فقال له « اكتب الى ناظم بك قومندان سلانيك ان يستعمل الدقة في البحث عن الخونة الذين يزعمون انهم يقفون في سبيل ارادتي الشاهانية بتأليف الجمعيات السرية . قل له ان يستعمل الشدة بأية وسيلة كانت بمقتضى العبودية وليبادر الى ايفاء الوظيفة الموكولة اليه بما يليق بالشرف العسكري رغبة في صيانة الدولة من الادران الضارة . . » . فقال الباشكاتب « سمعاً وطاعة افندم . . وقد أمر مولانا فكتب عبده الى ناظم بك بهذا المعنى بالامس . . »

فقطع كلامه قائلاً « اكتب ايضاً وقل له ان يجرد السيف ويقطع الرقاب ويقتل ويفتك . . » قال ذلك وهو ينتفض . وتزحزح من مقعده فنهض الباشكاتب والسرخفية

واستأذنا في الانصراف فاذن للباشكاتب واستبقى السرخفية

وبعد خروج الباشكاتب ظل السلطان مطرقاً دقيقة ريثما هدا روعه ثم خاطب السرخفية قائلاً « كيف ترى تحسيناً الباشكاتب ؟ » قال « اراه مخلصاً يا مولاي »

فتنهد تنهداً طويلاً فهم منه السرخفية الف معنى وهو يعلم سوء ظن عبد الحميد في كل واحد فقال «وهب انه غير مخاص فاني لا اغفل عن كشف اسراره وقد خصصت له جاسوساً من انبه رجالي لاستطلاع حقيقته »

فقال « اما وقد فهمت مرادي فكفى . . اني لا اثق باحد سواك .. عفارم .. »

واحس السرخفية انه قدآن انصرافه فاستأذن وخرج

# الفصل الثامن والعشرون

## الخلوة

فلما خلا السلطان بنفسه مشى مشية الغضب حتى دخل غرفة الكتابة وفيها كرسي من الزجاج وامامها طاولة من الزجاج اصطنعهما للجلوس عليهما اذا تكهرب الجو وخاف وقوع الصواعق لان الزجاج لا يوصل الكهربائية . فجلس على الكرسي لحظة بغير تعمد ثم نهض وتحول نحو منضدة عليها اوراق في محفظة فتذكر التقرير الذي اتاه من الشام فهرع الى غرفة المائدة واخذه واضافه الى الوف التقارير التي ذكرناها في خزائن الدهليز. وكانه تعب من شدة القلق فتوسد مقعداً من المقاعد التي ينام عليهاواستغرق في الافكار ثم جعل يناجي نفسه قائلاً :

« تباً لكم من خونة .. لا تخدمون عبد الحميد الا بالمال ... حتى السرخفية فانه لا يخلص لي وانما هو يداهنني رغبة في المال . . وانا اخادعه واغريه بالاخرين ليطلعني على اسرارهم واغريهم به ليطلعوني على سره ...لا اخاف غدرهؤلاء وهمبالقرب مني لاني املأ قلوبهم بالوعود وجيوبهم بالاموال واجعل بعضهم جواسيس على البعض الآخر واقيم السراري عيوناً عليهم اجمعين .. ان عبد الحميد ادهى منكم جميعاً — فمن شككت فيه قتلته سراً او جهراً — وانما اخاف البعيدين عني الذين لا سبيل الى تجسس اعمالهم .. ولكنني قاهرهم . . وهذا الملك لا يخرج من يدي ولن يخرج الا الى بعض ابنائي . . . انا السلطان عبد الحميد . انا وحدي الآمر الناهي . . انا وحدي مالك الرقاب »

وسكت هنيهة تشاغل فيها بخطران رقاص الساعة يمنة ويسرة وهو ينظر اليه ويراجع في ذاكرته ما داربينه وبين السرخفية . حتى اذا وصل الى ما داربينهما بشأن العرب عاد الى مناجاة نفسه قائلاً « ان السرخفية قلل من اهمية العرب في نظري وظنني صدقته ولكنني خدعته بسكوتي لئلاً اريه مقدار خوفي من ابناء العرب . هل انسى ما رماني به غانم والكواكبي وارسلان وغيرهم وما انشأوه من الصحف في مصر وباريس وجنيف . آه منهم اني اخافهم لانهم اكثر عدداً في مملكتي من سائر العناصر وفيهم كتابٌ في اكثر اللغات الافرنجية وهم يكتبون في جرائد اوربا ويحتمون بدول اوربا ولا يسهل علينا اسكاتهم . . هـذا شأن المسيحيين منهم انهم لا يقلون اهمية في نظري عن الارمن الملاعين على ان هؤلاء قد سحقتهم وقتلتهم وسبيلي اليهم سهل . واما العرب فالمسيحيون منهم تحميهم الدول. اما المسلمون فانهم اصل الاسلام ومادته ولا يزالون حتى الساعة ينكرون علينا حق الخلافة لاننا غير عرب . . فكيف لا نخشى بأسهم ؟ . . ولكن هؤلاء المتملقين يقولون ويموهون فاموه عليهم واظهر اني صدقتهم . . ولولا ذلك ما كان اغناني عن تقريب عزت وابي الهدى وغيره من المشائخ الذين يتوهمون انهم يخدعونني وما يخدعون الا انفسهم »

وتنحنح ومـد يده الى علبة السيكار اشعل سكاراً وعاد الى المناجاة قائلاً « هم يحسبون انهم يحتالون في التقرب مني ليكتسبوا المال والجاه وانا لا غنى لي عنهم لتوازن الاحزاب والعناصر — ولكنني مع ذلك اخافهم ولا اثق بهم . . »

ثم خطر له ان يطاب الرقاد في سريره فنهض ومشى نحو غرفة النوم فمر بالحجرة التي تستطرق الى دار الحريم من باب كله مرآة وهمَّ بفتحه فوقع نظره على صورته فيه فوقف يتأمل سحنته ويصلح من شأنه . وكان شـديد الرغبة بمظاهر الشباب يستخدم في ذلك الخضاب والتزجيج والتخطيط . وكان لرغبته في الحياة ينكر على نفسه الاقتراب من الشيخوخة ويلتمس لـكل غضون في وجهه عذراً ولا يعترف انه صار شيخاً

وهو ينظر في المرآة تحول نظره الى صورة زيتية معلقة بجانب ذلك الباب تمثل قارباً عند الشاطىء قد وقف فيه نحو عشرة رجال عليهم البسة سوداء وقبعات سوداء يقرب شكلها مما يلبسه الرهبان اليسوعيون • وفي يدي كل منهم آلة موسيقية من الناي او العود او المزمار يضربون ويعزفون وهم في حال عربدة او سكر. وبين ايديهم على الشاطىء نحو عشر نساء عاريات يرقصن او يتخالعن مما يخل بالادب

وهي صورة اهداها الى عبد الحميد بعض المتملقين يمثل فيها مدحت ورجاله الاحرار

تمثيلاً يحقر دعواهم يريد انهم انما يتظاهرون بطلب الحرية والدستور تمويهاً على العقول وهم بالحقيقة يريدون الخروج عن الآداب الدينية والاقتداء بالنصارى في خلاعتهم وسكرهم !

فلما وقع نظره على تلك الصورة حرق اسنانه وهز رأسه وتضاحك مستهزئاً وقال كأنه يخاطب مدحت « مدحت ؟ تطلب الدستور ! ما هو الدستور ؟ اردت ان تقيد ارادتي ليسمع في الدولة صوت غير صوتي ؟ . لا . لا ينبغي ان يسمع غير هذا الصوت هكذا كان عمي وابي وهكذا ينبغي ان اكون انا . غرّك ما قدرت عليه انت واعوانك حتى خلعتم عمي رغبة في الدستور . . الدستور ؟ ما الدستور ؟ انا الدستور وارادتي هي الشريعة وقد نلتَ جزاء غرورك . متْ واشبع موتاً . . آه لو استطيع ان اميتك ثانية . وهكذا سأفعل بمن يقولون قولك ويسعون سعيك . . سأسحقهم سحقاً واقتلهم قتلا . »

قال ذلك ودخل دار الحريم يطلب الرقاد للراحة وهو ينتفض من الغيظ وقد توسط النهار ولم يهمه الطعام لفرط ما حل به من هياج العواطف المتضاربة بين الغضب والخوف والرجاء واليأس والانتقام

## الفصل التاسع والعشرون

### نام البادشاه

ولم يدخل تلك الدار حتى سكن ما كان فيها من حركة الجواري والخصيان . وما عتم ان قيل « جاء البادشاه » حتى استولى الصمت على الناطقين والجمود على المتحركين لاسيما وهو قلما يدخل تلك الدار في مثل تلك الساعة لانها ساعة قراءة التقارير في المابين الصغير بالغرفة التي تقدم ذكرها

واول من خف لاستقباله نادر آغا فوقف له باحترام والقى السلام بالتمني اللازم وتوسم الاضطراب والغضب في عيني السلطان ولم يكن يفوته شيء من احواله لما علمت من تقربه ودخوله في كل امر لموقعه من نفس عبد الحميد . ولعله اكثر ثقة فيه من سائر المحيطين به في المابين وغيره

ووقف نادر آغا ينتظر اشارة البادشاه الى ما يطلبه او يختاره من غرف الجواري فاذا هو قد سار توًّا الى غرفة الرقاد فاسرع نادر آغا لخدمته في ما قد يحتاج اليه هناك

فاومأ اليه ان يتركه وحده فانصرف وقد ادرك مقدار ما في نفس عبد الحميد من القلق

توسد عبد الحميد سريره في غرفة اقفل بابها من الداخل بيده واخرج المسدس من جيبه ووضعه تحت الوسادة كانه فى الصحراء على موعد من هجوم اهل البادية عليه ! ورغم مايظهره من الثقة باعوانه ورجاله فانه يخاف كلاً منهم وقد تمكن في خاطره ان الانسان خلق شريراً . وان اول اغراضه في هذه الحياه ان يغتال اخوانه ويسلبهم مالهم باية وسيلة كانت

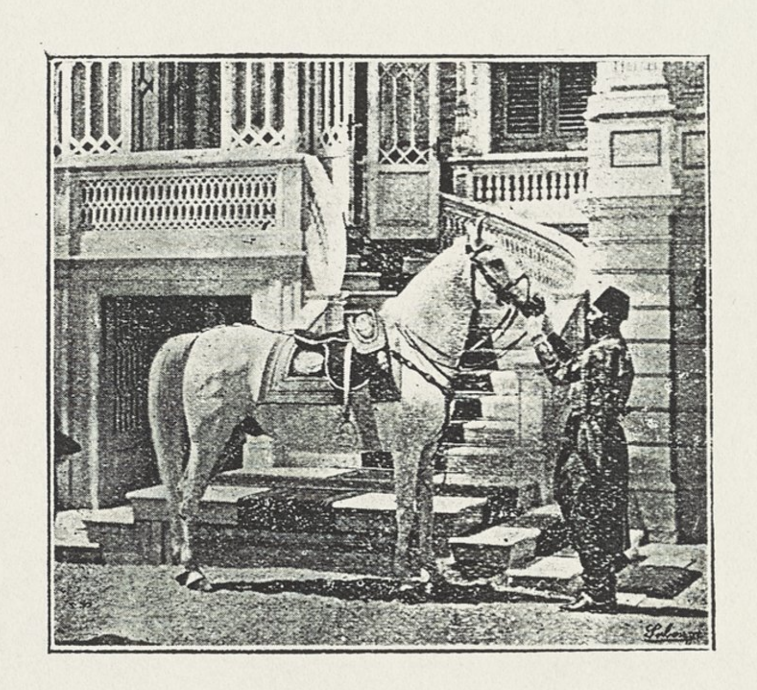
وقد نشأ عبد الحميد من صغره حذراً سيء الظن ولما تولى السلطنة توالت عليه المخاوف غير ماشاهده بعينه من خلع عمه ثم موته ومقتل عوني بجرأة حسن الشركسي ثم خلع اخيه مراد . فرأى حياة السلطان ليست اكثر صيانة من حياة العامة او هي اكثر تعرضاً للخطر منها . فزاد تعلقاً بالبقاء واشتد خوفه على نفسه حتى بلغ الى درجة الهوس او الجنون الخاص فاصبح لايسمع حديثاً او يرى مشهداً اويقول قولاً او يعمل عملاً الا وهو ينظر من وراء ذلك الى علاقته ببقائه . واضطر للمحافظة على نفوذه واستبداده في اول سلطنته ان يسيء الى بعض الاحرار بالابعاد او القتل بدسائس اشرك فيها بعض خاصته فاصبح يخاف نقمة اهل القتلى ويخاف دسائس اولئك الخاصة

اولعله يقيس شعور الناس على شعوره فيتصورانه لو توسم نفعاً بقتل بعض اصدقائه اومحبيه لايرى باساً من قتله . فاصبح يخاف ان يستولي اعداؤه الكثيرون على قلب بعض خاصته فيغريه بالمال او غيره ليقتله . ولذلك فهو لايثق باحد او يستسلم له كما يستسلم الصديق لصديقه او الابن لابيه كما يفعل اكثر الناس . لانه يرى كل شيء عدواً له

ولم يلق راسه على الوسادة حتى تصور مامر به في ذلك اليوم من الطواريء واخذ يفكر في ما عساه ان يطرأ في الغد بشأن تلك الجمعية ويقدر الوجوه التي يمكن ان تقع ويدبر حيلة يتلافاها بها . ومع كثرة هواجسه غلب عليه النوم لفرط التعب فنام واهل القصر جميعاً كانهم في سبات خوفاً من ان يشوشوا عليه رقاده فيغضب والعياذ بالله من غضبه

نام والغرفة مغلقة ونادر آغا جالس ببابها ينتظر ساعة اليقظة ليقوم بالخدمة اللازمة ولكي يعلم اهل القصر بوجود البادشاه هناك فلا يخطرون ولا يتكلمون . وفي الساعة الرابعة ( بعد الظهر ) سمع نادر اغا نحنحة وحركة فعلم ان السلطان استيقظ فوقف . وما عتم ان فتح الباب واطل عبد الحميد فاشار الى نادر اغا ان يدخل فدخل فقال له « سمعت مشياً في هذا الدهليز »

فاستغرب نادر آغا قوله واكد له انه لم يمر احد – ولم يكن عبد الحميد سمع شيئاً لكنه قال ذلك من سوء ظنه على سبيل الاستطلاع . ثم اشار اليه ان يامر رئيس الاسطبل باعداد الفرس الابيض لانه عازم على الركوب للتجول في الحديقة فاسرع نادر وبلغ الامر لتخلو الطرق من المارة . وبعد قليل نزل السلطان حتى ركب الفرس وسار بين يديه اثنان من ياورانه وهما مفوضان ان يقتلا كل من يجدانه في الطريق



جواد عبد الحميد في انتظاره امام باب القصر

طاف الحديقة الصغرى والكبرى على هذه الصورة وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلاح له ان يلهو بزيارة المعامل . ومنها بين تلك القصور معمل للترميم يسمونه تعمير خانه وآخر لصنع البروسلين وترسانة لصنع الاسلحة من كل نوع حتى المدافع والبنادق . وزار ايضاً ماهنالك من المتاحف الصناعية والملاعب المختلفة ثم تحول الى الاسطبلات للتفرج بمناظر الافراس على اختلاف اشكالها حتى انتهي الى ابراج الحمام في الحديقة الصغرى التي تقدم ذكرها

وكان ينزل عند كل معمل او متحف اواسطبل ويلهو بحركات الصناع وغيرهم وهم يبذلون جهدهم في عرض ما تفننوا به من ضروب الصناعة وهو يظهر انه يهتم بكل ما يقولونه ولكنه في الحقيقة مشتغل بهواجسه

# الفصل الثلاثون

## كاغد خانه امامي

فلما وصل الحديقة الصغرى دخل ذلك الكشك فتذكر ما كان من حاله فيه في صباح ذلك اليوم . ووقع نظره وهو داخل هناك على شيء اذكره بالمضحك ( المهرج ) وهم يسمونه في اصطلاحهم « كاغدخانه امامي » فاشار الى نادر اغا ان يأتيه به

وبعد قليل جاء المضحك واسمه علي افندي وهو كهل منظره يضحك الثكلى وكان قصير القامة كبير الراس عظيم الانف وقد لاث حول راسه عمامة كبيرة ولبس جبة طويلة تزيد منظره غرابة . جاء وهو يستعيذ بالله من تلك الدعوة لان السلطان كان يبالغ في تعذيبه التماساً للضحك . فحالما اقبل على السلطان وقف مطرقاً بعد ان قبل الارض فاشار السلطان الى نادر اغا اشارة فهمها فامر بعض الوقوف من الخدم ان يطلوا وجه المضحك بالسواد ففعلوا وهو يبدي اشارات الرضا والاعجاب ـ وهل يستطيع غير ذلك ؟

فلما تم الطلاء وقف علي افندي والقى التحية فضحك السلطان من منظره واشار الى نادر اغا اشارة اخرى فقبض على ذلك المسكين وحمله بين يديه والقاه في البحيرة فكان لوقوعه فيها طشيش قهقه له السلطان ولكن الناظر في ملامح وجهه يعلم انه يتكلف ذلك عنوة . فجعل علي افندي يخوض الماء وقد وقعت عمامته عن راسه وعامت جبته على سطح الماء وهو يصيح ويستغيث والسلطان يضحك . ثم امر باخراجه فاخرجوه والماء يقطر من اردانه وقد اعدوا له ثياباً اخرى في مكان اخر فمضى فتبدل وعاد وهو يتظاهر بالسرور والمجون ويده على انفه يضربه ضرباً متوالياً

فاغرب السلطان في الضحك وابتدره قائلاً « ما الذي اصابك ؟ لماذا تضرب انفك ؟ »

فقال « اضربه لانه اصل هذا البلاء علي .. انا اعلم ان شكل هذا الانف هو السبب في ما اقاسيه من العذاب .. »

فادرك السلطان انه يعني الاشارة الى الارمن وهم كبار الانوف وقد اشتهروا بعداوة السلطان ولكنه تجاهل وقال « هل نقطع لك هذا الانف ؟ »

فابتسم المضحك وقال « اذا كان البادشاه يريد ان يزيدني جمالاً فليفعل »

فضحك السلطان وقال « نادراغا ! اقطع انفه »

فاظهر نادر اغا انه يهم بذلك فصاح المضحك « امان افندم ، امان ! »

فاشار بالعفو عنه وهو يضحك وقال « قد عفونا الان عن انفك واما بعد الان فلا نعفو »

فقال « الامر لولي النعم .. اذا اراد ان يقطعني اربا ارباً فهو صاحب الامر .. ولكن لا يخلو كبر الانف من فضيلة فان بين اصحابه من يتفانى في رضى جلالة البادشاه وفيهم من يعشقه ويتمنى الموت تحت قدميه »

فتبدلت سحنة السلطان من المجون الى الجد واومأ الى الحضور ان ينصرفوا الا الكاغد خانه امامي . فذهبوا جميعاً وظل المضحك وهو يحسب لتلك الخلوة الف حساب

فلما انفرد السلطان به اومأ اليه ان يقعد بين يديه فقعد على العتبة جثوًّا واطرق ولبث ينتظر ما يكون . فالتفت السلطان يمنة ويسرة ولما تأكد خلو الحديقة من الناس قال « كاغدخانة امامي ! »

قال « حاضر افندم »

قال « انزع عنك المجون وخاطبني »

فاظهر الجد والاحترام وقال « اني عبد مولاي البادشاه طوع ارادته »

قال « انت تعلم منزلتك عندي »

قال « ياسيدي .. ان نعم امير المؤمنين قد غمرتني وانا اخاص عبيده له »

قال « عفارم . هذا عهدي بك . ولا شك انك تعرف اعتمادي عليك »

فقبل الارض وقال « نعم افندم .. وهذا شرف لي »

قال « هل عندك شيء جديد ترفعه اليَّ ؟ — يظن نادر وغيره من كبار الخصيان وسائر اهل القصر اني اقتنيتك لهذه الملاهي . ومن اجلها ادخلتك قصري وجعلتك نديمي .. » وسكت ينتظر ما يقوله المضحك

فسرّي عن علي افندي فقال « انا افتخر بهذه الثقة واؤكد لمولاي البادشاه اني ساهر على راحته واقف بالمرصاد لكل من يخرف عن واجب العبودية .. لان الناس اشرار لا يعرفون حقوق النعمة »

قال « كيف تجد نادر آغا ؟ »

فطأطأ المضحك راسه وقال « انه نعم العبد الامين »

قال « وغيره »

قال « لم الحظ شيئاً جديداً هذين اليومين . . »

قال « افصح . . لا اظنك الا فهمت مرادي . . »

قال « يا مولاي ان نادر آغا ساهر على هذه القصور ومن فيها . . »

قال السلطان « والقادين ج ؟ »

فاظهر علي افندي الاهتمام والاحترام وقال « من اين لي ان اراها ؟ »

قال « لا تخف . . قل الحقيقة انك تراها وانا اذنت لنادر آغا ان يمتع القوادين بجونك وكان ينبغي ان تعرف غرضي من ذلك . إه ! »

فاجفل المضحك من هذا التهديد وقال « نعم يا سيدي . . انا فهمت الغرض لكن هيبة البادشاه امير المؤمنين بعثتني على التكتم »

فضحك عبد الحميد ضحكة اغتصابية وقال « طيب . . فماذا تعرف عن القادين ج . قل لا تخف »

قال « انها يا سيدي في حالة يرثى لها . . لا تكف عن البكاء »

فاستغرب السلطان قوله وقال « اني لم ارها تبكي قط »

فقال « لا تبكي في حضرة امير المؤمنين لان رؤيته تذهب عنها كل حزن . . مسكينة ! »

فاقطب السلطان حاجبيه وقال « وتقول مسكينة ؟ »

قال « اذا اباح لي مولاي ان اقول ما اعرفه وامنني قلت »

قال « قل لا بأس عليك »

قال « ان هذه القادين سيئة الحظ »

فتطاول عبد الحميد بعنقه وحملق بعينيه وقال « تكون في قصري وتعدُّ من نسائي وتزعم انها سيئة الحظ »

قال « التمس حلم جلالة السلطان . ان سوء حظها مبني على وجودها في هذا القصر . . »

قال « وكيف ذلك ؟ »

قال « لانها تستهلك في حب جلالة البادشاه وهو يعاملها بالجفاء »

فاطرق السلطان لحظة تشاغل فيها باصلاح لحيته وعيناه البراقتان يكاد الشرر يتطاير منهما ثم نهض فجأة فاجفل المضحك ونهض وخاف ان يكون قد اغضب السلطان في ماقاله ووقف متأدباً وركبتاه تصطكان . ومشى السلطان نحو قصره وذلك المسكين

في حالة يرثى لها . لكن السلطان بعد ان تجاوزه بضع خطوات التفت اليه وابتسم تخفيفاً لما حل به من الرعب نخف اضطرابه

# الفصل الحادي والثلاثون

## والدة سلطانة

دخل عبد الحميد الى المابين الصغير من بابه السري وهو يتعثر بذيل جبته وازاح طربوشه عن جبهته كانه يلتمس تفريج كربته من قمة رأسه . فلما صار في غرفة المكتب تنفس الصعداء واستلقى على الكرسي وهو مستغرق في الافكار وتناول سيكاراً اشعله وجعل يدخن بعنف ويتنقل بنظره على ما في الغرفة من الخزائن والكراسي بغير انتباه . ثم اخذ يناجي نفسه قائلا « انا اعلم انها تحبني وتتفانى في مرضاتي .. ولكن كيف احبها وهي ستكون سبب بلائي »

ثم نهض عن الكرسي ومشى نحو منضدة فتح درجها واستخرج ورقة من محفظة هناك واخذ يقراها ويعيد قراءتها ثم عاد الى الكرسي والورقة في يده وهو يقول « كيف احبها وقد ظهر في هذا المندل انها اذا جاءني منها غلام سيكون شؤماً عليّ... لاينبغي ان اقترب منها .. ان الحب شيء والملك شيء آخر... واخاف مع ذلك ان تكون قد خدعتني » واعادة الورقة الى المحفظة ومشى الى دار الحريم فلتي نادر آغا فقال له « اين والدة سلطانة ؟ »

قال « هي في غرفتها يامولاي »

فمشى وهو يقول « احب ان اراها »

فاسرع نادر آغا حتى بلغها رغبة السلطان في مقابلتها فتأهبت لاستقباله . لكنها ابتدرت نادر اغا بالسؤال قائلة « ما هو لون ثوبه اليوم لالبس مثله » لان العادة الجارية في آداب بلاط عبد الحميد ان يلبس نساؤه عند مقابلته ثوباً لونه من لون ثوبه

فقال نادر آغا « انه بثوبه الاسود الرسمي لا حاجة الى لون معين . ولم تكن هي والدة السلطان حقيقة لكنها تقوم مقامها في ادارة دور الحريم وكانت قبلاً خزندار اوسته اي خازنة دور القوادين . فلما ماتت والدة السلطان تولت تلك الادارة واليها يرجع تدبير نساء السلطان وسراريه . وكانت كبيرة السن ولكن الجمال ما زال يتجلى في

وجهها وفيها ذكاء ونباهة . فلما علمت بقدوم السلطان خفت لاستقباله ورحبت به وعليها ثوب يجللها وفي يديها الاساور وعلى صدرها الحلى الثمينة . ولحظت في وجه السلطان القلق ولكنها تعرف منزلتها عنده فابتسمت له وقالت « هل من امر اقضيه لجلالة البادشاه ؟ »

فجلس على المقعد واشار اليها ان تقعد وقال « جئتك بامر يهمني »

فقالت « روحي فداء مولاي »

قال « كيف القادين ج ؟ »

فتغير وجه المرأة عند سماع ذلك الاسم وقالت والبغتة ظاهرة في عينيها « انها في خير »

قال « لا اسألك عن صحتها ... ولكن هل قامت حاضنتها بما عليها »

فادركت غرضه وتلعثم لسانها عن الجواب لكنها غالبت نفسها وقالت « انها لا تغفل عن رعايتها »

قال « بل اسألك عن شيءٍ آخر . . هل خبرتِ امرها من عهد قريب ؟ »

فلم يعد في امكانها الصبر على التجاهل فقالت « اخبرتني الحاضنة انها ربما تكون حاملاً »

فاجفل السلطان ونهض ولم يتمالك ان صاح « حامل ؟ »

فنهضت احتراماً لهُ وقالت « هكذا اظن »

قال « ليست الحالة بالظن .. كيف تغفل الحاضنة عن واجباتها . انها اذا كانت كما تقولين فالذنب يقع عَلَي تلك الحاضنة الملعونة .. اليس من واجباتها ان تمنع الحمل وقد خولتها ان تمنعه باي طريقة كانت ؟ »

فتحيرت والدة سلطانة بامرها وارادت ان تخفف غضب السلطان فقالت « لماذا يغضب مولاي من حملها اليست هي من نسائه وقد حصل لها الحظ ان تصير قادينًا »

فامسك السلطان غيظه وتجلد وعاد الى القعود واشار الى والدة سلطانة ان تقعد وقال « قد جعلتها قادينًا مكافأةً عَلَي خدمة قامت بها .. » وتمالك وتجلد وقال بصوت منخفض « نعم ان القاعدة كما تعلمين ان الجارية بعد ان تكون « كوزده » عند دخولها قصرنا ترتقي الى رتبة « اقبال » فاذا حملت منا صارت قادينًا ولكن ج . هذه جعلتها في هذه الرتبة لانها تجسست لي اخبار احد الخونة في حوادث الارمن وكنت في ريب من امره فانفذتها اليه في جملة الجواري اللواتي اهديتهن الى الباشوات يومئذ ليكنَّ لي

عيوناً عليهم وقد كشفوا لي خيانات كثيرة. ولكن ج هذه كلفتها مهمة فوق العادة فعرضت نفسها للخطر عَلَى وعد مني انها اذا افلحت جعلتها قادينًا وان لم تلد مني وقد افلحت فانجزت وعدي »

فلما راته يخاطبها بهدوء تجاسرت عَلَى مباحثته في الموضوع فقالت « فاذا كنت قد انعمت عليها بهذه الرتبة فما المانع من حملها ؟ »

قال « وما الفائدة اذاً من كثرة الحواضن اللواتي يتولين اتخاذ الوسائل لمنع الحمل ؟ وقد اوصيتك عَلَى الخصوص بهذه »

فتذكرت والدة سلطانة انه كان قد خصص ج بالوصاية وهي اوصت الحاضنة بما يلزم لكنها اخفقت فقالت « ولكن لا تفلح الوسائل دائماً ... ان في عصمة امير المؤمنين الان اربع قوادين هن نساؤه الشرعيات و١٢ قادينًا مثل ج واكثرهن يحملن فلا باس اذا حملت هذه ايضاً »

فقال « لا . هذه لا ينبغي ان تلد فاذا كنتِ تاكدتِ حملها فيجب ان تموت »

وكانت والدة سلطانة تحب القادين المذكورة لجمالها وذكائها ولانها تحب السلطان الى حد الكلف ـ وذلك نادر في قصور الملوك فاسفت لتشديد عبد الحميد في امرها فاخذت تخفف الامر عليه فقالت « في قصر مولاي السلطان ٣٠٠ جارية هب ان واحدة منهن حملت فماذا كنا نفعل ؟ »

## الفصل الثاني والثلاثون

### التمثيل

فنهض ولم يعد يتمالك عن الغضب وقال « لا تجادليني ان هذه المراة اما ان يذهب حملها او تموت وقد قلت لك ذلك وكفى » قال هذا وتحول نحو المابين الصغير وقد ازفت الساعة السادسة وآن وقت العشاء ولم يكن قد تغدى فوجد المائدة مهياة

وعشاؤه بسيط وفي تحضير طعامه عَلَى بساطته مشقة كبرى لشدة خوفه عَلَى حياته وسوء ظنه بمن حوله . ومن الاحتياطات التي اتخذها لوقاية نفسه انه ابعد الطاهي الذي يصنع له الطعام عن كل علاقة باهل الدولة وامره ان يقيم في حجرة مضبوطة بابها من الحديد عَلَى يسار باب القصر المسمى باب السلطنة « سلطنة قبومي » فيصنع الطعام

تحت مراقبة الكلارجي باشي وكان لعبد الحميد ثقة شديدة فيه • فمتى نضج الطعام حمله الى غرفة المائدة اثنان من الخدم بلباس اسود عَلَى مائدة اشبه بصندوق مقفل وطوله ٨٠ سنتمتراً عليه كساء من السجاد برسم السلطان يمشي وراءهما خادم يحمل طبقاً مغطى بكساء اسود وقد ضمت اطرافه وختم عليه الكلارجي باشي . و ياتي بعد ذلك خادم يحمل وعاء الخبز ثم خامس يحمل زجاجة الماء مختومة ايضاً • يسير هذا ( الوفد ) من المطبخ الى غرفة المائدة باحترام فاذا لقيهم احد في اثناء الطريق انحني احتراماً لصاحب الطعام • حتي اذا بلغوا المائدة ادخل الكلارجي باشي الطعام وفض الاختام عنه بين يدي السلطان وقدم له الاطباق وعليها الالوان فيتناول ما شاء

فلما وصل عبد الحميد غرفة المائدة وجد الطعام قد وصل باطباقه المختومة كما تقدم ففضها وا كل وحده عَلَى جاري العادة وهو غارق في بحار الهواجس . وكان القصر قد انير كله كالعادة فانتقل الى غرفة المطالعة واخذ في مطالعة التقارير وهي كثيرة لكنه اصبح بعد امر سلانيك وجمعيتها لايهمه غير الوقوف عَلَى خبرها . فترك التقارير ولم يشعر بالنعاس لانه نام في اثناء النهار فاراد ان يلهو بحضور التمثيل في مرسحه الخاص

وكان له في يلدز مرسح للتمثيل وعرض الصور المتحركة وسماع الفونوغراف مما يقضى به الوقت لا يحضره الا خاصته فبعث الى الجوق انه عازم عَلَى الحضور في المرسح تلك الليلة فاستعدوا للتمثيل واشار بمن ينبغي ان يحضره من خاصته وفي جملتهم كبار رجال المابين . ولما ظهر السلطان في منظرته ( لوج ) وقف له الحضور وقوف الاحترام وصاحوا « باد شاهمز جوق يشا » وضربت الموسيقى سلامه الخاص . ثم دار التمثيل واتفق ان الرواية التي مثلت تلك الليلة فيها حكاية امراة خانت زوجها واغرت ابنها عَلَى قتله فهاجت هواجس السلطان وتذكر حاله مع القادين ج وتشاءم من تشخيصها واتخذه دليلاً على صدق تخوفه وبعث الى مدير الجوق يعاتبه لانه لم يسأله عن الرواية التي يريد تشخيصها وامره ان يشخص رواية اخرى بطلها ملك يفوز عَلَى مكايديه كثيراً ما كان يحضرها ويسر من حوادثها • ولو لم يكن مدير ذلك الجوق اجنبياً لامر بقتله لكنه كان يخاف مداخلة الاجانب

وكان الحضور مشتغلين باحاديثهم وعبد الحميد غارق في هواجسه ولاحت منه التفاتة فراى نادر آغا واقفاً في مكان من المرسح تعوّد ان يقف فيه اذا اراد مخاطبة السلطان في امر • فاوما اليه فجاءه بخفة حتى دخل منظرته فامره ان يجلس وساله عن غرضه فقال « اني التمس تسكين بال مولاي ... وقلت لعله يحتاج اليّ في شيء »

قال « قد اصبت اني في حاجة اليك . . هل لقيت والده سلطانه ؟ »

قال « نعم يامولاي وقصت عليَّ غضب الذات الشاهانية »

قال « ارايت ما فعلته تلك الحاضنة ؟ . انها لم تفعله عن اهمال كما توهمت والدة سلطانة لكنها تعمدته بالرشوة ـ اغراها على ذلك اعـدائي قبحهم الله » قال ذلك وحرق اسنانه وهز راسه

فقال نادر « لم افهم سبب غضب سيدي من حمل هذه القادين فافرض انها احدى الجواري الكثيرات في يلدز . . و . . »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « لا الومك عَلَى استغرابك غضبي ولذلك فانا امرٌ اليك السبب برهاناً عَلَى ثقتي بك واعتمادي عليك »

فاومأ نادر آغا شاكراً تلك النعمة . فاشار اليه السلطان ان يرخي ستارة المنظرة حتى يختفيا عن الجلوس ففعل ثم قال السلطان « هلم بنا الى المابين » ونهض فاسرع نادر بين يديه من باب سري يؤدي الى المابين ولم يشعر بهما احد من الجلوس

مشيا توّاً الى غرفة المطالعة وهي لا تزال مشعشعة بالانوار فقعد السلطان واشار الى نادر ان يقعد فقعد

فتناول السلطان سيكاراً أشعله ونفخ الدخان من فيه مع زفرة طويلة وكرر ذلك مرتين فامتلأَت الغرفة من الدخان وهو مطرق ونادر بين يديه جامـد كالصنم ثم رفع السلطان بصره الى نادر وقال « الا تعرف القادين ج . من يوم مجيئها قصرنا ؟ »

قال « لم اكن اعرف عنها شيئاً كثيراً ولكنني كنت اسمع قزلر آغاسي ( قيم الجواري) يثني عَلَى ذكائها وجمالها »

قال « الا تعرف انها ارمنية الاصل ؟ »

قال « يظهر ذلك من شكل انفها وملامح وجهها واظن هذا هو السبب في نفور مولاي البادشاه منها »

قال « لا . لا . ليس السبب في ذلك كونها ارمنية ولا لمجرد كرهي هذه الطائفة بعد ما كان من تمردهم ودسائسهم ولكن . . » وعاد الى التدخـين ونفض رماد السيكار في منفضة بين يديه وهو مطرق كانه يتردد في هل يطلع نادر اغا عَلَى ذلك السر الذي لم يطلع عليه احداً بعد ؟ . ونادر جالس متأدباً لا يبدي حراكاً لئلا يشوش عَلَى السلطان مجاري افكاره

# الفصل الثالث والثلاثون

## كشف السر

ونهض السلطان عن الكرسي الطويل الذي كان جالساً عليه الى المكتبة وفتح الدرج واستخرج منه تلك الورقة من محفظتها وقبض عليها بكفه وعاد الى مقعده والسيكار في فيه وقال « اسمع يا نادر آغا ٠٠ يقولون ان والدتي ارمنية الاصل ؟ »

قال « نعم يا سيدي هكذا يقولون »

فقال السلطان « فكان ينبغي ان احب الارمن من اجلها ٠٠ »

قال « نعم افندم »

فاخرج السيكار من فيه وتنهد وقال « ولكنني اكرههم ٠٠ لانهم الدّ اعدائي »

قال « انهم يستحقون الغضب لسبب عقوقهم وتمردهم »

فقاطعه السلطان قائلاً « اني اكرههم واخافهم من صباي . . اتعلم لماذا ؟ »

فتطاول نادر آغا بعنقه ولم يجب اكتفاء بالاصغاء فقال السلطان « كرهتهم من صباي لان المنجم الذي تنبأ لي من ذلك العهد ان العرش سيفضي اليّ — هل تعرفه ؟ »

فبغت نادر آغا لانه لم يكن يتوقع سؤالاً فقال « خير افندم »

فقال « كنت في صباي احضر مجلس التنجيم والمندل بين يدي والدة سلطانة — وهي يومئذٍ والدة عمي السلطان عبد العزيز وكان عندها جماعة من مهرة المنجمين نبوءاتهم صادقة . ثم عرفت منجماً اسمه الشيخ عبد الرحمن من اهل صيدا جاءني به نجيب باشا احد رجال الدولة عند رجوعه من منفاه في قبرص وأطرى مهارته في استطلاع الغيب . فطلبت اليه ان يكشف لي عن مستقبلي فقال اني سأتولى العرش قريباً وابقى عليه مدة طويلة فاعترضت بوجود عمي عبد العزيز حياً ثم اخي مراد فاكد لي ان طالعي يدل يقيناً على ما قاله . لكنه اسرّ اليّ انه يرى ظلاً اسود يحوم حول سعدي وانه اذا كان عليّ خوف فيكون من عشيرة امي وهو يعتقد انها ارمنية . فلم تمض مدة طويلة حتى صدق المنجم وتوليت العرش وكافأت الرجل مكافأة حسنة ثم خدمني خدماً جليلة تعود الى حفظ السلطنة ... — فلما رأيته صدق ببعض المندل خفت ان يصدق بالباقي ولذلك رايتني اطارد الارمن واحاذرهم »

وسكت ريثما سحب سحبة من السيكار ويظهر من ملامح عينيه انه لم يتم حديثه

بعد فظل نادر آغا مصغياً

فعاد السلطان الى الكلام قائلاً « قد علمت سبب نقمتي على الارمن اجمالاً ولم تعلم بعد سبب حذري من هذه المرأة على الخصوص .. فاعلم اني شديد الاعجاب بهذه الجارية منذ عرفتها لذكائها وسداد رأيها وكثيراً ما كنت اقضي الساعات في مجالستها حتى شغلتني عن سواها لما لها من الاطلاع على الصحف والكتب . وهذا ما بعثني ان اثق بها حتى كلفتها بمهمة ذات شأن في اثناء دسائس الارمن التي انتهت بذبحهم في الاستانة منذ عشرة اعوام »

[illegible] ح وقد أبرقت عيناه سروراً بما كان من نجاحه في [illegible] ذ ان بعض رجالي المسلمين ممن قدمتهم ورقيتهم ووليتهم المناصب موالون لاو لئك الكفار علي فلكي أتحقق ذلك بعثت بعض السراري النبيهات الى بعضهم على سبيل الهدية ـ وهم طبعاً يفرحون بالهدية السلطانية ولا يجسرون على ردها . فاطلعني اولئك الجواري بعد ذلك على اسرار هامة . . وكانت القادين ج يومئذ لا تزال من جملة السراري فكلفتها بكشف اسرار ع . باشا لاني كنت اخاف تظاهره بالاخلاص . وحرصاً على استرجاعها الي لانها ارمنية وخوفاً من ان تنحاز لابناء جلدتها وعدتها انها اذا قامت بتلك المهمة اجعلها قادينا واشترطت عليها شروطاً خصوصية تجيز رجوعها الى قصري وانا واثق بصدقها . والحق يقال انها اخلصت الخدمة وعادت باهم الاخبار عن الارمن انفسهم ايضاً — فسميتها قادينا وامرت لها بدائرة خاصة تقيم فيها وعندها الخازنة والباشكاتبة والمهردار والاسفتجي فضلاً عن الخدمة والجواري والخصيان مثل سائر القوادين . ولم اميز واحدة منهن عنها في شيء ولكن . . . آه » وتنهد

وكان نادر آغا كثير الشفقة على تلك القادين يحب ان ينقذها من الخطر اذا استطاع الى ذلك سبيلا فاصغى بكليته الى حديث السلطان فلم يجد في كل ما سمعه شيئاً يوجب غضب السلطان . فلما رآه يتنهد توقع ان يسمع ما يكشف له القناع عن السبب الصحيح

# الفصل الرابع والثلاثون

## القتل على التهمة

اما السلطان فبعد ان تنهد رمى بقية سيكاره في المنفضة وقال « انك لا تجد في حديثي عن هذه المراة حتى الساعة ما يوجب الغضب عليها . . ولا انا ايضاً . ولكنني رأيت في المنام بعد ذلك رجلاً ارمنياً كنت اراه في مجلس والدي ساكن الجنان واسمه مهران بك ولم اكن احب [illegible] يفضل اخوتي علي . وربما اوعز الى والدي بذلك وكنت الاحظ ان والدي يسايره ويتهرني فنشأت على كره هذا الارمني . وقد مات من زمن طويل ولم يخطر ببالي ذكره الا في تلك الليلة فرايته في المنام بهيأته التي اعرفه بها و بيده سيف يشير به اشارة التهديد فاجفلت واستيقظت وانتبهت الى الخطر الذي يحدق بي من الارمن وقلت « ينبغي ان اتيقظ منهم » ولم اجد حلاً الا بالمندل فامرت الشيخ ... ان يعمل مندلاً على ما في ضميري ولم اذكر له شيئاً . فكتب لي نتيجة المندل في هذه الورقة فحفظتها عندي من ذلك الحين وتيقظت لنفسي واوصيت الحاضنة ان تتيقظ جيداً للقادين ج . وقد علمت اليوم انها حامل . . .» قال ذلك ودفع الورقة الى نادر آغا ليقرأها

ففتحها واقترب من المصباح وقرأ فيها « لا ينبغي للسلطان ان يطمئن من اهل امه بعد ان طاردهم وذبحهم فان ما كتب في صحائف الدهور كائن والخطر سيأتي من طفل امه ارمنية وابوه السلطان »

ولما فرغ نادر آغا من تلاوة الورقة اقشعر بدنه لانه يعتقد التنجيم مثل سيده واطرق مفكراً فابتدره السلطان قائلاً « الا تراني معذوراً ؟ الا توافق على رأيي ؟ هل يجوز الاغضاء عن تلك المرأة اذا صح انها حامل ؟ قل . . »

فقال « ان سيدي البادشاه صاحب القول . لا شك ان بقاءها على هذه الصورة خطر — ولكن هل ثبت حملها ؟ »

قال « يكفي الشك للتعجيل بالقتل . . قد نكون مصيبين وقد نكون مخطئين فاذا صبرنا ووضعت غلاماً اصبح التخلص منه شاقاً وتحوم حولنا الظنون — اما الآن فالانسان عرضة للمرض والموت كل ساعة — والاطباء يرسلون الانسان الى العالم الآخر

بجرعة لايشعر معها بالم ولا عذاب . . فأحب ارسال هذه المخلوقة من هنا واحسب انها لم تكن في جملة الجواري اللواتي ابتعناهن وان كنت آسفاً لذلك . . لان هذه المسكينة كانت تحبني »

فقال نادرآغا « لافضل لها في حبها ومن لايحب مولانا الخليفة ظله الله على الارض؟ ان المحافظة على سلامته فرض لابد منه ولو قتل الالوف في سبيله . وانا اول من يضحي نفسه في هذا السبيل — اطال الله بقاء امير المؤمنين »

قد يجلّ ذكاء عبد الحميد عن ان ينطلي عليه هذا الاطراء او يعتقد صدقه ولكن الانسان ضعيف . قد يكون قوياً من كل جهة الا من جهة اغتراره بنفسه فانه في غاية الضعف . يقبل الاطراء ولو كان بعيد التصديق ولا سيما اذا كان لا يسمع غيره وكل الذين حوله يتسابقون الى استنباط عبارات الاطراء تملقاً له وتقرباً منه فلا يلام اذا صدق مثل قول نادر آغا . فلما سمع قوله قال له « فانا اكل امر هذه المرأة اليك »

وكان نادر مخلصاً لمولاه وان لم يعرف كيف يؤكد اخلاصه . فلما وكل السلطان اليه هذا الامر اشار مطيعاً

ثم تحفز السلطان للنهوض في طلب الرقاد فنهض نادر آغا وخرج بعد ان قام بواجب الاحترام

اما عبد الحميد فهاجت اشجانه في ذلك المساء على اثر ما تحدث به عن المنجمين والارمن والقتل فزادت مخاوفه وغلب عليه ميله الى التستر والاختفاء . فاظهر انه ذاهب للرقاد في دار الحريم وبعد ان خلا بنفسه طلب النوم في غرفة المائدة على كرسي طويل وفوقه ملاءة من الصوف كما في سائر الغرف لينام السلطان متى شاء ولا يعرف احد مقره

---

# الفصل الخامس والثلاثون

## الاخبار الجديدة

نام عبد الحميد في تلك الليلة نوماً متقطعاً على جاري العادة وافاق في الصباح وعليه قميص ( عنتري ) وقفطان طويل وهرع بالبنطوفلي السوداء الى الحمام كجاري العادة وتعاطى بعض الحركات الرياضية ولبس ثيابه الاعتيادية وانصرف الى غرفة المطالعة وكان القهوجي باشي قد وقف هناك واعد الادوات اللازمة لطبخ القهوة بين يديه

فقعد عبد الحميد وهو ينظر الى القهوجي باشي كيف يطبخ القهوة وتناول سيكاراً فاشعله وشرب القهوة بلذة وفكره مشتغل في ما عساه ان يأتيه من الاخبار الجديدة في ذلك اليوم

انصرف القهوجي باشي وجاء الخبر ان المائدة معدة للفطور فنهض اليها وتناول فطوراً خفيفاً من البيض واللبن وهو يتوقع دخول الحاجب بمجيء البريد او السرخفية

وما عتم ان سمع جرس الباب الخارجي فعلم انه الحاجب آت بخبر جديد فنهض وهو يمسح فمه ولحيته بالفوطة للذهاب باثار آخر جرعة من فنجان اللبن ورمي الفوطة ومشى نحو غرفة الاستقبال التي يطالع فيها التقارير فلقيه الحاجب والقى التحية المعتادة وقال « ان الباشكاتب بالباب »

فعلم عبد الحميد ان الباشكاتب لا يبكر على هذه الصورة من عند نفسه الا لخبر هام فخفق قلبه تطلعاً الى ما عساه ان يكون واشار الى الحاجب ان يأذن للباشكاتب بالدخول

وبعد هنيهة دخل الباشكاتب والسلطان قد جلس الى المنضدة التي يقرا عليها التقارير نحيا وهو يبتسم دلالة على حسن الاخبار التي جاء بها . فاستبشر السلطان واذا بالباشكاتب يقدم له ظرفاً عرف من شكله انه تلغراف فتناوله بلهفة وفضه وقراه فبانت الدهشة في وجهه ولم يتمالك عن الضحك وفي عينيه ملامح الشماتة والاستهزاء ثم انتبه لوقوف الباشكاتب فاوما اليه ان يقعد فقعد

فاعاد عبد الحميد نظره في التلغراف كانه يتفهم معناه ثم قال « عفارم .. عفارم ناظم ! » والتفت الى الباشكاتب وقال « متى جاءك هذا التلغراف ؟ »

قال « في هذه الساعة سلطانم »

فدفعه اليه وقال « اقرأ »

فقرأ ما ترجمته « قد تمكنا ببركة الذات الشاهانية المقدسة وهمة الخفية صائب بك من القبض على رامز احد اعضاء الجمعية الجهنمية ومعه اوراق مهمة تكشف عن خيانات كثيرة .. وننتظر الامر بما يلزم للاجراء والفرمان لصاحب الفرمان » « ناظم »

فقال السلطان « من هو صائب هذا ؟ »

قال « هو من الخفية الذين ارسلهم السرخفية الى سلانيك وقد سمعته يثني على اخلاصه واجتهاده »

فاعتدل السلطان في مجلسه وقال « كيف ترى هذا الرجل .. السرخفية ... احب ان اعرف رايك فيه لاني لا اثق بسواك كما تعلم »

قال « هو من العبيد المخلصين يا سيدي ونجاح رسوله في هـذه المرة من اكبر الادلة عن ذلك . وكيف لايكون مخلصاً والذات الشاهانية وضعت ثقتها فيه ؟ »

فاظهر السلطان انه اكتفى بهذه الاشارة واعتمد على فطنة السامع لفهم ما يقتضيه هذا السؤال من مراقبة حركات السرخفية وقال « ما هو رايك ؟ هل نستقدم هـذا الخائن المقبوض عليه الى هنا ؟ »

قال « الامر لامير المؤمنـين ٠٠ ولعله اذا جيء به الى هنا نستطلع منه اشياء جديدة ... لله ما اجهل هؤلاء الغلمان ! »

فصفق السلطان فجاء الحاجب فامره باستدعاء السرخفية وقال للباشكاتب « قل لناظم ان يبعث بالخائن واوراقه حالاً »

---

# الفصل السادس والثلاثون

## القلق

فنهض الباشكاتب واشار اشارة الطاعة وخرج وعاد عبد الحميد الى سيكاره فاشعله وهو يعيد نظره الى التلغراف حتى انبيء بمجيء السرخفية فامر بدخوله. وكان قد علم السرخفية بمجيء التلغراف في ذلك الصباح وبفحواه سرًّا . كيف لا وهو رئيس الجواسيس ؟ فلما دخل على السلطان حيا تحية الاحترام واظهر انه لم يكن يعلم بذلك فقرأ امارات السرور في عيني عبد الحميد فشاركه بمثلها فمد السلطان يده ودفع التلغراف اليه وهو يامره بالجلوس فجلس وتناول التلغراف وهو يقول « اذا كان هذا التلغراف من سلانيك ففيه خبر القبض على احد الخونة »

فاظهر السلطان الاعجاب بتيقظه وقال « نعم انه من سلانيك وقد قام بهذه المهمة احد رجالك مع ناظم بك ٠٠ »

فتناول السرخفية التلغراف وقراه وقال « نعم يا سيدي ان صائب بك من العبيد المخلصين » وقعد

فقال السلطان « ان الاخلاص منك . وقد توسمت فيك صدق المودة منذ عرفتك ولولا ذلك لم اضع ثقتي فيك واجعلك عيني الباصرة ... انك معتمدي الوحيد في مراقبة الخونة المارقين وهم كثار حتى في هذا القصر ٠ ولذلك فانا اخاطبك راساً »

وتنحنح وسحب سحبة من السيكار وقال « قد امرنا الباشكاتب ان يستقدم ذلك الخائن واوراقه . الم نفعل حسناً ؟ »

فانشرح صدر السرخفية من ذلك الاطراء وخصوصاً من ذكر المودة وقال « معلوم •• ومتى جاء استطلعنا منه سر تلك الجمعية وبددناها »

فقال « عفارم . نعم .. قد آن الاقتصاص من سلانيك واهلها وكل آت قريب! » قال ذلك بلحن التهديد ونهض فنهض السرخفية واستأذن بالانصراف

فلما خلا السلطان بنفسه مشى الى غرفة النجارة واخذ يتلاهى بصنع برواز من الابنوس كان قد بدأ بنقشه منذ ايام وافكاره تائهة في ما سيكون من امر رامز متى جاء وكيف يحتال في كشف سر الجمعية فطرأ على ذهنه راي فمشى الى موقف التلفون وخاطب الباشكاتب فاجابه . فسأله اذا كان قد ارسل التلغراف الى ناظم بك

فقال « نعم ارسلته »

قال « ماذا قلت له ؟ »

قال « قلت له ان يرسل المقبوض عليه واوراقه حالاً »

قال « متى جاء هذا الخائن ارسله الى السرخفية. فهمت ؟ »

قال « حاضر ياسيدي »

واقفل السلطان الحديث وعاد الى غرفة النجارة . وبعد هنيهة خطر له راي جديد فعاد الى التلفون وخاطب الباشكاتب ثانية قائلاً « اذا جاء الخائن ارسله الى عزت وارسل اوراقه اليَّ »

فاجاب « حاضر ياسيدي »

وعاد السلطان الى عمله وقد غلب عليه التردد في هذا الامر لشدة القلق ولاح له ان يكون هو اول من يرى رامزاً فعاد الى التلفون ثالثة وقال للباشكاتب « ارى الافضل ان ترسل الرجل واوراقه اليَّ »

فقال « حاضر يا سيدي سافعل » ولم يستغرب الباشكاتب هذا التردد فقد تعوده اما السلطان فبعد ان رجع الى عمله عاد الى التفكير في الامر فراى ان استقدام الرجل اليه راساً لا يخلو من الخفة فعاد الى التلفون وامر الباشكاتب اذا جاء المقبوض عليه ان يبقيه عنده ويظهر الاستخفاف به وانما يرسل اوراقه الى السلطان فاجاب مطيعاً

قضى عبد الحميد بقية ذلك اليوم كانه على الجمر من شدة قلقه في انتظار رامز واوراقه

وفي صباح اليوم التالي لم يعلم عبد الحميد كيف يستحم ويبدل ثيابه ولا كيف يتناول الفطور من قلق الانتظار وهو ينتقل من غرفة الى غرفة وقد نسي القادين ج ونادر آغا وما كان من امرهما

وهو واقف امام خزانة الاسلحة يتأمل ما فيها من المسدسات والخناجر سمع صرير الباب فمشى نحو قاعة الاستقبال وهو يتجلد ويخفي لهفته فراى الحاجب داخلاً ومعه محفظة كبيرة مختومة علم السلطان حالاً انها محفظة رامز فاشار اليه ان يضعها على المنضدة ويستدعي السرخفية ولم يكد يقعد حتى كان السرخفية امامه فاومأ اليه ان يقعد واخذ في فض المحفظة واخراج ما فيها من الاوراق والظروف وبينها خطابات ومراسلات بالتركية والفرنساوية وبعضها بالارقام السرية ( الشيفرا )

قضيا ساعة وهما صامتان وقد استغرقا في القراءة ثم قطع السلطان ذلك السكوت . بنحنحة ومد يده وفيها ورقة وقال « اقرا هذه جيداً »

فقرأها واعاد قراءتها ثم قال « يظهر ان الملاعين ساعون سعياً شيطانياً . . انهم عاملون على بث تلك الروح الخبيثة في انحاء مكدونية يجمعون بين عناصرها ومذاهبها . . »

فضحك السلطان ضحكة اغتصابية وقال « انهم يطلبون عبثاً . . يريدون ان يجمعوا النصارى والمسلمين ليتحدوا عليَّ ! خاب فألهم ان ذلك مستحيل عليهم . . يريدون ان يجمعوا بين البلغاري والسربي والمكدوني والتركي والعربي ؟ كيف يجمعونهم وقد فرقنا بينهم تفريقاً ومزقنا جامعتهم تمزيقاً »

---

# الفصل السابع والثلاثون

## جمع العناصر

وكان السرخفية في اثناء ذلك يقلب الاوراق فوقع نظره على عريضة كبيرة باللغة الفرنساوية وهو يفهمها فاخذ يقراها والسلطان ينظر اليه فراى وجهه يتغير فبادره قائلاً « ماذا تقرا ؟ »

قال « هذه يا سيدي صورة لائحة مقدمة من تلك الجمعية الشيطانية الى وكلاء الدول . . »

فبغت السلطان وقال « الى وكلاء الدول ؟ بلغت قحتهم الى هذا الحد ؟ ما شأن الدول في هذا الامر .. لا يجوز للدول ان تتعرض لاوامري في مملكتي . وهب انها تستطيع ذلك فانها لا تفعل وقد اسكتها ولا اظنها تعبأ باقوال اولئك الاغرار المتشردين . . ماذا يقولون لهم في هذه اللائحة ؟ »

قال « انهم يقولون كثيراً ولكن ما الفائدة والدول لا تعبأ باقوالهم بعد ان رأت فشلهم مراراً وهذه جرائد فرنسا قد دافعت عن الذات الشاهانية وبينت للملا ان الذين يسمون انفسهم احراراً قوم خوارج يباعون بدريهمات قليلة »

فجعل السرخفية يترجم له بعض الفقرات الهامة من ذلك قولهم يخاطبون الدول: « ان المرض المستولي على بلاد العرب اوطرابلس الغرب هوعين المرض المستولي على ماكدونيا . فكل الاقوام المؤلفة من الترك والعرب والالبانيين والجركس والكرد والارمن والفلاخ واليهود والصرب والروم والبلغار ممن يشملهم الاسم العثماني يكابدون تلك المشاق ويئنون تحت تلك المظالم بعينها . وفرق المذهب والملة لا يهون اضطراب احد ولا يخفف اعباءه . فليس بماكدونيا ولا باخرى من الولايات العثمانية نوعان من الناس احدهما ممتاز والاخر مظلوم . كلنا بلا استثناء مشتركون في الظلامة كلنا رازح تحت استبداد واحد . »(١)

وكان السر خفية يقرأ والسلطان مطرق يتلاهى بالتدخين وعروقه تنتفض من الغيظ . فلما اتى السر خفية على آخر الفقرة اظهر السلطان الاستخفاف وقال « انهم سلكوا الآن مسلكاً جديداً ولكنهم لا يفلحون . . كلهم رازحون تحت استبداد واحد ! ولكنهم سيبقون تحت تلك الاثقال الى ما شاء الله . . هكذا يفعل ابناء الدولة الصادقين ؟ تباً لهم ... ولكن الدواء عندي ... ماذا ترى ؟ »

فقال « اني ارى ما يراه امير المؤمنين وقد تفضل به الساعة .. ان الجمع بين هذه العناصر مستحيل . . كيف يجمعون بين الكردي والجركسي والالباني واليهودي والفلاخي و و . . . هذا مستحيل وقد امتلأت قلوب كل عنصر حقداً على العناصر الاخرى و . »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « تبا لهم كيف يجمعون هذه العناصر بل كيف يجمعون بين المسلم والمسيحي واليهودي والمسلمون طوع ارادتي انا خليفة النبي (صلعم) لايفعلون غير ما اريده .. ليس في مملكتي فقط بل في سائر انحاء العالم .. كانهم يحسبون

(١) خواطر نيازي ٥٥

المسلمين قد مرقوا من دينهم كما فعلوا هم .. » وضحك وعاد الى التدخين وتناول سيكاراً دفعه الى السرخفية . فتناوله وقبله ووضعه في جيبه وادرك من ذلك ان السلطان يستحث غيرته لينبه قريحته لاختراع حيلة لمقاومة تلك المساعي

فاطرق السر خفية لحظة ثم قال « رأي مولاي الباد شاه فوق كل راي ولكنني استأذنه بكلمة . . . »

قال « قل .. اني احب آراءك واعتقد محبتك فانت صديقي الوحيد لا اعول على سواك . ونحن شركاء في الامر لان ما يمس الدولة يمسك وما ينفعها ينفعك .. هل نترك اولئك الاغرار يغلبوننا بصياحهم وعندنا السلطة الدينية والسياسية وعندنا الاموال .. » قال ذلك بلحن التهديد

فسرّ السر خفية بذكر المال وقال « اني ارى ان يكون الجزاء من نفس العمل هم يحاربون الدولة بجمع العناصر ونحن نحاربهم بتفريقها . ولا وسيلة لذلك خير من الدين ... »

فقال السلطان وهو يحك ذقنه بسبابته « عفارم . . هكذا . هكذا »

فقال « هم يشتكون لاوربا انهم جميعاً مظلومون ويسعون في تفهيم الرعايا ان الوسيلة الوحيدة انما هي ان يجتمع المسلم والمسيحي ونحن نبين للمسلمين ان هذه المساعي انما يراد بها ضياع دينهم وادخالهم في زمرة الكفار »

فقطع السلطان كلامه بقوله « عفارم . . ان شعبي المؤمنين شديدو الغيرة على الاسلام . وازيد على ذلك ان السير على هذه الضلالات والاصغاء الى هذه الرجاسات يقود الى خروج نساء المسلمين حاسرات الوجوه كنساء الافرنج الكفار . . انا اعلم تمسك عامة المسلمين بالحجاب .. »

فاخذ السر خفية يحسن هذا الفكر اطراءً لذكاء السلطان ودهائه فقال « وفي الواقع ان ذلك الاتحاد اذا تم سيأول الى هذه النتيجة كما نرى الحال في اولئك الاغرار انفسهم فانهم يقلدون المسيحيين بكل حركاتهم . . يعاقرون الخمر ويجالسون النساء ويفعلون كل محرم .. لله درذلك العبد المخلص الذي صور مدحت ورجاله تلك الصورة فانه قد اصاب كبد الحقيقة ... »

فلما سمع السلطان اسم مدحت اقشعر بدنه ولكنه تجاهل وقال « هذه افضل السبل .. اكتب الى رجالك بهذا المعنى . . ولا حاجة بي ان اوصيك بان يبقى هذا الحديث مكتوماً عن كل انسان حتى الباشكاتب وعزت وغيرهم فاني اعول عليك فقط

.. انفق ما استطعت في هذا السبيل .. وغداً متى عرفنا اعضاء هذه الجمعية نجعل جزاءهم القتل ... » قال ذلك وتناول ورقة بجانبه وكتب عليها بيده امراً الى وزير المالية ان يدفع اليه عشرة آلاف ليرة عثمانية حالاً ودفع الورقة اليه وقال « وخوفاً من تأخير الدفع ساعطيك الآن دفعة مستعجلة » ومد يده الى جيبه واستخرج ورقة مالية بالف ليرة انكليزية سلمه اياها فتناولها وقبلها وجعلها في جيبه واشار اليه السلطان ان يجمع تلك الاوراق في المحفظة حتى يعيد نظره فيها مرة اخرى ثم قال « وصائب بك ينبغي ان نكافئه لا تنس ذلك »

فقال السرخفية « هو مغمور بنعم امير المؤمنين ولكنه بعث الي تلغرافاً يطلب رتبة الى احد المخلصين الذي ساعده في كشف ذلك السر »

فاجاب السلطان سريعاً « معلوم .. قل للباشكاتب يعرض اسمه فنكافئه على اخلاصه .. اننا لا نبخس المخلصين الامناء حقهم »

وهما في ذلك « دخل الحاجب وقال « ان الصدر الاعظم بالباب »

---

# الفصل الثامن والثلاثون

## الصدر الاعظم والمال

فاجفل السلطان لعلمه أن الصدر لا يأتيه رأساً الا لما يهم الدولة او الامة وعلاقتها مع الدول الاخرى . وهو مشغول عن الدولة بشؤونه كما رأيت لكنه لم يستطع رده واشار الى السرخفية ان ينصرف فانصرف

دخل الصدر الاعظم وحيا كالعادة فاشار اليه ان يجلس فجلس متأدباً ينتظر ان يفتح السلطان الخطاب اذ ليس من آداب الملوك ان يخاطبهم احد قبل ان يبدأوا هم بالكلام فتجلد السلطان كانه لم يكن في شيء مما كان فيه وقال « كيف الاحوال ؟ »

قال « ان الاحوال حسنة لكنها تحتاج الى نظرة من مولاي البادشاه »

ففهم ان الصدر لا يقول ذلك الا لامر هام فقال « ما وراؤك ؟ »

فاستخرج الصدر ورقة من يده ودفعها الى السلطان وقال « هذه خلاصة ماجاءنا اليوم .. ان الدول الاجنبية تستخف بنا .. »

فتناول السلطـان الورقة فقراها واعادها الى المنضدة وقال « اراك قد علقت على هذا الخبر اهمية كبرى »

قال « كيف ياسيدي وهذا قيصر روسيا وملك انكلترا قد اجتمعا في « روال » وقررا مايأول الى ذهاب تركيا اوربا من ايدينا . »

فهز راسه واغتصب ابتسامة وقال « كثيراً ماقرروا مثل هذه القرارات وقد عرقلت مساعيهم »

فامتعض الصدر من تعبير السلطان في هذا الموقف بصيغة المفرد كانه هو الفاعل لكل شيء ولم يهمه هذا بقدر ماهمه استخفافه بالامر فقال « لاشك ان حكمة امير المؤمنين تغلب على كيد الكائدين ولكن ذلك يفتقر الى المال والخزينة تشكو الفراغ »

فلما سمع قوله اظهر الاستغراب وقال « ياللعجب . وانا انما عهدت اليك الصدارة لتتلافى ماوقع فيه اسلافك . . ان مملكتي الواسعة كثيرة الايراد اين تذهب الاموال؟ »

ولو اراد السلطان ان يفهم مصير الاموال لعلم انها تذهب بسبب دخول رجاله في كل فروع الحكومة فيسلط عليها جماعة من خاصته يستولون على الايراد او يضيعونه بسوءادارتهم ولا تستطيع الصدارة ان تعارضهم الاويقع الغضب عليها ولم يجسر الصدر ان يقول ذلك صريحاً فقال « ان مملكة جلالة السلطان واسعة زادها الله سعة ولكن الايراد يذهب من سوء الادارة و.. »

فقطع السلطان كلامه بصوت عال قائلاً « وانت المسؤول عن ذلك . جانم ! »

فعلم ان الكلام لم تبق منه فائدة فعاد الى مسألة روال فقال « ولكن مسألة روال ... الا يرى سيدي الاهتمام بشانها ؟ »

فقال السلطان « جانم . . ما هذه روال . دعنا منها الان. ولابد من تدبير النقود فاني في حاجة اليها لمساعدتكم في ادارة هذه الحكومة . ولولاسهري وتعبي لذهبت دولتنا هباءً منثوراً — تقعون في الخطأ فاضطر انا الى اصلاحه وهذا يقتضي له الاموال . »

وحملق بعينه وتشاغل بنفض رماد السيكار في المنفضة وسكت

فتهيب الصدر وهو يعلم ان غضب السلطـان لايرد ولكنه لم ير بدًّا من الرجوع الى الموضوع فقال « ان مسالة روال لولا احوال اخرى لم يكن لها اهمية . . »

قال « اراك عدت الى الشكوى من قلة المال ! »

قال « يا سيدي اني لا اطلب المال لغير الجند . . ان معولنا على الجنود وهؤلاء ينبغي ان يستولوا على مرتباتهم و . . . »

فلم يتمالك السلطان عن النهوض من الغضب وقال « الجنود ! قد انفقت مالي وراحتي في سبيل ارضائهم وهم يتذمرون ايضاً ؟ . اعطوهم رواتبهم — من اين آتي بالمال ؟ ان ايرادات الحكومة في ايديكم . انا لم استول على راتبي منذ اشهر فاذا احتجت الى المال ـ ولا احتاج اليه الا في سبيل مصلحة الدولة ـ لا اجد منه شيئاً . وانا ساكت ‥ وفي هذه الساعة حولت على الخزينة بمبلغ زهيد في هذا السبيل ادفعوه لحامل امري حالاً » وراى السلطان انه بالغ في التعنيف بغير حق نخفض صوته واظهر التطلف وقال « ومع ذلك لا بد من اتخاذ التدابير اللازمة لزيادة الايراد وانا اكلفك ان تضع لائحة في هذا الشأن ‥ لاينبغي لنا ان نجعل سبيلاً للاجانب ان ينتقدوا اعمالنا »

وكان الصدر مخلصاً في خدمة الدولة لكنه لم يؤت من الجراة مايكفي للتصريح بفكره ولو اوتيها لم تأت بفائدة . ولما راى غضب السلطان نهض حتى اذا فرغ السلطان من كلامه اشار مطيعاً وانصرف وهو يقول في سره « لايرجى اصلاح هذه الدولة وهذا الرجل سلطانها »

ومشى عبد الحميد بعد انصراف الصدر وقد خلا بنفسه وهو يتمتم قائلاً « تطلبون المال مني ؟ واذا اعطيتكم ماعندي كيف ادافع عن حياتي ؟ . كلكم تحتفظون بالمال لانفسكم الا يحق لي ان افعل مثلكم ؟ »

وظل ماشياً وهو يستطرق من غرفة الى اخرى ويتلفت كانه يحاذر ان يتبعه احد حتى اتى غرفة صغيرة مهملة لايدخلها احد وضغط على زر وراء بابها فانفتح في الحائط المقابل باب دخل منه في دهليز الى حجرة فيها خزانة من الحديد اخرج من جيبه مفتاحاً فتحها به واذا هناك بدر من المال على اختلاف اشكاله من الذهب والجوهر والورق

ولما وقع بصره عليها اشرق وجهه وانبسطت اسرته وجعل يقلب ما هنالك من الاوراق المالية وهي كثيرة ويقول « اتريدون ان اعطيكم هذه الاموال وهي عدتي التي احاربكم بها ؟ ولولاها لم تأتوا اليّ صاغرين ‥‥ اعطيكم اياها ؟ وبماذا اغريكم بعضكم على بعض وارمي الشقاق بينكم حتى لا تجتمعوا علي ؟ لولا هذا المال لكنتم انتم اصحاب السلطة ‥ انتم تخادعونني طمعاً بالمال وانا اخادعكم ولا اعطيكم اياه ‥ هو سلاحي وبه حياتي »

قال ذلك وعاد فاقفل الخزانة واغلق باب الحجرة وهو يقول « ليس هذا كل مالي ‥ هل جننت لاضع كل ثروتي في مكان واحد وانا محاط باللصوص والجواسيس ؟ »

ومشى حتى اتى غرفة النجارة ففتح درجاً في مكان لا يخطر لاحد وجود المال فيه واستخرج منه ظرفاً فيه مئات من الاوراق المالية ربما زادت قيمتها على نصف مليون جنيه وجعل يقلبها ويقول « هذا من مالي ومثله كثير في هذه الخبايا »

# الفصل التاسع والثلاثون

## الفتك

ثم عاد الى قاعة الاستقبال ورجع الى مطالعة اوراق رامز فرأى بينها كتباً من شيرين فيها مداعبة ومشاكاة . وهو يقرأها طرق ذهنه فجأة صورة القادين ج فاجفل وتحولت هواجسه الى دار الحريم فاراد ان يشغل نفسه بقطعة من جريدة فرنساوية فيها مقالة لرامز اخذ يطالعها ويتفهم فحواها لانه ضعيف بالفرنساوية فلم تذهب صورة القادين من امامه فرمى تلك الجريدة على المنضدة واسترخى في مجلسه على المقعد وتنهد تنهداً طويلاً ثم قال لنفسه « ماذا جرى بتلك المراة ؟ هل تحقق حملها ؟ . ويلاه بماذا ينبغي ان اشتغل؟ بالخوارج المارقين ام بالنساء في دار الحريم ام بمراقبة حركات رجالي الذين يزعمون انهم انصاري ام بمطاليب الوزراء ام بمطالعة التقارير من الجواسيس او بالتقارير على الجواسيس ؟ انه لعمل شاق ! »

ثم مد يده الى صندوق السيكار وتناول سيكاراً واشعله وهو ينظر من خلال الدخان الى الساعة الموضوعة على الرف امامه فاذا هي الساعة الخامسة ( عربي ) فنفخ نفخة تطاير دخانها في جو تلك القاعة ثم نهض وهو يتشدد ويقول « ولكن هذا العمل لا يصعب على همة السلطان عبد الحميد ! لم ير عرش آل عثمان سلطاناً عاملاً مثلي . . اني قابض على مملكتي ودولتي وقصري بيد من حديد » وصفق فجاء الحاجب فصاح به « نادر آغا » يعني ان ينادي نادر آغا

قال ذلك ومشى في الدهليز بين خزائن التقارير السرية نحو دار الحريم وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة . واذا بنادر آغا قادم عليه من الباب السري المؤدي من دار الحريم الى المابين فحيا ووقف . ولو كان ابيض اللون لظهرت دلائل البغتة في امتقاع لونه ولكنها ظهرت في عينيه رغم ما كان يحاوله من التستر . وادرك عبد الحميد ذلك فقال وهو يتحول الى حجرة النجارة ليلهو بالحفر « ماذا جرى ؟ هل ارسلتموها ؟ » يريد هل قتلتم تلك المراة

فاجاب نادر آغا « خير افندم »

فحملق السلطان فيه وقال « ولماذا ؟ »

قال « لم نتحقق بعد اذا كانت حاملاً »

فبادره عبد الحميد بقوله « واذا لم تتأكدوا ؟ ان الشك وحده كاف لتنفيذ اوامري .. ولولا ما تعلم من منزلتك عندي لكنت ٠٠ » وسكت والتهديد ظاهر في لحنه

فقال نادر آغا « هل في الدنيا اسبق من هذا العبد الى تنفيذ اوامر الذات الشاهانية المقدسة ؟ ولكنني كنت احسب امير المؤمنين اذا تأكد عدم الحمل يفضل بقاءها »

فأسرع في الجواب قائلاً « لا »

فقال « لا ينبغي ان اكتم شيئاً عن سيدي وولي نعمتي ٠٠ »

قال « قل »

قال « ان الحاضنة المكلفة بمثل هذه المهام لا اثق انها تفعل ذلك بامانة وربما كنت مخطئاً في ظني ٠٠ »

فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً « فهمت مرادك صدقت ٠٠ لان تلك الحاضنة تعرف لتلك القادين جميلاً اسدته اليها بتوسطها لها عندي ٠٠ ولكن لابد من التنفيذ »

فأطرق ذلك الخصي هنيهة وهو ينظر الى حركة يد عبد الحميد في الحفر على الابنوس كأنه من امهر النجارين ثم قال « اعرف طبيباً يتزلف الى المابين منذ برهة ويتوسل في طلب منصب وهو لا يعرف تلك المرأة فلا يشفق ولا يرحم . وهو ايضاً جائع يطلب رزقاً واذا علم ان جلالة السلطان يكافئه على تنفيذ امره بان يجعله من اطباء القصر الملوكي فعل ما نريد »

فضحك عبد الحميد وقال « تعجبني اراؤك يا ابيض الخصال ــ ان ترقية الصغار اقرب الى الاستفادة من اماناتهم لانهم حريصون على استبقاء النعمة التي نالوها بصدق خدمتهم لنا ــ ولكن هل يستطيع ذلك ؟ »

فقال نادر « مالنا وله انا اخاطبه واجعل ذلك العمل شرطاً لتقدمه وليتدبر الامر كما يشاء .. واذا لم يحسن الاسلوب عددنا ذلك ذنباً حاسبناه عليه »

فتبسم عبد الحميد واشار الى نادر بالانصراف ومكث وهو يفكر في رامز ويود ان يراه لعله يستطلع اسرار الجمعية منه ولكنه راى من الحكمة ان يصبر نفسه

# الفصل الاربعون

## رامز عند الباشكاتب

اما رامز فانهم حملوه مع اوراقه من سلانيك فوصل الاستانة في ذلك الصباح فدفعوه الى الباشكاتب فارسل اوراقه الى عبد الحميد كما علمت واستبقاه عنده في حجرة خاصة ليس فيها احد . فجلس رامز على مقعد هناك ولم يهمه ما يهدده من الخطر على حياته اكثر من اهتمامه بشيرين وكيف يكون حالها بعده وهو يعلم ان اباها لا شفقة في قلبه عليها وان صائباً ربما طمع فيها ووافقه ابوها على تزويجه بها . فلما تصور ذلك هب جسمه واقشعر بدنه واحس بثقل ذلك الاسر

وبعد قليل جاءه الباشكاتب بنفسه فحياه وتلطف في خطابه وسأله عن سبب القبض عليه سؤال من لا يهمه الامر وانما يسأل على سبيل حب الاطلاع

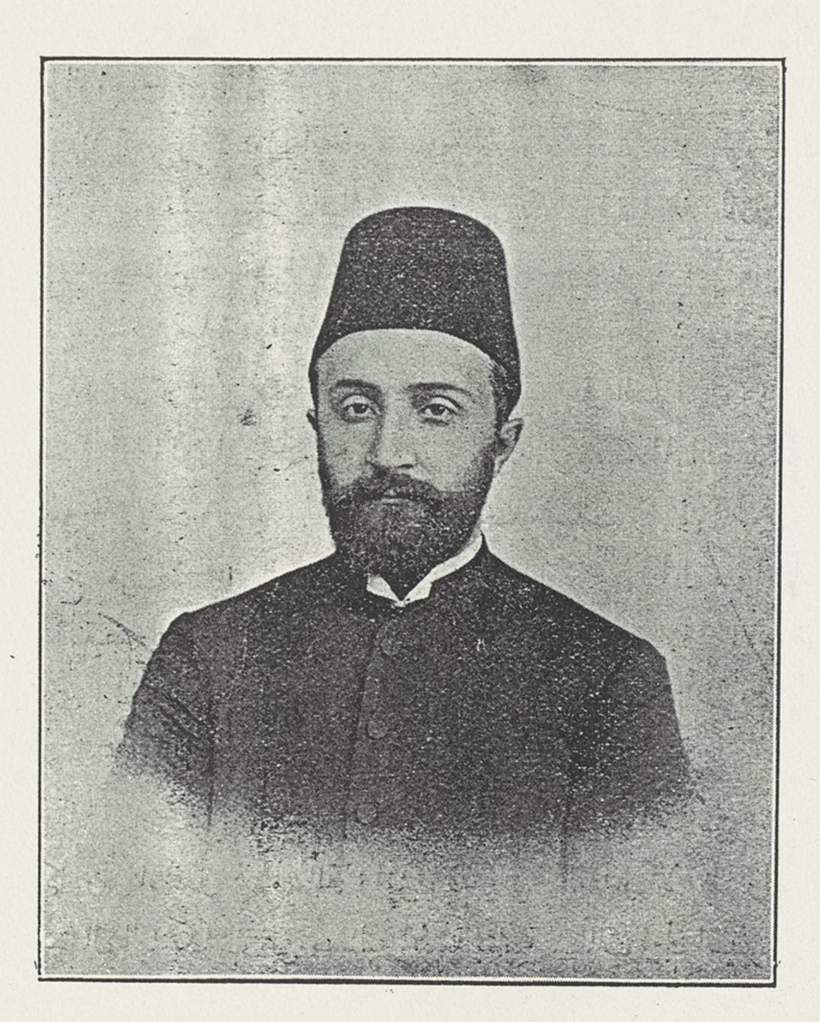
فقال رامز « لا اعلم السبب »

قال « لعلك متهم باشتراكك في احدى الجمعيات السرية »

قال « نعم .. وليست هي تهمة »

قال وهو يظهر الاستغراب « اذا كنت تعترف باشتراكك في تلك الجمعية فانك تعرض نفسك لخطر شديد لان جلالة السلطان يشدد في منع تلك الاجتماعات الضارة . . وما كان اغناك عن الاعتراف بذلك .. اقول هذا شفقة عليك اذ يظهر لي انك من ابناء النعم واهل الذكاء ولكنك قليل الاختبار فربما اغراك بعض المتهوسين الذين يسمون انفسهم الاتراك الاحرار فادخلك في الجمعية التي سموها جمعية الاتحاد والترقي . اظنك لو عرفت تاريخ هذه الجمعية لعدلت عنها .. ان بعض المحرومين من الوظائف اتخذوها وسيلة للارتزاق بالتهديد ( Chantage ) وكان امير المؤمنين يقطع السنة الصائحين احياناً بالوظائف . وا كثرهم كانوا يبيعون اصواتهم بدريهمات قليلة فتكاثر ادعياء الحرية — ولا اظنك من الادعياء فيها بل انت حر الضمير تقول ما تعتقد . ولكنهم خدعوك حتى وقعت تحت الخطر وهم مستريحون . ولو وقع احدهم مكانك لتخلص واوقعك مكانه .. هه هه . وقد فعلوا ذلك مراراً .. مالنا ولهم اظنك لم تتناول الفطور بعد » ومد يده الى جيبه استخرج علبة السكاير ودفع اليه سيكارة وخرج وتركه يفكر في ما سمعه لعله يبيح بسر الجمعية ليتخلص من الخطر

وبعد قليل جاءه بعض الحجاب يدعوه الى الطعام فنهض واكل بعض الشيء وهو لا يفتح فاه للكلام لاستغراقه في هواجسه ولم تبرح شيرين من فكره — وبعد الطعام اتوه بالجرائد المطالعة فاخذ يقرا وهو لا يفهم ما يقرأه حتى اذا آن الغداء تناوله وقد ملّ الانتظار واصبح شديد الرغبة في معرفة ما يكون من امره في ذلك القصر الذي لا يدخله غريب الا تهيب من كثرة ما يجول في اكنافه من رجال العسكرية وكلهم من اهل الرتب العالية وخصوصاً الياوران ولهم دائرة خاصة يقال لها دائرة الياوران وفيهم فحول القواد وقروم الابطال وهم ثلاث طبقات ياور وياور اكرم وياور فخري والياور الاكرم فوق سائر المراتب قدراً — فكان يقع بصره على بعضهم ماراً اوداخلا على الباشكاتب وعليه علامات الشرف والابهة ويكاد رأسه يناطح السحاب



تحسين باشا الباشكاتب في ابان نفوذه

وناهيك بدائرة الباشكاتب نفسها فانها تحتوي على الباشكاتب وعشرين كاتباً من

ذوي الرتبة الثانية الى رتبة بالا وهم من الشبان الناشئين على الاخلاق الجديدة وكلهم عيون على الباشكاتب وهو عين عليهم . وقد باعد الشقاق بينهم فتراهم جميعاً وقلوبهم شتى . وكان الباشكاتب الواسطة العظمى بين السلطان والحكومة اي يبلغ ارادته واوامره الى الصدر الاعظم او شيخ الاسلام . واشهر اولئك الباشكتاب واقربهم عهداً منا تحسين باشا

وعلى الباشكتب ترد الاوراق الرسمية من الباب العالي ومن المشيخة الاسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه الى الباب العالي وجميع الجهات . وهو يبعث بملخصاتها لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الارادات بتبليغ المابينجية او من يأمره السلطان بالتبليغ من الذين في الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالارادات السنية بامضائه في اوراق صغيرة الى الصدر الاعظم او الى من تخصهم من الوكلاء والوزراء

وحين يستلم الصدر الاعظم او غيره تلك الارادات يكتب على الورقة المرسل بها ساعة الاستلام والدقيقة . ولدى الباشكاتب دفتر يكتب فيه المبلغ للارادة وصورتها ودقيقة صدورها ويمضي مايكتبه بامضائه . وهذه عادة جديدة لم تكن من قبل احدثها ارتكاب بعض المبلغين تبليغ ارادات لا اصل لها

وكان الباشكاتب ركناً عظيماً من اركان الجواسيس في السراي وهو يعرض فوق وظيفته الرسمية العليا اوراق الخفيات التي ترد عليه منهم . ولها النصيب الاوفر من عنايته واهتمامه فلا تلبث في يده الا ريثما يتناولها فيبعث بها الى الحجرة الشاهانية فتذهب اسرع من منحدر السيل فيتلقى عنها الارادة في الحال سواء كانت ارادة استنطاق او استيضاح او التفات او احسان على من قدمها . بخلاف الاوراق الرسمية او اوراق ذوي الحاجات فان لها طريقاً في العرض لا يتغير وربما تأخرت شهوراً أو جاء عليها تيار الاوراق الاخرى ولا ينفع البحث عنها

على ان السلطان كثيراً ما كان يدعو السر خفية اليه رأساً متى شاء للنظر في شأن يهمه كما رأيناه فعل في مسألة رامز وقد يأتيه الصدر الاعظم رأساً لامر هام خوفاً من اشتغال الباشكاتب عن مطالبه الهامة بتلبية مطالب الجواسيس

# الفصل الحادي والاربعون

## قصر مالطة

ظل رامز هناك الى المساء فجاءه الباشكاتب وسأله اذا كان في حاجة الى شيء وقال له « انما اتيتك بنفسي لكي تستأنس بي لاني اشفقت عليك فهل رايت ان تسمع نصيحتي قبل ان اسلمك الى المحققين »

قال وهو رابط الجأش « لم افهم مرادك »

قال « نصحت لك ان ترجع الى رشدك وتعدل عن الغرور وانا اضمن لك السعادة . المطلوب ان تخبرنا عن اسماء الاشخاص الذين اغروك على الدخول في هذه الجمعية . ان الاطلاع على خبرهم لا بد منه لان الذين سيأتون الينا منهم كثيرون على جاري العادة دائماً ولكنني احببت ان يكون ذلك على يدك لتنال الجزاء الحسن »

فهز رامز راسه هز الانكار وقال « ان مثلي لا يخاطب بمثل ذلك يا حضرة الباشكاتب » وسكت

فاظهر الباشكاتب الامتعاض من جفاء عبارته وتحول عنه وهو يقول « لقد اخطأ ظني بك فوضعت املي في غير موضعه . لا بأس »

وبعد قليل دخل على رامز ضابط اومأ اليه ان يتبعه فنهض وخرج معه فوجد بضعة رجال من الجند ببنادقهم ينتظرونه خارجاً . فأشار اليه الضابط ان يتبعه فمشى في اثره في طريق واسع يؤدي الى حديقة يلدز الخارجية ولم يكن دخل يلدز من قبل . فراى السور الضخم الفاصل بين الحديقتين كانه سور مدينة حصينة وسار به الجند بجانب ذلك السور حتى عرجوا في بعض الطرق بين الاشجار الغضة الى قصر في بابه الحراس باسلحتهم . فاشار الضابط اليه ان يدخل فدخل ودخل احد الحراس معه في دهليز القصر ثم اصعده في سلم مغطى بالسجاد الى الطبقة العليا ومشى امامه حتى اوصله الى غرفة وقال له « تفضل يا سيدي امكث هنا »

فقال رامز « ما هو هذا المكان ؟ اين انا ؟ »

قال « لا تخف . انك ضيفنا وهذا القصر قصر مالطة »

فلما سمع رامز ذلك الاسم اجفل وتهيب اذ تذكر ان مدحت باشا ابا الاحرار

حبس فيه حيناً في اثناء محاكمته التي حكم عليه بعدها بالنفي الى الطائف حيث لاقى حتفه

فجمد في مكانه من شدة التأثر والحارس لا يزال واقفاً بالبندقية . ثم انتبه رامز لنفسه فتجلد وقعد على مقعد هناك وكانت الشمس قد آذنت بالزوال واقبلت طلائع الظلام فاسرع بعض الفراشين الى انارة القصر ولاسيما تلك الغرفة وهي مفروشة بالبسط الثمينة وفيها مقاعد وكراس ومنضدة . وانس رامز في الخادم لطفاً فقال له « أليس في هذا القصر احد سواي ؟ »

فابتسم الحارس واجاب « لا اعلم ياسيدي »

فاقشعر بدنه من ذلك الجواب لانه توقع ان يكون تحته اسرار مخفية وهو يسمع بيلدز وفظائعها لكنه تجلد وقال « ايطلب مني ان ابقى في هذه الغرفة ؟ »

فاشار اليه ان يتبعه حتى دخل من باب فيها الى غرفة اخرى فيها سرير مفروش وقال « هذا هو الفراش الذي ستنام عليه دولتكم » خاطبه بهذا النعت لان هذا القصر لا يسجن فيه الا كبار رجال الدولة

جلس رامز على المقعد وقد اسودت الدنيا في عينيه واستغرق في مخاوفه واخذ يردد في ذهنه ما مر به في ذينك اليومين من الاهوال وتحقق انه مقتول فجاشت في صدره عاطفة الاشفاق على شيرين وما يكون من امرها اذا بلغها قتله . وتذكر محاسنة الباشكاتب له وما وعده به من الحسنى اذا باح بخبر الجمعية . وتذكر اناساً فعلوا ذلك ونالوا المكافأة بالاموال والرتب فحدثته نفسه لحظة ان يستبقي حياته اكراماً لشيرين ثم غلبت عليه الانفة وعزة النفس فصمم على الثبات وهو يعلم أن شيرين لا ترضى بالخيانة منه

قضى هنيهة جالساً مطرقاً ثم سمع وقع اقدام واذا بالخادم يدعوه الى العشاء ولم تكن نفسه تشتاق الى الطعام لكنه لم يشأ ان يظهر الضعف فمشى الى مائدة كبيرة جلس اليها وحده لتناول الطعام وهو يفكر في حاله ثم نهض الى نافذة تؤدي الى شرفة تطل على حدائق يلدز وقد خيم عليها الظلام . ولكنه رأى بعض الانوار عن بعد في بعض قصور يلدز وما بعدها . وجلس على كرسي وقد احس بالوحدة وغلبت عليه الوحشة وهو لا يعلم مصيره . هل يقتل في تلك الليلة ام يسأل عن اسرار الجمعية وماذا يقول اذا سئل

# الفصل الثاني والاربعون

## طارق ملثم

ثم شعر رامز ببرد خفيف ففضل الدخول الى غرفة الجلوس فدخل وما استقرّ به المقام حتى سمع حركة ووقع اقدام فاصغى وما عتم ان رأى رجلاً دخل عليه وقد التفّ ببرنس يغطي اثوابه وتلثم حتى لايبدو من وجهه شيء غير عينيه . واقبل عليه حتى تناول كرسياً وجاس امامه . فاقشعر بدن رامز وصبر ليرى ما يبدو منه

فبادره الملثم بالسلام وسماه باسمه فاجفل ولكنه رد التحية فقال الرجل « قد اتيتك بنصيحة ارجو ان تقبلها »

فهزّ رامز راسه هزة الاستفهام كانه يسأله « ما هي ؟ »

قال « انت شاب في مقتبل العمر فلا تلق بنفسك الى التهلكة »

فاستغرب هذه النصيحة من رجل لم يسمع صوته من قبل فقال « واي تهلكة »

قال « انا اعرفك واعرف احوالك اذا لم تشفق على نفسك فاشفق على شيرين »

فلما سمع اسم خطيبته ارتعدت فرائصه وتولته الدهشة وجعل يتفرس في عيني الرجل وفي قيافته فلم يذكر شيئاً عنه وارتج عليه فقال الرجل « لاتستغرب اطلاعي على حقيقة حالك ليس في هذه القصور احد يعرف ذلك سواي وقد علمت ماكان من عنادك اليوم عند الباشكاتب وعلمت ان ذاك يذهب بحياتك وحياة خطيبتك فلا تستسلم للجهل فان ذلك ثابت عليك . ولاسبيل للنجاة من القتل بغيرالاقرار — يطلب منك فقط ان تذكر اسماء الشبان الذين اغروك على الدخول في تلك الجمعية فتنال العفو مع المكافأة وتكسب حياتك وحياة شيرين »

فقال « وما دخل تلك الفتاة في هذا الامر ؟ »

قال « انها شريكتك في الجريمة وهي التي كانت تشجعك على تلك المقالات ضد الذات الشاهانية »

فتجلد رامز واظهر الاستخفاف وقال « لا دخل لها في شيء من ذلك ... من انت ؟ »

قال « لا يهمك من انا ولكن معرفة صدق ما اقوله تدلك على اخلاصي في نصحك واذا كنت لا تصدق فاني اطلعك على خطها بيدها تشاركك في النقمة على

جلالة السلطان »

وكان رامز يعلم ان بين اوراقه كثيراً من مكاتيب شيرين الا انها لم تكن تذكر اسمها صريحاً فاستغرب اطلاع ذلك الرجل على اسمها وانها خطيبته فرأى الانكار اولى فقال « لا شريك لي في هذه التهمة . . دع الكلام عن النساء واما انا فمتى سئلت عن الجمعية فاجيب بما اراه »

قال « لافائدة من الانكار وانا لا اطلب الجواب منك الآن ولكنني نصحت لك حتى اذا سئلت لا يأخذك الغرور وتقتل نفسك واعز الناس عندك . . هذه نصيحتي لك وغداً لناظره قريب » قال ذلك ووقف وتحول من تلك الغرفة وترك رامزاً يتقلب على مقالي الجمر من الدهشة والاستغراب

ظل رامز وحده وقد احاطت به الهواجس والمخاوف وهو يتصور انه في حلم ويسأل نفسه من هو الطارق وكيف عرف شيرين وما الذي حمله على النصيحة . قضى في ذلك مدة وهو مطرق ولم يهتد الى حل وقد غلب عليه التعب لفرط ما قاساه من القلق والاضطراب في ذينك اليومين فذهب الى فراشه يطاب الرقاد

وقضى اليوم التالي منفرداً وهو في كل ساعة ينتظر ان يأتيه من يستنطقه ويستطلع خبر الجمعية منه وهو يهيء الاجوبة ويستعد للثبات على رايه والمحافظة على العهود التي اقسم على صيانتها . على ان سياسة المابين اقتضت التظاهر بعدم الاكتراث ولكنهم وسوسوا له على يد الباشكاتب وذلك المتستر ما يبعثه على الخوف ويحمله على الاقرار . ولعل القاريء ادرك ان ذلك الملثم انما هو السرخفية نفسه وقد اطلع على علاقة رامز بشيرين من مكاتيب خصوصية جاءته من صائب بك وعلم انه اذا استطاع كشف سر الجمعية نال جزاءً عظيماً

## الفصل الثالث والاربعون

### عزت

اما السلطان فانه صبر نفسه الى الغد وسأل عما جرى فلما علم ان الرجل لا يزال متكتماً راى ان يحتال في استنطاقه على يد عزت باشا لانه يعتقد فيه الذكاء المفرط والدهاء البالغ وقد غلبه عزت على امره فسلم اليه النظر في اهم شؤون السياسة واصبح معوله

الوحيد ومشيره الاول وهو الذي انقذه من عواقب مذبحة الارمن . وكان ذلك من اكبر اسباب تقريبه والوثوق به . فراى عبد الحميد ان يكافه استنطاق رامز وان كان ذلك خارجاً عن دائرة عمله ولم يشأ ان يطلب ذلك منه راساً فتذرع اليه في اثناء حديثه معه بشأن ملاقاة روال التي تقدم ذكرها . فبعث اليه فلما جاءه قال له « انت معتمدي في المهمات السياسية وقد جاءني الصدر بخبر ملاقاة روال فهل علمت بذلك »

فقال عزت « لا اكذب جلالة مولاي البادشاه ان هذا الخبر من الاهمية بمكان عظيم لكنني لا اتوقع تنفيذه لاختلاف الدول في المقاصد والاغراض وان كان ذلك لا يمنع سعينا في سبيل افساده »



عزت باشا العابد

قال « هل دبرت شيئاً بشأنه ؟ اني شديد الثقة بك »

قال « ان هذه الثقة التي لا استحقها تجعلني عبداً رقاً ابذل حياتي في مصلحة جلالة السلطان . . وانا مفكر في امر ساعرضه بعد قليل »

وكان السلطان جالساً على كرسيه في قاعة الاستقبال والمحفظة لا تزال امامه فلما سمع قول عزت تشاغل بازاحة المحفظة الى ما بين يديه وقال « انت تعلم يا عزت انك

موضع ثقتي بل انت صديقي الوحيد ولا انسى الخدم الجزيلة التي قمت بها دون سواك من رجالي وقليل فيهم الصادق المخلص . ومع كثرة الحائمين حولي قلّ من اعوّل عليه بل انا لا اعوّل على سواك ٠٠ اتعلم ماذا اطلب اليك ؟ »

قال « اني عبد مولاي طوع ارادته وافديه بروحي »

قال « بارك الله فيك — انت تعلم ما نقاسيه من صياح اولئك الغلمان الذين يسمون انفسهم الاحرار وكثيراً ما انبأتني بضعفهم وعجزهم عن غير الصياح وقد كفاني منير باشا سفيرنا في باريس مؤنة كثيرين منهم حتى اضمحل شأنهم وانحلت جمعيتهم . لكنني علمت بالامس انهم استانفوا النهوض على سبيل آخر غير الصياح فالفوا جمعية في سلانيك دخل فيها كثيرون من جنودي اغراهم اولئك الخوارج على الاشتراك معهم . جاءني خبرهم على ايدي الخفية لكنهم لم يعرفوا اصحاب هذا المسعى لانهم شديدو التكتم . غير ان ناظم بك قومندان مركز سلانيك تمكن بواسطة احد الخفية من القبض على واحد منهم وحمله الينا مع اوراقه وهي هنا في هذه المحفظة . وقد قرأتها وفهمت منها ان اولئك اللاعبين عاملون بدهاء وهمة ويهمني الان معرفة الاعضاء العاملين في هذه الجمعية .. وهذا لا يمكن الاطلاع عليه الا من هذا الرجل وهو الان مسجون في قصر مالطة . . ويظهر انه صعب المراس فلم ارد ان اكلف باستنطاقه سواك لما اعهده من ذكائك ـ وان كنت لم اكلفك بمثل هذا الامر من قبل ـ وهذا يدلك على مبلغ ثقتي بك »

وكان عزت يسمع كلام السلطان وهو مصغ والذكاء ينبعث من عينيه ويخترق أقصى ضمير السلطان فلما فرغ من كلامه قال « لم يكن امر هذه الجمعية غريباً عن عبدكم ولا انا ساكت عنها وان كنت لم اذكر شيئاً من امرها لمولاي البادشاه تجافياً عن التنويه بسهري على الدولة ومقاومة المارقين الاغرار ـ ان هذه النهضة لم يكن منشأها في سلانيك فقط لكنها ظهرت في الشام وكادت تشتعل نارها لولم ابادرها بما يلزم فقطعت دابرها من هناك .. »

فنظر عبد الحميد الى عزت نظر الرضى والارتياح وابتسم وعيناه تتلألآن بالدمع كانه دمع الانعطاف والاعجاب بحيث يتوهم من يراه كذلك انه مثال الاخلاص وصدق اللهجة . . وكثيراً خدع جلساءه هذا المنظر منه حتى عزت مع طول اختباره وبلائه وفرط دهائه كثيراً ما كانت هذه النظرات تؤثر فيه وهو يقابلها بالاخلاص وصدق الخدمة في مصلحة السلطان .. وهمّ عزت ان يتم حديثه فقطع عبد الحميد كلامه قائلاً

« بورك فيك من صديق مخلص . . قد علمت ذلك من السر خفية . . . وهذا عهدي باخلاصك . . فالآن صرت اتوقع ان تكشف لنا امر جمعية سلانيك من هذا السجين افعل . اه ؟ »

فاشار عزت مطيعاً وقال « اني فاعل بتوفيق الحضرة الشاهانيـة المقدسة التي افديها بنفسي واهلي »

فنهض السلطان وهو يقول « ان صدري ينشرح كلما رايتك واشعر اذا كلفتك بامرٍ انه مقضيٌّ »

فنهض عزت واستأذن بالانصراف ومضى الى قصره وخاطره مشتغل بامر رامز وكيف يحمله على الاقرار — واعمل فكرته في هذا السبيل وهو شديد الرغبة في انقاذ السلطان من تلك الجمعية الجديدة فينقذ نفسه ايضاً لانه واقع بما وقع به هو . على انه كان يسعى في هذا السبيل وهومقتنع انه يخدم الدولة به لاعتقاده ان الاحرار لايمكن ان يجتمعوا على امر كبير فيرى وجودهم عثرة في طريق الاحكام . اضف الى ذلك ما يخشاه من نجاحهم على حياته وهذا وحده كاف ليوهمه الخطأ في اعمالهم وانهم على ضلال . فهو مضطر بطبيعة الحال ان يبذل جهده في خدمة مصلحة السلطان بمقاومة الاحرار

قضى يومه وهو يفكر وبات تلك الليلة وبكر في الصباح فبعث الى رامز ان يأتي اليه معززاً مكرماً . وكان قصره في الطرف الآخر من يلدز فامر ان يحمل اليه رامز في مركبته

---

# الفصل الرابع والاربعون

## الاستنطاق

وكان رامز قد ملَّ الانتظار ليقف على مصير امره . واصبح في ذلك اليوم فلبس ثيابه وتناول الفطور وهو غارق في هواجسه واذا بوقع حوافر الخيل قرب القصر فاجفل ونهض الى شرفة تطل على الطريق فراى مركبة يجرُّها اثنان من جياد الخيل ثم سمع مشياً في الدهليز واذا بالخادم قد اتاه مسرعاً وهو يبتسم ويقول « افندم . . تفضل الى المركبة »

فقال « الى اين ؟ »

قال « ان مولانا عزت باشا يدعوك اليه وهذه مركبته بالباب »

فاستغرب تلك الدعوة ولكنه تجلد ونزل الى الباب فرأى جاويشاً واقفاً بانتظاره واومأ اليه ان يركب فركب وركب الجاويش بجانب السائق وسارت المركبة الى قصر عزت

وبعد بضع دقائق راى نفسه بباب ذلك القصر فاستقبله احد الحجاب بالاكرام ودعاه الى الصالون فدخل وهو يفكر في ما عساه ان يترتب على تلك الدعوة فدعاه الحاجب الى الجلوس وبعد هنيهة اقبل عزت وبيده جريدة يطالع فيها ويمشي الهوينا بدون اكتراث. فوقف له رامز ولم يكن يعرفه من قبل . فرآه كهلاً ربعة من الرجال يلوح الذكاء في ملامحه وكان يسمع بدهائه وتعقله فتهيب من منظره

دخل عزت الصالون وهو لا يرفع بصره من الجريدة كانه مستغرق في المطالعة ثم رفع بصره بغتة وحيا رامزاً واشار اليه ان يجلس وجلس امامه وبينهما منضدة وقال « انت ضيفنا يا رامز افندي ؟ »

قال « نعم يا سيدي ولي الشرف بذلك »

فمد يده الى جيبه واخرج علبة مرصعة استخرج منها سيكارة قدمها له وهو يقول « ربما تستغرب مجيئك الى عندي . . بعد ان كنت تتوقع ان تؤخذ الى السر خفية او غيره من الجواسيس . الا تعدُّ ذلك اكراماً خصوصياً ؟ »

فقال « قد علمت يا سيدي وعرفت هذا الفضل لكم »

قال « لا ينبغي لي ان اكتمك السبب الذي دعوتك من اجله الى هنا . اعلم اني قد استأذنت في مخاطبتك شخصيا من جلالة البادشاه لما بلغني من الخطر الذي يهددك وقد علمت انهم لم يحسنوا التفاهم معك في الامر المطلوب منك فاحببت ان آخذ هذا الامر على عاتقي وتعهدت ان امحضك النصيحة فهل انت عارف قدر ذلك . ؟ »

قال « نعم افندم »

فقال عزت وهو يعتدل في مجلسه « انا احب ان اباحثك وابين لك وجه الصواب وانت تختار الطريق الاصلح . . لا اهددك بالقتل ولا حاجة بي ان ابين لك الخطر المحدق بك فانت اعقل من ذلك . انما اسألك عن السبب الذي حملك على الدخول في تلك الجمعية الم تكن تعلم انها من الجمعيات الضارة ؟ »

قال « لم افهم مرادك بالضرر هنا »

قال « قد احسنت الاستفهام . . عفارم . . ان مرادي بالضرر هنا ان وجودها

مضرّ لمصلحة الدولة »

قال « كيف يكون ذلك وغرضها الاصلي انقاذ الدولة من الاضرار .. هل تأذن لي ان اخاطبك بحرية ؟ »

قال « اني في غاية السرور من حرية فكرك . . تفضل قل ما تريده »

قال « هل اقول بحرية »

قال « قل .. لاتخف .. انك تخاطب رجلاً عركه الدهر ولم يمر بذهنك اواذهان اقرانك خاطرٌ لم يخطر له . . وقد تبصرت في هذا الامر ملياً ولو وجدت فيه نفعاً لم ارجع عنه »

فاستبشر رامز بهذا التصريح وقال « هل سبق انك فكرت في الخلل المتمكن في جسم الدولة ؟ »

فاشار براسه وعينيه ان « معلوم »

فقال « فاذا كنت تعترف بوجود الخلل هل تجهل ان سببه سوء الادارة ؟ »

قال « لاانكر ذلك . . ان الحكومة تحتاج الى اصلاح . لاشك في ذلك »

قال « هذا هو الامر الذي نحن ساعون فيه »

فابتسم عزت وقال « هذا هووجه الخطأ . نحن متفقون في تشخيص الداء ولكننا مختلفون في وصف الدواء »

قال « اشكرك يا سيدي لاطلاق حرية الكلام لي . اني استغرب ان يكون هناك وجه للاختلاف في العلاج . اذا كانت احوال الدولة مختلة كما تقول فاختلالها من الحكومة الحاضرة وابدالها هو الدواء الوحيد »

قال « اظنك تعني ان تقلب الحكومة من الاستبداد الى الدستور »

فبادره قائلاً « معلوم وهل من طريق آخر »

قال « هذا كلام جميل ولكنه اشبه بالخيال الشعري منه بالراي السياسي .. هل تظن الامة العثمانية مستعدة للدستور ؟ »

قال « نعم »

فتنحنح وهو يمسح فمه بمنديله وقال « لوكانت مستعدة له لم تضيعه بعد ان نالته . اوكد لك ان الذات الشاهانية منحت الدستور لرعاياها وهي تود من صميم القلب ان تكون الامة في استعداد له . ولكن ظهر بعدئذ انه كان السبب في الخراب ولولا حكمة مولانا السلطان لا ادري كيف كانت حالة الدولة بعد الاعوجاج الذي ظهر من النواب

والانقسامات التي آلت الى زيادة طمع الدول .. ان الشعب الشرقي على العموم والعثماني على الخصوص لايصلح للحكم الدستوري . »

فاستأنس رامز بذلك الكلام وقال « انا لاانكر عليك ان الحكم الاستبدادي اذا تولاه رجل عاقل عادل كان اسرع نتيجة في الاصلاح ولكن . »

وسكت مكتفياً بفطنة السامع

## الفصل الخامس والاربعون

### الخوارج

فبادره عزت قائلاً « اسمح لي ان اقول بحرية تامة ان السلطان عبد الحميد مظلوم في احكام الناس انه اشدّ غيرة على سلامة الدولة من اي واحد منا لان في سلامتها سلامته وتأييد سيادته ولم يعدل عن الحكم الدستوري الا غيرة على هذه الدولة التي قد احدقت بها مطامع الدول من كل ناحية وهو وحده بدهائه وذكائه وسهره قد حافظ عليها واستبقاها . ولولم يتدارك الامر بنفسه لانحلت وتقاسمتها الدول . . انا اعلم الناس بالحقيقة . صدقني »

فاطرق رامز عند سماع ذلك وكاد يقتنع انه مخطىء لولم يستدرك الامر فقال « ياللعجب كيف تقول هذا وليس في الدنيا رجل واحد يوافقك عليه . قد اجمع الناس قاطبة من عثمانيين وغيرهم ان الخلل المستحوز على هذه المملكة انما سببه سوء الادارة الحاضرة وخصوصاً لانها في قبضة المابين واهله . سامحني على هذا التصريح »

فضحك عزت ملء فيه وقال « هذا هوموضع الخلاف ومنه منشأ المتاعب .. وسبب ذلك اننا نسيء الظن بسلطاننا والاجانب يسعون في توسيع الخرق وتفريق قلوبنا . تقول ان الدنيا كلها تعترف بان سبب الاختلال من المابين وانا اقول ان سبب هذا الاختلال انما هو من الشبان الذين يسمون انفسهم الاحرار ونحن نسميهم الخوارج . هم يتذمرون ويصيحون رجاء ان يعمد جلالة السلطان الى اسكاتهم بالمناصب اوالمال على جاري العادة — لا انكر عليك ان بينهم اناساً يعملون باخلاص ولعلك واحد من اولئك المخلصين ولكن الباعث الاصلي انما هو طلب الرزق ... قد مضى عليهم ثلاثون سنة ظهروا في اثنائها بمظاهر مختلفة انتهت دائماً بما يثبت قولي . يظهر انك حديث العهد في هذا الامر وقد اندفعت بتيار الافكار الافرنجية التي بثّها الاعداء في رعايا

الدولة باسم الدستور والحرية وقد فاتهم ان لكل امة حالاً غير حال الامم الاخرى . لو تركونا وشأننا لكنا في خير — ليس هم اكثر غيرة على دولتنا من جلالة البادشاه انه ما فتىء بعد ان اخذ على عاتقه اصلاح الدولة وهو ينشيء المدارس العالية لتخريج الشبان المتعلمين ليتولوا مناصب الحكومة . ولكن اولئك المتخرجين اكثر كثيراً من المناصب الموجودة فمن لم ينل منصباً يغضب ويتخذ الطعن في الحكومة ذريعة للاسترضاء بالمال . لان جلالة السلطان كان يقطع ألسنة الطاعنين احياناً بالاغضاء ويقبل النادمين منهم ويحسن معاملتهم فتكاثر الشاكون وتفننوا في الاسباب والذرائع وقلدوا الافرنج في جمعياتهم السرية . فالجمعية التي تشكلت الان في سلانيك ليست الاولى من نوعها واوكد لك انه لا تمضي برهة وجيزة حتى يأتينا العقلاء من اعضائها ويرجعوا الى رضى الذات الشاهانية .. فارى ان تكون انت اعقلهم وانا اضمن لك حياتك وكل ما تريده وغاية ما يطلب منك ان تخبر جلالة السلطان عن اسماء الاشخاص القائمين بهذا العمل اعني المؤامرين اصحاب هذه المفاسد وهم قليلون ... هذه نصيحتي لك »

وكان رامز يسمع هذا الكلام وهو مطرق يفكر فظنه عزت باشا قد اقتنع ولا يلبث ان يوافقه فقال له « من هم هؤلاء المؤسسون ؟ اظنهم بعض المتفرنجين الذين كانوا في باريس او جنيف »

فانتبه رامز لنفسه وقال « ليس في هذه الجمعية فرق بين مؤسس وغير مؤسس واوكد لك ان الخيانات التي بدت من بعض الاحرار في الماضي لم تعد تتكرر لان الامة تعلمت كيف تطلب حقوقها فاذا كنت من محبي الاصلاح حقيقة هذا هو وقت العمل »

فهز عزت رأسه استخفافاً وقال وهو يضحك « يظهر ان الغرور متمكن من نفسك وقد استهواك ما يلفظون به من الالفاظ الضخمة كالحرية والدستور ونحوهما . . وانا آسف لان نصيحتي ذهبت عبثاً . فاختر لنفسك ما يحلو وقد فعلت ما علي — وسوف تعترف بالواقع مكرهاً عندما تذوق العذاب .. » قال ذلك وتحرك من مجلسه وهو يستخرج علبة السيكارة . ثم وقف وهو يظهر العتب او الغضب

اما رامز فظل جالساً وهو مطرق ينظر الى نقش جميل على غطاء المنضدة التي امامه وقد استغرق في افكاره . فرغ عزت من كلامه ورامز لا يزال ساكتاً مفكراً فتوسم عزت قرب انصياعه فتشاغل باشعال السيكارة ثم رأى الخادم داخلاً بالقهوة فقعد واشار الى رامز ان يتناول الفنجان ففعل وتناول عزت فنجانه وهو يراقب حركات ذلك الشاب فرأى الارتباك ظاهراً في محياه وقد اخذه السكوت فاستأنف

الكلام قائلاً « قد اغضيت عما سمعته من حديثك لاني احسبك قلته قبل اعمال الفكرة .. وانصح لك يا بنيَّ ان تفكر قبل الجواب ثانية تأمل بما يهددك من الخطر على حياتك اذا اصررت على التكتم » وسكت وهو يلاحظ حركات رامز فرأى حيرته ظاهرة في حركة يده وهو يدني الفنجان من فيه وينظر الى ما بين يديه نظر المفكر

فقدم له سيكارة وقال « لا الومك على ما بدا من سوء ظنك بجلالة السلطان وسائر اهل المابين لانك لا تسمع اخبارهم الاَّ من اعدائهم ولو مكثت هنا حيناً وتعرفت اليهم لتحققت انكم مخطئون . ولعلك تعود الى رشدك وتصدق الخدمة وترى صدق قولي »

وكان رامز قد فرغ من شرب القهوة فوضع الفنجان على المنضدة ونظر الى عزت وعيناه تبرقان وقال « اذا لم يكن بد من ان اقول شيئاً آخر فاني لا اقوله الا للسلطان نفسه »

فبشَّ له وقال « انت مخيرٌ في ذلك وانا اقدمك لجلالته واوصيه بك خيراً . فامض الآن الى قصرك حتى استأذن لك في المثول بين يدي جلالته » قال ذلك وقد سرَّ لنجاح مهمته

ثم وقف رامز واستأذن بالانصراف فاذن له واشار الى الحراس ان يوصلوه الى قصر مالطة وودعه وهو يبش له

فمشى رامز بقدم ثابتة وقد زال ارتباكه شأن من يتردد في امر ثم يستقرُّ على رأي فوقع بصره وهو مار بباب يلدز الخارجي على مركبة مقفلة دخلت الباب فاحسَّ عند وقوع بصره عليها بخفقان قلب شديد لانه لمح فيها امرأة تشبه شيرين . فاقشعر بدنه وبعد لحظة غابت المركبة عن بصره فوقف وقد نسي حاله فنبهه احد الحرس بطرف البندقية فانتبه ومشى وظن نفسه واهماً في ما رآه واعتقد ان قلقه على شيرين اراه طيفها فهاجت اشجانه وما تم ان دخل قصر مالطة حتى عاد الى هواجسه



# الفصل السادس والاربعون

## ابو الحبيبة

قضى بقية ذلك اليوم وهو يفكر في ما يقوله للسلطان وطال انتظاره وهو لا يعلم الوقت الذي سيضرب به السلطان لمقابلته وتهيب من تلك المقابلة لكنه تجلد وتشجع وما زال يجول في ذلك القصر منفرداً لا يرى احداً ولم تبرح صورة شيرين من ذهنه وقد هاجت اشجانه. ولما انقضى النهار ومالت الشمس الى المغيب تكاثفت هواجسه وتراكمت فقعد في الشرفة المطلة على البوسفور واستغرق في افكاره وتصور شيرين بين يديه تعاتبه او تشكو اليه فتذكر ما شاهده في ذلك الصباح وقال في نفسه « هل يمكن ان تكون شيرين هنا ؟ ما الذي يأتي بها وكيف يمكن ان تجيء . انما رايت خيالها او هذه روحها جاءت لتعزيتي . . »

وهو غارق في هذه التأملات جاء الفراش لانارة المصابيح كالعادة فلم يلتفت اليه ثم رآه آتياً نحوه الى الشرفة فاستغرب قدومه وتجاهل فاذا هو يخاطبه قائلاً « تفضل افندم اذا شئت الى الصالون »

فاجفل ووقف وسار نحو القاعة وقبل وصوله اليها سمع نحنحة اضطربت لها جوارحه وكاد الدم يجمد في عروقه لانها تشبه نحنحة طهماز واستبعد ان يكون هناك لكنه تمنى ان يكون هو نفسه لعله يستطلع منه خبر شيرين . ولما وصل الى الصالون راى طهماز يتمشى بقرب بابها وعليه ثوب مزركش بالقصب يلبسه اصحاب الرتبة الثانية وقد تقاعس وتطاول واصلح من شأنه وفتل شاربيه حتى كاد يتغير على رامز لكنه ما لبث ان تعرفه فبغت واستأنس برؤيته لانه والد الحبيبة رغم ما كان من ثقل روحه عليه فتقدم نحوه وحياه

فرد التحية وهو يبتسم ابتسام الاعجاب ومشى معه الى صدر القاعة ودعاه الى الجلوس وجلس وهو يقول « هكذا فعلت بنفسك يا رامز ؟ الم يكن الأولى بك ان تسمع نصيحتي »

فاستثقل رامز ذلك العتاب وان لم يستغربه من طهماز فاجابه « ما لنا وما مضى يا عماه . . اين هي شيرين الآن ؟ »

فقال « شيرين ؟ شيرين المجنونة ؟ من يعلم اين هي ؟ »

فقال « كيف لا تعرفون اين هي ؟ »

قال « الذي نعرفه انها فرّت من سلانيك مع الخادم خوفاً من الوقوع بما وقعتَ به انت فذهبت الى مناستير او الى رسنة لان لها هناك بعض الرفاق من امثالها وامثالك اهل الطيش الذين يقلدون النصارى بافكارهم وسوف ينالهم ما نالك ٠٠ » قال ذلك وهو يفتل شاربيه واخذ في اصلاح القصب على كمه وطوقه كانه يستلفت نظر رامز الى الرتبة التي نالها

فاعمل رامز فكرته في ما سمعه واغضى عما تخلل الحديث من سوء التعبير وفساد الذوق لان الامر المهم عنده ان يعرف اين هي شيرين فغلب على ذهنه صحة ذلك القول لعلمه بالصداقة المتمكنة بينها وبين صديقة لها في مناستير وهي خطيبة صديقه نيازي بك لكنه لم يفهم السبب الذي اوجب فرارها فتجلد واعاد السؤال على طهماز قائلاً « لا تغضب يا عماه اذا سألتك سؤالاً ثانياً . ما هو السبب في فرار شيرين ؟ »

فضحك ثم قطع السعال ضحكه وقال « سبب فرارها انت ٠٠ الا تعلم انك اوقعتنا جميعاً تحت غضب الذات الشاهانية ولولا صديقنا صائب بك لكنا تحت طائلة القصاص مثلك . ولكنهُ بلغ صدق عبوديتنا الى مولانا السلطان فكافأنا بالتلطيف والرتب . اما تلك الجاهلة الحمقاء فابت الا العناد وقد وقفوا على اوراق لها بين اوراقك تشترك فيها معك ومع اصحابك في المفاسد وقد علمت هي بذلك فبدلاً من الاعتذار اصرت على عنادها وخافت القبض عليها ففرّت »

فقال « واين والدتها ؟ »

قال « سارت للتفتيش عنها في مناستير . وهي لا تقل طيشاً عنها — مع اني كثيراً ما انذرتها بهذه العاقبة منذ رايت قيامك على جلالة الخليفة امير المؤمنين — وانا لولا سابق علاقتي بالمرحوم والدك لم التفت اليك ولكن قلبي طيب وقد وصلت الى يلدز في هذا الصباح ولقيت كل اكرام واحتفاء من سعادة الباشكاتب والسرخفية وسائر الباشوات والياوران وانعم علي بالرتبة وعلمت منهم انك في هذا القصر فاستأذنت في مقابلتك لعلي استطيع اقناعك لترجع عن عنادك . وقد اكد لي صائب بك انك اذا بحت باسماء مؤسسي هذه الجمعية يعفى عنك وتنال الجوائز والهدايا ويعفى ايضاً عن شيرين — فاسمع مني واقلع عن غيك — وقد نصحتك هذه النصيحة مراراً ولم تنتصح ووقعت في شر اعمالك فاسمع نصيحتي هذه المرة فقط »

وكان لكلام طهماز تأثير شديد على قلب رامز لاسباب كثيرة اهمها انه ذكر فيه

والده وسماه المرحوم وهو لا يعرف مقره ولا يعلم هو حي او ميت ــ ويكفيه من اسباب القلق ما سمعه عن شيرين وقد اغضى عما تخلل ذلك من الكلام البارد والدعوى الفارغة وراى انه لم يعد يتوقع فائدة من حديث عمه فاحب التخلص منه فقال « انا سامع نصيحتك هذه المرة ولذلك فقد عزمت ان اقول الحقيقة ولكنني اشترطت ان لا اقولها الا للسلطان نفسه وانا في انتظار الموعد للمثول بين يديه »

فضحك وهز راسه وهو يقول « عفارم عفارم رامز .. ستقابل جلالة السلطان فلا تخفِ عنه شيئاً وارجو ان تذكرني بين يديه وتبين لجلالته اني كثيراً ما كنت انصحك هذه النصيحة ــ عفارم عفارم . ولا شك انك ستنال العفو هكذا اكد لي صائب بك وستنال الرتب والاموال » قال ذلك ووقف فودعه وخرج وهو يتهادى في مشيته ورامز ينظر اليه ويعجب من كبر جثته وصغر نفسه وقلة عقله

## الفصل السابع والاربعون

### التلغراف

اما السلطان عبد الحميد فبعد خروج عزت من عنده عاد الى التفكير بما يحدق به من الاخطار ولم يكن عنده شك بنجاح عزت في هذه المهمة . وقضى بقية اليوم في مطالعة التقارير وبعد العشاء جلس لمطالعة ماكيافالي كالعادة . واذا هو بالحاجب قد دخل يستأذن للباشكاتب فعلم ان مجيئه في تلك الساعة لا يكون الا لامر هام فأمر بادخاله فقدم له ظرفاً علم من شكله انه تلغراف ففضه عبد الحميد وقرأه فاذا هو من الاستانة وهذا نصه

الى جلالة البادشاه

عندي امور تهم الذات الشاهانية اطلب الاذن بالمثول لعرضها على جلالته

(شيرين)

فاعاد عبد الحميد قراءة التلغراف مراراً ثم نظر الى الباشكاتب قائلا « ان هذا الاسم اسم امرأة . هل تعرفها ؟ »

قال « خير افندم »

فقال « اليَّ بالسرخفية وامض انت وأجب على هذا التلغراف ان تأتي حالاً »

فاشار مطيعاً وخرج وبعد قليل اتى السرخفية فدفع السلطان التلغراف اليه فلما قرأه ابتسم وقال « ان مجيء هذه الفتاة فوز عظيم يا مولاي »

قال « ومن هي ؟ »

قال « هي خطيبة الشاب رامز الذي قبض عليه في سلانيك وهو يعشقها ويستهلك في مرضاتها »

فانبسطت اسرة عبد الحميد وهزَّ رأسه ولسان حاله يقول « قد ظفرنا بالمطلوب ولعل الفتاة خافت على خطيبها اذا ظل على عناده لئلا يفشل فاتتنا لتبيح بالسر وتنجيه » ونظر الى السرخفية وقد استخفه الظفر وقال « ماذا ترى ؟ »

قال « الراي لمولاي واظنها ستطلعنا على ما ينكره رامز طمعاً في نجاته واذا لم تفعل فان والدها عندنا وهو من اصدق عبيد جلالة السلطان وقد نال المكافأة بالرتبة بالامس على يد عبدكم صائب »

قال « هي بنت طهماز بك ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

فحدق السلطان في ما بين يديه من الاوراق وقال ينبغي كتمان امر هذه الفتاة عن كل انسان حتى عن خطيبها وابيها ثم وقف على التلفون وطلب الباشكاتب فاجابه فقال « ينبغي ان يكون مجيء تلك الفتاة سرًّا ادخلها القصر وسلمها الى نادر آغا واوصه بكتمان امرها عن كل احد .. فهمت ؟ »

فاجاب « نعم افندم » ثم انصرف السرخفية

وبات السلطان تلك الليلة وافكاره تتقاذفه والامل ملء صدره ان عزت سيفوز في كشف امر الجمعية

وجاءه الباشكاتب في الصباح ان شيرين اتت وسلمها الى نادر آغا فبعث الى نادر آغا واوصاه بكتمان امرها ثم جاء عزت واخبره بما قاله رامز من انه لا يبيح بسره الا لجلالة السلطان فازداد السلطان اقتناعاً بالفوز وقال « ليأتني في صباح الغد » وعين الساعة

# الفصل الثامن والاربعون

## المقابلة

وكان رامز قد بات تلك الليلة تتقاذفه الافكار واكثر تفكيره في شيرين وقد غلب في اعتقاده انها فرت الى مناستير وكذب نظره وتصوراته انما راى شخصاً يشبهها. وفي الصباح جاءه ضابط الباني يدعوه الى المابين الصغير لمقابلة السلطان فلما تحقق الامر تهيب ولكنه تجلد ومشى بين يدي الخفر حتى اتى باب المابين فتناوله احد الياوران الوقوف هناك ودخل به الى غرفة وفتش اثوابه حتى يتحقق خلوها من الاسلحة ثم استأذن له فدخل رأساً بدون واسطة صاحب التشريفات هكذا امر السلطان ومشى متأدباً حتى وقف بباب القاعة التي يقرا السلطان بها التقارير والقى التحية على جاري العادة ووقف فاشار اليه السلطان ان يتقدم واومأ الى كرسي وامره بالقعود . فقعد وهو لم يتعود الاداب المتبعة في مثل تلك المقابلات ولم يهتم السلطان بذلك لانصراف فكره الى استطلاع سر تلك الجمعية فصبر هنيهة ثم قال « انبأنا كاتبنا عزت باشا انك الهمت الصواب ورجعت الى صادق العبودية وقد سرنا ذلك ولم نر بأساً من مثولك بين يدينا فاننا ينشرح صدرنا بمشاهدة خدمة الدولة الصادقين وستحقق ذلك متى برهنت على اخلاصك لعرشنا »

فاشار رامز بالتمني ولم يجب ولكنه غلب عليه التأثر ولو كنت الى جانبه لسمعت دقات قلبه لفرط ما خامره من التهيب لاقدامه على امر لم يقدم عليه سواه . ولكنه تجلد وتماسك وبلع ريقه استعداداً للجواب فبادره عبد الحميد قائلاً « تكلم يا بني .. اخبرنا عن اولئك المفسدين الذين اغروك على الدخول في تلك الجمعية وهم يظهرون انهم يريدون الاصلاح وانما يطلبون الخراب ويقفون عثرة في طريق العمل ويغررون بالشبان العقلاء فيصرفونهم عن خدمة الدولة الى اعمال صبيانية . . قل من هم »

فتجلد رامز وهو يخاف ان يخونه نطقه ولكي يزداد جرأة تصور شيرين واقفة تسمعه فاحس برباطة جأش لم يعهدها في نفسه من قبل فقال « هل اقول وانا آمن ؟ »

قال « قل لا تخف »

قال « ربما قلت اموراً لا يتوقعها جلالة السلطان من مثلي وانا اعلم اني اعرض حياتي للخطر وانما يحملني على التصريح بها غيرتي على هذه الدولة »

فابتدره قائلا « قل ما تريده .. لا تخف »

قال « انا لا اسمي اعضاء تلك الجمعية مفسدين ولا اعتقد انهم يسعون في خراب هذه الدولة بل انا اعتقد ان المفسدين هم الذين ينقلون الاخبار الى جلالة السلطان . اعني طائفة الجواسيس الذين يرتزقون بالدسائس والوشايات . هؤلاء يا سيدي هم المفسدون . . »

فبغت السلطان عند سماعه هذا التصريح ولم يسمع مثله من احد جهاراً قبل تلك الساعة لكنه على عادته تجلد واظهر الاستحسان وقال « يعجبني اصحاب الافكار الحرة . لو كان رعاياي كلهم في مثل هذه الخلة لنجت الدولة من المشاكل ... قل ماتراه »

فلما آنس رامز هذا التلطف من السلطان ذهب تهيبه واعتقد انه فائز بما هو عازم على الاخذ به فابرقت اسرته وخطر له في تلك اللحظة ان الاحرار يظلمون عبد الحميد بما يشيعون عنه من حب الاثرة والظلم لما ظهر له من لين جانبه وقرب اصغائه الى الحق فقال « اخشى يا مولاي اني تجاوزت حدودي في الجرأة على جلالة البادشاه ولكنني اقول ما يوحيه ضميري ... يظهر لي يا سيدي ان سبب الخلاف بين جلالتكم ورعاياكم انما هو سؤ التفاهم بما يدسه المفسدون من الوساوس طمعاً في الدنيا . ولو علم الشبان الاحرار ما عليه سلطانهم من لين الجانب والرغبة في الحقيقة لما جعلوا بينهم وبينه واسطة فيحسن التفاهم ويذهب ما في النفوس وهم عند ذلك عبيد طائعون لان غرضهم خدمة الدولة و . »

فقطع السلطان كلامه وهو يظهر الاهتمام بما يسمعه وقال « وانا طبعاً لا غرض لي غير مصلحة رعاياي ورفاههم ولكنني عاتب على الذين يسيئون الظن بي منهم وينحازون الى الاجانب .. واذا كان لهم شكاية وجب أن يرفعوها اليَّ لاني لا اعد نفسي سلطاناً عليهم بل انا كالوالد لهم »

فدهش رامز لهذا التعطف وظن نفسه في حلم ولا بدَّ انه خطر له سوء الظن بما يقوله السلطان لانه كان يسمع عن مكره ودهائه ويعلم ان الاحرار لم يقصروا في رفع تظلماتهم اليه بالتقارير ونحوها

لكن تلك المقابلة اثرت في اعتقاده وغلبت على رايه وخطأ من يتهم السلطان بالمكر او الرياء وظن التقارير التي كان يرفعها الاحرار لم تكن تصل اليه — تلك كانت مزية عبد الحميد التي كان يغلب بها اعداءه فان احدهم مهما يكن من سوء ظنه به لا يلبث اذا جالسه وخاطبه ان يخرج من عنده مقتنعاً راضياً حتى كبار رجال السياسة من الاجانب . وقد اعترف له كثيرون منهم بهذه القوة

ولم يكن رامز من اهل الدهاء والحنكة وانما يغلب في طباعه حرية الضمير واستقلال الفكر لا يعرف الكذب ولايدرك الرياء والنفاق الا بالسماع . فهو لذلك سريع التصديق لما يسمعه فيعتقده على ظواهره . فلما سمع كلام السلطان تأكد انه صادق في ما يقول وحمد الله على وقوعه في تلك الورطة ليكون وسيلة لحسن التفاهم بين السلطان والاحرار فقال « اني اعدُّ نفسي سعيداً لمثولي بين يدي جلالة السلطان وارجو ان اكون واسطة لحسن التفاهم . وقد انتقد جلالته تقاعد رعاياه الاحرار عن رفع شكواهم اليه راساً ولكنني على ثقة انهم فعلوا ذلك مراراً فرفعوا التقارير المطولة عن المملكة العثمانية وما تحتاج اليه من الاصلاح .. ولم يلجأ بعضهم الى الاجانب الا يأساً من وصول اصواتهم الى مولاهم .. »

فهز عبد الحميد راسه هزَّ الانكار وهو يظهر الاستغراب وقال « اين هذه التقارير؟ الى من رفعوها ؟ »

قال « رفعوها الى المابين ياسيدي .. »

فاظهر الغضب وهو يقول « اني محاط بلصوص منافقين يهمهم توسيع الخرق ليستفيدوا من النزاع .. قد فهمت الان .. » ثم نهض ونظر الى رامز نظر الاستئناس وقال له بصوت منخفض « اكتم ما دار بيننا وانا ساكتمه وساعيدك الى سجنك كالعادة واوصي الحراس ان يحتفظوا بك فلا تهتم لذلك »

فنهض رامز واكب على يد السلطان يقبلها من الفرح والاعجاب واستأذن في الانصراف . فامر الحاجب ان ينقله الى سجنه . فخرج رامز ومشى بين الحراس حتى اعيد الى قصر مالطة وقلبه يطفح سرورا وقد امتلأ صدره املاً على انه كان يحسب نفسه في حلم

## الفصل التاسع والاربعون

### الخلوة

لما خلا عبد الحميد بنفسه مشى في الدهليز المؤدي الى غرفة الرقاد فوقع نظره على الصورة التي مثلوا له بها مدحت ورجاله فوقف عندها وهو يحدق فيها بعين الغدر كانه يرى مدحت بين يديه ويهم ان يصفعه ثم حرق اسنانه وزمجر كالشبل الجريح وهز

راسه وهو يتحول عن الصورة وقال « ويل لكم من اشرار اغرار.. تصدقون ان عبد عبد الحميد يصبر على وقاحتكم باسم الحرية ؟ . ايمثل هذه الجسارة يخاطب عبد الحميد سلطان البرين وخاقان البحرين ؟ حتى هؤلاء الغلمان يزعمون انهم ينصحون لي ؟ ان رجلاً يخاطبني بهذه الوقاحة لا ينبغي ان يبقى حياً . . » قال ذلك ومشى الى علبة السيكار فاشعل سيكاراً ونفخ دخانه نفخة ملات الغرفة . وتنهد وهو يقعد على كرسي طويل هناك ثم استلقى عليه وهو يقول « ولكن ما الحيلة في كشف سر هذه الجمعية ومعرفة اعضائها العاملين . اني اذا ظفرت بهم ذهب خوفي . . ان اولئك الاغرار يطلبون الدستور... قد طلبه قبلكم رجال ذوو لحى وحنكة ودهاء وذهبوا قتلاً ونفياً واغراقاً... وسأفعل بكم كذلك ؟. لا بد ان اطلع على اسراركم ان لم يكن بالحيلة فبالسيف او بالمال او بكل وسيلة . لا ينبغي ان اعول في ذلك على اولئك الاعوان الملاعين — سابحث عنه بنفسي .. ان هذا الشاب عنده سر الجميعة فكيف استخرجه منه ؟ »

ونهض عن الكرسي وهو يحك عثنونه ليستحث ذاكرته وينبه قريحته ثم وقف بغتة واشرق وجهه كانه فتح عليه او هبط عليه الالهام بالصواب فقال « شيرين !. هذه الفتاة التي حملها حبها رامزًا على القدوم الينا لابد انها فعلت ذلك وفي خاطرها ان تفتدي حبيبها بكل شيء . ومن اهون الامور عليها ان تشتريه بكشف سر الجمعية وهي بلا شك عالمة باعضائها » ولما خطر له ذلك صفق فاتاه الحاجب فطلب اليه ان يستقدم نادر آغا وما عتم ان كان ذلك الخصي بين يديه وقد وقف منتصباً ولولا الستامبولينا الطويلة التي تزمل بها لبانت ساقاه الطويلتان مثل سائر الخصيان . كأن الخصي يطيل الساقين ـ وقف نادر آغا وهو يتحفز للعمل بامر مولاه فقال عبد الحميد « اين ضيفتك الجديدة ؟ »

قال « هي في حرز حريز »

قال « هل خاطبتها وعرفت شيئاً من خبرها ؟ »

قال « لو امرني مولاي لفعلت ولكنني لا اجسر على ذلك بدون امره »

فضحك وقال « بورك فيك عفارم .. اليَّ بها »

فمضى نادر آغا ودخل عبد الحميد الغرفة المؤدية الى دار الحريم واخذ في اصلاح شأنه امام المرآة . وكان شديد الرغبة في المحافظة على نضارة الشباب حتى كثيراً ما كان يتخطط ويتبرج تبرج النساء لهذه الغاية فضلاً عن الخضاب . ثم جعل يخطر في الغرفة وهو مطرق يفكر حتى اتى نادر آغا ينبئه بقدوم الفتاة فامر بادخالها فدخلت وقد زادها

التهيب رونقاً وركبتاها تصطكان من الخوف لانها بعثت ذلك التلغراف ودخلت المابين وهي كالضائعة ولم تقدّر عواقب جسارتها وانما فعلت ذلك مدفوعة بالخوف على رامز ورات صائب بك يهددها بالوشاية بها فسبقته الى القدوم وفي نفسها نحو ما في نفس حبيبها من جهة السلطان واعوانه . اذ لم يكن يدور في خلدها ان من يقبض على انفس العباد ويتولى الخلافة يرتكب ذلك الشطط في سياسته الا وهو يجهل حقيقة حال مملكته . وانه لو عرف الحقيقة لرجع الى الصواب . على انها كانت تتصور ذلك الامر اهون مما هو . ولم تكد تدخل يلدز وترى قصورها وحدائقها وميادينها وما انبث في اطرافها من الحراس والاعوان حتى تهيبت وادركت خطأها . وكانت تتوقع ان تستطلع حال رامز ساعة وصولها فتطمئن عنه او تشجعه فاذا هي لا تكلم الا صماً بكماً لا يجاوبها احد على سؤال . نخيل لها بعد ما راته من تجاهل الناس امر رامز انه لم يأت يلدز وتصورت ان ناظم بك دس له من قتله في الطريق وندمت على مجيئها

## الفصل الخمسون

### شيرين وعبد الحميد

فلما دعيت لمقابلة السلطان تجلدت جهد طاقتها ودخلت وعليها اليشمك يغطي رأسها ومعظم وجهها وكان عبد الحميد عند دخولها يخطر في تلك الغرفة يظهر عدم الاكتراث . فالقت التحية ووقفت فاشار عبد الحميد الى نادر آغا ان ينصرف واومأ اليها ان تقعد . فظلت واقفة وهي تسترق النظر الى وجهه فرأت الشرر يكاد يتطاير من عينيه . ثم راته يقعد على كرسي وهو يومئ اليها ان تقعد على كرسي بين يديه . فقعدت وقد امتقع لونها وادرك هو ما بها فابتسم لها وقال « انت شيرين ؟ »

قالت « نعم يا سيدي »

قال « يظهر لي انك من اهل الذكاء والاخلاص . فعساك ان تكوني قد حملت الينا خبراً يهمنا كما قلت »

فارتبكت ولكنها تماسكت وتجلدت وتصورت انها تطلب نجاة رامز حبيب قلبها فقالت « نعم يا مولاي اني لم اقدم على هذه الجسارة الا عن اخلاص وصدق نية »

فقال « قولي واصدقيني واعلمي انك في حضرة امير المؤمنين »

فاشارت اشارة الاحترام وقالت « ان ذلك شرف لي » وسكتت وهي تود قبل الكلام ان تعرف اذا كان رامز هناك وماذا جرى له . وادرك عبد الحميد ما يجول في خاطرها فاراد ان يجعل رامزاً وسيلة لاقرارها فقال « قد علمت السبب الذي حملك على المجيء الينا وتكبدت هذه المشقة من اجله ويظهر انك خائفة . فلا تخافي اذا كنت تنوين الاخلاص في قولك والا فانك ... » وسكت

فتوسمت في كلامه شيئاً مما خطر لها فقالت « اقسم لمولاي اني لا اقول غير ما يدعوني اليه الاخلاص و .. »

فقطع كلامها قائلاً « وقبل ان تقولي شيئاً اعلمي انك تتكلمين عنك وعن رجل اخر يهمك امره هو تحت خطر القتل الان »

فلما سمعت لفظ القتل اجفلت وقالت « من يعني مولاي ؟ هل رامز هنا ؟ »

قال « هو هنا في حوزتنا وقد خاطبناه وسألناه سؤالاً جعلنا حياته رهناً على صدقه في الجواب فاجاب عن البعض واعتذر انه لا يستطيع التصريح بكل شيء لانه اقسم الايمان المغلظة على الكتمان فلم يبق سبيل الى نجاته فهو مقتول حتماً . الا اذا انقذته بصدقك » قال ذلك وهو يراقب حركاتها خلسة فراها قد ارتبكت في امرها وامتنع لونها وقالت « وما الذي يطلبه مولاي مني ؟ »

قال « اني اطلب شيئاً يسهل عليك كثيراً ولا ريب عندي ان رامزاً لولا تقيده بالقسم لذكره بعد ان تحقق انه مخدوع وربما رجع الى صوابه في الغد . اما انت فلا يربطك قسم فانقذيه وانقذي نفسك ولا اكلفك شيئاً غير التصريح لي باسماء مؤسسي الجمعية التي تسمونها جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك و بذلك تنجين نفسك ونفس رامز وانفس كثيرين وقعت عليهم الشبهة وقد يكونون ابرياء ولا نحب ان ناخذ البريء بجريرة المجرم »

فاستغربت ان يكون رامز قد تساهل في امر الجمعية ولم يبد الثبات الذي تعهده فيه لنصرة الحق . لكنها ما لبثت ان عادت الى صوابها وتذكرت ما يقال عن دهاء عبد الحميد وتفرست في عينيه فادركت بشعورها النسائي ان ذلك الطاغية يخادعها وان رامزاً لا يمكن ان يبيح بشيء فقالت « اني يا سيدي قد طلبت المثول بين يدي جلالة البادشاه لاتلو عليه اشياء تتعلق بالدولة ربما لم تبلغ اليه بعد ولو علم حقيقتها لاوقع قصاصه على غير تلك الجمعية »

فرأى عبد الحميد ان تعريضه برامز لم يغير عزمها فاراد ان يسايرها فقال « ماذا تعنين ؟ »

قالت « اعني يا مولاي ان الذات الشاهانية لا تصلها اخبار الدولة الا على ايدي اناس يتكسبون بالكذب والرياء فيزينون لجلالة السلطان غير الواقع التماساً لرضاه و يكتمون

الحقيقة وهم يعلون و يقفون سدًّا بينه و بين رعاياه الصادقين المخلصين »

فوجد في نغمتها نغمة حبيبها رامز فرأى ان يخادعها فقال « قولي ما في خاطرك اني احب الاطلاع عَلَى الحقيقة »

قالت « ان حالة الدولة في اضطراب شديد ... ليست الجمعية التي تشكلت في سلانيك مما يستخف به واعضاؤُها اخلص الرعايا لجلالة السلطان . فلو اتخذهم جلالته خدمة واستخلصهم لانقذ الدولة من مهاوي الانحطاط ومن مخالب الاجانب ... ان مطاردة جمعية الاتحاد والترقي لا تفيد شيئًا لان الامة كلها ناقمة عَلَى الحالة الحاضرة لما تمكن من الفساد في جسم الدولة بما يراه الناس من استئثار رجال المابين بالاموال لايهمهم خربت البلاد او عمرت وقد ادرك هؤُلاء هذه الحقيقة فاصبح همهم منصرفًا الى جمع الاموال لانفسهم واستهلكوا في اقتناء العقار وخبأَ العارفون منهم ثروتهم في مصارف اوربا واميركا وطلبوا اعلَى الرتب والمناصب فنالوها . واستفادوا من الحالة الحاضرة بقدر ما امكنهم . ولم يفكر الواحد منهم الا بنفسه واولاده ثم بالاقرب فالاقرب من عائلته . واستماتوا في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة بالتقرب من جلالتكم واستحوذوا عَلَى مناصب الدولة ورتبها ونياشينها والقابها حتى وجهت رتبة امراء العسكرية ورتبة بالا العلمية الى المشايخ ذوي التيجان والعمائم وقد جرت معافاتهم من الخدمة العسكرية ومعافاة من انتسب اليهم . وسقط اعتبار الدولة في عيون الاجانب واصبح العثمانيون انفسهم المقيمون في البلاد الاجنبية يستنكفون من الانتساب الى الدولة العثمانية واصبحوا لا يرون علاجًا لهذه الحالة الا الرجوع الي الحكم الدستوري لاكتساب ثقة الدول بعد ان كانت نتيجة الحكم الاستبدادي خروج كثير من الايالات العثمانية الى سلطة الاجانب او الاستقلال كما حدث في الفلاخ والبغدان والروملي الشرقية والبوسنة والهرسك والجبل الاسود والسرب وقبرص وتونس وتساليا ومصر والسودان وغيرها وعدد سكان هذه البلاد يزيدون عَلَى ثلاثين مليونًا كلها خرجت من سيادة الدولة العثمانية بسوء سياسة اولئك المقربين . ولا ريب عندي ان جلالة السلطان مخدوع بما ينقله اليه المتملقون الذين لايهمهم الا مصالحهم الشخصية وقد اصبحت اكثر اموال الدولة تنفق فيهم وسائر اهل المملكة في جوع حتى الجند ... »

# الفصل الحادي والخمسون

## القادين ج

وكانت شيرين تتكلم والاهتمام بادٍ في عينيها وكان صوتها في بادىء الامر يرتجف ويتقطع ثم انطلق لسانها وفاضت قريحتها ولم تتم كلامها حتى كلل العرق جبينها والسلطان مطرق يسمع ما تقوله ويعجب من جسارتها ويكاد يتميز غيظاً من اقوالها . وحدثته نفسه ان يذهب بحياتها في تلك اللحظة بطلق ناري من مسدسه لكنه كظم غيظه التماساً للوصول الى غرضه وهو الاطلاع عَلَى سر تلك الجمعية فقال وهو يظهر الاعجاب بما سمعه « يسرني ان يكون في مملكتي نساء لهن هذه المعرفة وهذه الغيرة . ان امة فيها من امثالك لجديرة بالدستور . وكم كنت اود ان اعرف زعماء هذه الحركة لاباحثهم ونتفق عَلَى طريقة للنجاة من هذا الخطر. واراك مع ذلك تكتمين عني اسماءهم وانا الومك عَلَى ذلك لانك لو اخلصت الخدمة لذكرت بعض الذين تظنين فيهم اللياقة لهذا التغيير . . ولعلك تفعلين بعد الآن اذا تحققت اني اشد غيرة عَلَى هذه الدولة من سواي » قال ذلك واظهر تهامله في استطلاع سر الجمعية لعل ذلك يهون عليها الاقرار

اما هي فظلت ساكتة وقد كادت تصدق ما قاله عبد الحميد من رغبته في الاصلاح . على انها فضلت السكوت لان شعورها حملها على سوء الظن بما سمعته وعادت الى امر رامز واحبت ان تحتال في معرفة حقيقة حالهِ فقالت « اني لا اعرف شيئاً عن اعضاء هذه الجمعية . ولعلي اذا اجتمعت برامز ان نتعاون على خدمة جلالة السلطان في هذا الشأن »

فادرك عبد الحميد انها تكذب وانها انما تحتال للاجتماع به للتعاقد على الانكار لكنه اظهر الاقتناع بقولها وقال « سوف اجمعكِ به » ووقف ونادى « نادر آغا » فجاء فاشار اليه ان يأخذها الى محبسها ويعود

فلما عاد قال له عبد الحميد « اخفِ هذه المرأة عن عيون الناس كافة واحذر ان تعرف بمكان خطيبها او يعلم هو انها هنا »

فاشار مطيعاً وهم بالخروج فناداه وقال « ماذا جرى بالقادين ج ؟ »

قال « قرب موعد قتلها وهو الليلة »

قال « اجّل ذلك وقل لها « اني اشتقت لرؤيتها فلتأت اليَّ بعد القيلولة لتلبسني ثيابي وحدها . . واظنها ستفرح بذلك كثيراً »

فقال « انها ستجنّ من الفرح طبعاً »

فضحك عبد الحميد وقال « افعل كما قلت لك »

فاشار مطيعاً وخرج

فعاد عبد الحميد الى مناجاة نفسه قائلاً « لايقدر على استخراج هذا السرّ منها الا تلك القادين الداهية . . . انها ماهرة باساليب الحيل وهي تحبني ولكن . . . دعني اكلفها بهذه الخدمة وسأرى ما يكون »

وذهب عبد الحميد بعد الغداء الى غرفة المنام وبعد القيلولة اتت القادين ج وقد اصابت من شأنها وكادت تطير من الفرح بهذه الدعوة التي يحسدها عليها سائر القوادين وخصوصاً بعد ان اهملها مده طويلة وهي لا تعرف ذنبها

فلما دخلت عليه حيته بالطريقة المعتادة ووقفت تلتمس اشارته فقال لها وهو يمازحها « اظنك اذا شُغلتُ انا عنك بمهام السلطنة لا اخطر ببالك »

فقالت بلهفة « العفو يا مولاي اني امتك وطوع اشارتك وانت مالك الرقاب . . . والقلوب . . . اني اقب[illegible] موطأ قدميك وا[illegible] في . . » وتنهدت وتشاغلت بتقديم الدراعة [illegible]

[illegible] تشير الى حبها الشديد له فقال « تزعمين انك تحبينني ؟ » ومد يده [illegible] الدارعة . فقالت وهي تدير الدارعة نحو يده « اني اعبدك يا سلطاني . . [illegible] اني لا اجد عبارة اعبر بها عن حبي »

[illegible] وانا ايضاً احبك كما تعلمين ولكني شُغلت عنك وعن سواك بقيام بعض [illegible] في سلانيك والفوا جمعية سرية ويزعمون انهم من الاحرار وانا لا اخافهم [illegible] ولكنني احب ان اعرف من هم فاذكرني ذلك صادق خدمتك في الماضي . . هل [illegible] الفتاة المكدونية التي اتتنا بالامس ؟ »

قالت « وانى لي ذلك وانا في قصري لا اخرج منه ؟ »

[illegible] « ان هذه الفتاة اسمها شيرين قدمت نفسها لي في الصباح وهي خطيبة احد [illegible] الغلمان . ولا شك انها تعرف اعضاء تلك الجمعية ولكنها تتكتم وانا لم اشأ ان [illegible] لئلا ترى مني اهتماماً بامرهم . ولا احب ان اكلف احد الخفية باستنطاقها . . وانا [illegible] فيك الذكاء واللباقة فهل تقدرين على القيام بهذه الخدمة لصاحبك القديم »

فاثر ذلك التعبير في قلبها واذكرها اياماً كان يظهر لها فيها تقرباً وقالت وقد ابرقت [illegible] « اني افعل ذلك على الرأس والعين »

وكان قد فرغ من لبس ثيابه فقال « سآمر نادر آغا ان يأخذها اليك لتمكث معك بحجة الاستئناس بك فابذلي جهدك في استطلاع ذلك السر منها باقرب وقت بدون ان تشعر . . فهمتِ ؟ »

فحنت رأسها اشارة الطاعة وقالت « اني اغتنم مثل هذه الفرصة لابرهن لسيدي وحبيبي اني ما زلت اتفانى في خدمته »

فابتسم لها وقال « لكن احذري ان تعرف شيئاً منك خذي منها ولا تعطيها »

فقالت « على الرأس والعين » وخرجت

ثم نادى عبد الحميد نادر آغا وامره بما يلزم

## الفصل الثاني والخمسون

اما رامز فانه لما خلا بنفسه في قصر مالطة عاد الى التأمل في ما مرّ به ذلك اليوم وما سمعه من عبد الحميد وقد مال الى الاعتقاد بان الناس يظلمون هذا الطاغية بسوء ظنهم فيه وانه انما يرتكب ما يرتكبه باغراء اهل المابين — وقد رأيت انه [illegible] ما بينهم بالمداجاة والخداع خوفاً على حياته وتمسكاً بسلطانه . قضى رامز بقية ذلك اليوم وهو يتنقل في ذلك القصر من الشرفة الى النافذة الى الصالة الى المائدة وافكاره تائهة في ما عساه ان يتم على يده من الخير للدولة وللامة وتوهم ان اهل القصر [illegible] ايناساً له واحتفاء به . وكثر تفكيره في شيرين وودّ لو انه يستطيع تبليغها تلك البشارة لئلا يقتلها اليأس من بقائه . وتذكر والده وكان قد كثر ترداد صورته الى ذهنه منذ دخوله يلدز لاعتقاده انه ضاع هناك وان لم يقطع الامل من بقائه

وبعد العشاء ذهب رامز الى فراشه وقد طار النوم من عينيه لفرط تأثره من حديث ذلك اليوم . وهو يتقلب على الفراش وقد اطفئت المصابيح سمع وقع خطوات بباب الغرفة عقبتها نقرات خفيفة . فجلس على الفراش ونظر نحو الباب وتنصّت فرأى نوراً يتخلل شقوقها فعلم ان شخصاً قادماً اليه بالمصباح فوثب الى الباب ففتحه فوجد خادم القصر وبيده قنديل فسأله عما يريده فقال « ان رسولاً جاء لاستدعائه »

فقال « الى اين ؟ »

قال « الى خارج القصر.. لا ادري الى اين »

قال « من هو ؟ »

قال « احد حجاب البادشاه لعله يطلب ذهابك الى جلالته »

فتوسم بتلك الدعوة خيراً لما سبق الى اعتقاده من حسن الظن فاسرع الى ثيابه فلبسها واصلح من شأنه وخرج فوجد حرسياً في انتظاره فاومأ اليه ان يتبعه . فمشى في اثره بين الاشجار وقد خيم الظلام واوت الحشرات والهوام وهدات الطبيعة فلم يسمع في ذلك المكان غير وقع خطواتهما حتى وصلا الى الشارع المحيط بسور الحديقة الداخلية وفيه بعض الانوار . واتصلا منه الى باحة يلدز المؤدية الى المابين الصغير فتصوَّر رامز ان الحربي ذاهب به الى ذلك المابين فما لبث ان رآه عرج في طريق الى اليسار بين الاشجار حتى وصل الى باب قصر فخيم فاستخرج الحرسي مفتاحاً من جيبه فتح به الباب ودخل واشار الى رامز ان يتبعه فتبعهُ الى فسحة يتصل منها الى دهليز في اليسار يؤدي الى غرف يستطرق بعضها الى بعض وقد انير الدهليز بالنور فبانت جدران تلك الغرف فاذا هي تختلف عن سائر ما شاهده في المابين وفي قصر مالطة . لان الجدران في هذا القصر مبطنة بالانسجة الحريرية (الاطلس) الملوَّنة بالالوان الزاهية وعليها إطارات كبيرة لم يقدران يتبينها عن بعد . فلما صارا في وسط الدار اشار اليه الحرسي انه ذاهب وسيعود اليه ودخل من الباب الايمن المقابل للدهليز واغلقه وراءه

فاغتنم رامز تلك الفرصة ودخل تلك الغرف وكلها مفروش بالسجاد الثمين ونقش سجادكل غرفة يلائم الوان الاطالس المكسوة بها جدرانها ولكل غرفة نقش خاص بالوان خاصة . وآنس في المكان هدوًّا يدلُّ على خلوه من السكان فعلم انه من القصور التي انشئت لبعض المقابلات او الاحتفال ببعض القادمين ولم يدرك سبب استقدامه اليه على انه تشاغل بالتفرج بما هناك . فوجد في الاطارات المعلقة بالحيطان خرائط متقنة الصنع مثل خريطة البوسفور وخرائط الروملي والاناطول والاستانة والبحر الاسود من صنع كبار المهندسين العثمانيين اكثرها نافر الرسم بارز يمثل حال البلاد الطبيعية . فاعجبهُ ان يكون في رجال الدولة من يستطيع ذلك الرسم الجميل . وتأسف لما خال دون ظهور مواهبهم من المظالم والمفاسد

وهو يتأمل في ذلك عاد اليه الحرسي وناداه فتبعه فاشار اليه ان يدخل في الباب الايمن الذي خرج هو منه فاطاعه فرأى نفسه في قاعة واسعة لم ير مثلها هناك فيها الرياش الثمين فوق السجاد الجميل وفيها المناضد عليها آنية البذخ كالساعات المذهبة

والتماثيل المزخرفة وجدران القاعة مكسوة بالاطاس الاحمر المعرَّق بالذهب . وفي سقفها ثريات كبيرة قد انيرت مصابيحها . وعلى جدرانها اطارات فيها خرائط وصور اهمها خريطة الكعبة تمثالها مع ماجاورها مجسمة في غاية الاتقان . ولحظ الحرسي دهشة رامز مما يراه فقال له « انت في قصر چيت ياسيدي وهو من اخر قصور يلدز تفضل اجلس هنا حتى يرد اليك الخبر ولا تخف » قال ذلك وخرج واقفل باب القاعة وراءه بالمفتاح

فاستغرب رامز ذلك ووقف ليتحقق اقفال الباب فوجده قد اقفل اقفالاً محكماً واصبح كانه والحائط قطعة واحدة . ونظر في اطراف القاعة فلم يجد فيها باباً سواه فاقشعر بدنه وتوهم انها احبولة نصبت له ولايلبث ان يقتل او يصاب بأذى لانهُ كثيراً ما سمع بغرائب اساليب القتل في يلدز . وقول الحرسي « لا تخف » كانت سبباً في زيادة الخوف

# الفصل الثالث والخمسون

## باب السر

فمشى في القاعة واعاد النظر في ماحوله وتفرَّس في الجدران لعلهُ يرى باباً آخر فلم يجد شيئاً . ومع تألق القاعة بالانوار احس بالوحشة كانه في ظلام دامس فجعل يتلاهى بالنظر الى الصور والخرائط المعلقة على الجدران حتى ملَّ فجلس على مقعد بجانب منضدة عليها بعض الكتب وجعل يتشاغل بتقليبها وعادت اليه ذكرى والده وهل هو في احد تلك القصور حياً او سجيناً او هو ميت

وهو في ذلك سمع قلقلة مفتاح فاجفل ونظر الى الباب وتوقع ان ينفتح ويدخل الحرسي بخبر جديد لخيره او شرّه . فطالت القلقلة ودلَّهُ سمعه انها في الحائط المقابل له وليس في الباب الذي دخل منه . فنظر الى الحائط فلم يجد باباً ولا ما يشبهه فكذب سمعه واعاد نظره الى الباب ثم سمع طقة القفل اذا فتح فاصبح يتوقع ان ينفتح الباب فرآه باقياً على حاله ولاح له تغيير في ذلك الحائط فالتفت نحوه فاذا قد فتح فيه باب دخل منه شبح ملتفٌ بملاءة بيضاء كانه خارج من القبر . فاقشعر بدنه وقفَّ شعره وخفق قلبه فنهض وقد جمد الدم في عروقه وتوهم ان والده خارج من بين الاموات او عفريت من الجن شق الحائط وخرج منه نحو ما يسمع في اخبار الف ليلة وليلة

ولم تمض لحظة حتى كشف ذلك الشبح الملاءة عن راسه فاذا هو عبد الحميد بلباس النوم وعليه برنس ابيض كالملاءة فدهش رامز واستغرب خروجه من الحائط ولكنه ظلّ واقفاً مكانه وقد اصطكت ركبتاه

فلما صار عبد الحميد داخل القاعة اغلق الباب واوصده من الداخل فعاد الحائط كما كان وتقدم نحو رامز وعلى راسه عمامة صغيرة تشبه الكاسكيت وقد التف بالبرنس وابتسم تخفيفاً لما تولى رامزاً من الرعدة . فاستأنس رامز به وتقدم نحوه وحياه ويداه ترتعشان فقال عبد الحميد « لا تخف يابني اني جئتك من هذا الباب السري المستطرق الى المابين لاخاطبك في امر لا اريد ان يشعر به احد من اهل هذه القصور » قال ذلك وهو يقعد على مقعد هناك واشار الى رامز ان يقعد

فقعد رامز وقد اطمأن خاطره واصبح في لهفة للاطلاع على الغرض من تلك الجلسة السرية

واما عبد الحميد فانه لبث هنيهة وهو مطرق لايتكلم كانه يفكر في امر هام ورامز ساكت وكلهُ آذان للسمع . ثم فتح عبد الحميد الحديث قائلاً « لا حاجة بي ان اوصيك بكتمان هذه الجلسة عن كل بشر »

فاشار مطيعاً

فقال عبد الحميد « ان حديثك بالامس عن اهل المابين كان له وقع شديد في نفسي وما زلت من تلك اللحظة وانا افكر فيه فوجدتك مصيباً وتحققت ان هؤلاء الاشرار اصل هذه المتاعب غير اني اصبحت مقيداً بهم لكثرتهم وكثرة اعوانهم ولا ادري كيف اتخلص منهم » وتنحنح وهو يتلفت كانه يحاذر ان يسمعه احد ورامز مصغٍ وقلبه يخفق تطلعاً لما سيسمعه

فقال عبد الحميد وهو يخفض صوته « فرايت ان استشيرك في الامر سرًّا ولم اشأ ان افعل ذلك في قصري كالعادة لكثرة المراقبين والجواسيس عليَّ وعلى كل ناطق حتى الخدم والطواشية حتى النساء والجواري فانهن يتلصصن عليَّ لسماع مايقال فاخترت هذا المكان وامرت الحرسي ان يأتي بك اليه لتكون سجيناً فيهِ بدلاً من قصر مالطة . واوصيته ان يغلق الباب عليك ويذهب وهو لا يعلم بوجود هذا الباب السرّي . فالآن نحن هنا في امان فانصح لي في الطريقة التي تراها »

فاطمأن خاطر رامز واصبح لغرابة ما يسمعه يظن نفسه في حلم ولكنه تأمل بما هو فيهِ فتحقق انه في يقظة فقال « يأمر سيدي الباد شاه بما يريد فاني طوع امره

بكل ما فيه مصلحة الامة والدولة »

فتنهد عبد الحميد وقال « آه كم اسمع هاتين الكلمتين (الامة والدولة) ممن يحيط بي من المتملقين فلا يؤثر فيَّ قولهم لانهم يخادعونني واخادعهم ويخاف كلٌّ منا صاحبه حتى استغرقت في الشطط وارتكبتُ اموراً ارجو ان يمحوها الله من سجل اعمالي اذا انا رجعت الى الصواب » قال ذلك وصوته يختنق كانه يجهش للبكاء . ورأى رامز في عينيهِ دمعتين تتلألآن وهو مطرق كالنادم الآسف . فتأثر من منظره وشاركه في البكاء ولم يبقَ عنده شك في صدق قوله لكنه ظلَّ ساكتاً

## الفصل الرابع والخمسون

### المهمة الكبرى

فمسح عبد الحميد عينيه واظهر الاهتمام وقال « احبُّ ان اتخلص من هؤلاء المنافقين المحيطين بي لكنني لا استطيع ذلك قبل ان اتوثق من اولادي الاحرار الذين أغريت على اساءتهم وهم الآن بعيدون عني فاحب ان اباحثهم سرًّا ونتفق على طريقة نقضي بها على هؤلاء الاشرار وننظم حكومة جديدة نحيي بها الدولة . كفانا ما مضى . . فما هو السبيل الى ذلك ؟ هل اذا عوَّلت على الاحرار يستطيعون الاخذ بناصري والتغلب على هؤلاء ؟ اني اخاف على حياتي منهم اذا اظهرتُ تغيراً في سياستي »

فاعتدل رامز في مجلسه وقد ابرقت اسرته من الفرح وقال « لاشك ياسيدي انهم يستطيعون . ولا اخفي على جلالة الباد شاه بعد ان رايت حسن ظنه فينا ان الاحرار هذه المرة ظافرون بلا ريب لانهم اجتذبوا الجند الى حزبهم . ولم يبقَ ضابط في سلانيك او في غيرها الا وهو عضو في جمعية الاتحاد والترقي المقدسة فاذا ارادوا عملاً انفذوهُ بالقوة ولا سيما اذا كانت ارادة الذات الشاهانية معهم »

وكان عبد الحميد يسمع ذلك وقلبه يكاد يتميز غيظاً لكنهُ تجلد على عادته واظهر السرور فانبسطت اسرته وظهر الاستبشار في محياه فاستأنس رامز بمنظره ورقص قلبه طرباً ولبث ينتظر ما يقوله عبد الحميد فاذا هو يقول لهُ « هل انت على ثقة باقتدارهم على ذلك ؟ »

قال « كيف لاوانا من صميم الجمعية ؟ اني واثق بان الجمعية اذا اكدت رضى جلالة السلطان عنها تفديه بالارواح وتقاوم اعداءه اشد المقاومة »

فقال عبد الحميد « وما هي الطريقة للمفاوضة معهم بهـذا الشأن وانا سجين في هذه القصور . . لا استطيع الخروج منها ؟ »

قال رامز « اذا شاء مولاي كنتُ سفيراً بينه وبينهم » قال ذلك وهو لا يتوقع ان يوافقه السلطان على الخروج من سجنه فرآه قد اظهر الارتياح الكلي وقال « نعم الرأي هذا . . ولكنني اخاف ان يطلع احدٌ من هؤلاء على قصدنا »

قال « لا خوف من ذلك فان لجمعيتنا طرقاً للتكتم لاسبيل معها الى معرفة شيء . وقد راى جلالة السلطان تكتمنا بالامس وكيف ان احدنا يعرض نفسهُ للقتل ولا يبيح بسره ولا غرض لنا الا خدمة الامة والدولة »

فاطرق السلطان لحظة وقال « حسناً لكنني اودُّ المفاوضة مع زعماء هذه الجمعية بجلسة سرية مثل هذه . ان المخابرة عن بعد لاتشفي غليلاً وعندي امور كثيرة احب تبيينها والاحتياط لها ولا يتم ذلك بالمخابرة عن بعد وانا لا يتيسر لي الخروج اليهم كما تعلم »

فقال رامز « هم يتشرفون بالمثول بين يدي جلالتكم »

فقال « لا اظنهم يفعلون اذ تعوزهم الثقة بالمابين . . فان اهله لم يبقوا للامة ذرة من الثقة بي .. » وغصَّ بريقه

ولم يكن رامز من اهل الدهاء كما قدمنا فاعتقد كلام السلطان على ظاهره فقال « انا اؤكد لهم حسن ظن جلالتكم واحملهم على تعيين وفدٍ يتشرف بالمثول بين يديكم »

فقال « لايسعنا المطاولة في الاخذ والرد فينبغي ان يكون ذلك الوفد مفوضاً في كل شيء فتنتهي هذه المشاكل في جلسة واحدة تنتقل بها الدولة من حال الى حال . آه من هؤلاء المتملقين كم اغروني على الايقاع بالاحرار واقنعوني انهم غير اهل للدستور وانا مضطر للتسليم .. فالآن انا ملقٍ حملي عليك وواضع ثقتي بك فعسى ان يتم هذا العمل على يدك — اذا جاء الوفد فليكن مؤلفاً من خيرة الرؤساء العقلاء يظهرون انهم آتون لمشروع اقتصادي او علمي او نحو ذلك »

فاشار رامز مطيعاً وقلبه يرقص طرباً وهو لم يصدق ان عبد الحميد يطلق سراحه فقال « ومتى يأمر سيدي بمباشرة ذلك ؟ »

قال « تذهب في هذه اللحظة .. تخرج من هذه القصور من باب سرّي ارشدك

اليه على يد احد ثقاتي تخرج ولا يدري احد بخروجك فاذا اصبحوا في الغد ظنوا انك فررت . وانما ينبغي المبالغة في كتمان ما دار بيننا عن كل احد حتى تصل الى الجمعية وتعرض هذا الراي في جلسة سرية .. فهمت ؟ » فاجاب براسه ويديه ان « نعم »

# الفصل الخامس والخمسون

## سعيد بك

وبلغ من استئناس رامز بعبد الحميد وتصديقه اياه حتى اعتقد ان الدستور اصبح في قبضة يده . وتذكر والده وتلهفه على معرفة مكانه فاغتنم قربه من عبد الحميد للسؤال عنه فقال « قد حملني لطف جلالة السلطان على ان اتجاسر بعرض مسألة .. هل افعل ؟ »

فقال « قل يا ولدي ما الذي تريده ؟ »

فزاده ذلك التلطف دالة فقال « لي والد دخل يلدز منذ بضع عشرة سنة ولم نعد نعلم ماذا جرى له فهل هو يا ترى في قيد الحياة ؟ »

فاظهر عبد الحميد الاهتمام بهذا السؤال وقال « والدك في يلدز منذ بضع عشرة سنة ؟ ما اسمه وما كان غرضه من المجيء ؟ »

قال « ان اسمه سعيد وقد جاء للبحث عن اوراق في قصر مالطة »

فتظاهر عبد الحميد بالبغتة وقال «سعيد بك ابوك ؟ قد اغروني عليه وزعموا انه جاء بدسيسة لينتقم لمدحت باشا لانه صديقه وكدت اقتله ثم اكتفيت بسجنه .. »

فانحنى رامز انحناء الاستعطاف وقال « هل يتاح لي ان اراه .. ان ذلك اكبر نعمة علي . فاذا حصلت عليها تفانيت في خدمة السلطان »

قال « طبعاً .. وهل تخشى ان تطلب مني ما تريده بعد ان صرحت لك بمقاصدي — سابعث باخراج والدك من السجن في هذه الدقيقة واخرجكما معاً من يلدز في هذه الليلة »

فلم يتمالك رامز عن الاكباب على طرف ثوب السلطان يقبله

فامسكه عبد الحميد وقال « انا عائد الان الى قصري وسابعث اليك بوالدك مع حرسي يدخل به عليك من باب هذا القصر كما دخلت انت . والحرسي يرشدك الى طريق النجاة » قال ذلك ونهض فنهض رامز وهو يقول « اخشى اذا صرت الى سلانيك ان يعرف ناظم بك بقدومي فيتعمد القبض علي »

فقطع السلطان كلامه قائلاً « لا تهتم بهذا الامر انا ادبره »

فاعاد تشكره وامتنانه وتحول عبد الحميد نحو ذلك الباب في الحائط ففتحه وخرج منه ثم اوصده وراءه فعاد الحائط كما كان

وبقي رامز في مجلسه وقد تولته الدهشة واخذ يفرك عينيه لئلا يكون في حلم فتحقق انه في يقظة فقال في نفسه « ما هذه الغرائب المدهشة .. عبد الحميد يطلب الدستور من تلقاء نفسه ! اذا تم ذلك عَلَي يدي ما اعظم سروري . هل ارى والدي الان وانجو به ؟ رب شر ينتج عنه خير . لو لم يش بي عدوي ويلقيني في هذه الورطة لم اوفق الى ملاقاة والدي ولا الى ما ارجوه من الانقلاب السياسي .. لا اصدق اني اصل الى الجمعية واقص عليها اخباري . . »

ونهض وجعل يخطر في الغرفة وهو ينظر الى ساعة دقاقة موضوعة عَلَي منضدة مذهبة فاذا هو في الساعة الثانية بعد نصف الليل واصبح يعد الدقائق في انتظار والده .. وقد صبر عَلَي بعده اعواماً لكنه وجد هذه الدقائق اطول منها كثيراً . واوحشه ذلك السكوت فاذا وزنت ناموسة اجفانه وز يزها

وهو في ذلك سمع وقع خطوات في الخارج عقبها قلقلة المفتاح فوثب من مجلسه الى الباب ووقف ينتظر فتحه ليرى القادم . ففتح الباب ودخل منه حرسي ملثم واشار الى رامز اشارة التحية ثم اوماً الى الخارج . فنظر رامز فرأى رجلاً فوق الكهولة قد تغيرت سحنته وطال شعر راسه ولحيته حتى صار كالنساك الحبساء الذين لا يمسون شعورهم بقص او اصلاح . ومع انتظار رامز لوالده واطلاعه سلفاً عَلَي خبر قدومه فقد انكره لتغير سحنته عما يعرفه اذ تولته الشيخوخة وشاب شعره واسترسل وامتقع لونه من طول الاحتجاب عن اشعة الشمس

اما الوالد فحالما وقع بصره عَلَي ابنه صاح « ولدي رامز حبيبي ! » واكب عَلَي عنقه واخذ يقبله ويبكي من الفرح فلم يتمالك رامز عن البكاء وقبل والده وهو يتفرس فيه . وما لبثا ان تعارفا وعادت الى ذهنيهما الصورة القديمة التي عرفها كل منهما في صاحبه فقال رامز « ابتي ينبغي ان اشكر الله عَلَي وقوعي في هذا الاسر اذ لولاه لم اوفق الى رؤيتك وانقاذك »

فقاطعه ابوه قائلاً « انما الفضل لرضى امير المؤمنين ومراحمه فلو لم يدب الحنو في قلبه لم يات مجيئك ولا اسرك بفائدة . فقد ابلغني هذا الحرسي ان جلالة البادشاه اذن بخروجنا من هنا وانه عهد اليك اموراً خاصة فنشكر الله عَلَي نعمه فالان نحن هنا حتى يشير الينا هذا الحرسي بما نفعل »

اما الحرسي فكان واقفاً لا يتكلم ولما سمعهما يذكرانه استخرج من تحت ابطه صرة

دفعها اليهما على ان يفضاها . ففتحها رامز فوجد فيها اسطمبوليتين مما يلبسه الياوران واشار اليهما ان يلبساهما . ففعل رامز وهو ينظر الى نفسه في المراة فاذا هو كالياوران تماماً ووقف ينتظر ما يشير به الحرسي فاستخرج من جيبه ورقة كالبطاقة دفعها الى رامز وقال له بالاشارة ساخرج بك من هنا ثم تنطلق توًّا الى محطة السكة الحديدية فتدفع هذه الورقة الى رئيس محطتها فيركبك القطر الى سلانيك » والتفت الى سعيد بك واشار اليه ان يلبس فتوقف وقال انه لا يستطيع الخروج من يلدز في تلك الليلة بل يفضل ان يصلح من شأنه قبل الخروج . فاستغرب ابنه ذلك منه وهمَّ وان يعترض فاوقفه الوالد قائلاً « لا بدَّ من بقائي الليلة هنا وساتبعك في الغد فنلتقي في سلانيك . فهل عندك شك بامر العفو ؟ »

قال « كلاَّ »

قال « استحي من نفسي ان اخرج في الاسواق وانا كالنساك .. وقد قضيت في هذا المكان اعواماً وسابقى فيه يوماً آخر وفي الغد اخرج والحقك في سلانيك ان لم يكن في الاستانة

فتاسف رامز على تمسكه بالبقاء وقال في نفسه « لا بد من سبب بعثه على ذلك » فودعه وقبل يده وخرج مع الحرسي فاشار الحرسي اليهما ان يتبعاه ففعلا فجعل الطريق من جهة قصر مالطة . فلما وصلا اليه اشار الحرمي الى سعيد ان يدخل ذلك القصر وامر حراسه ان يستقبلوه باشارات بينهم فهموها . وقاد رامزاً في طريق مجهولة بين الاشجار حتى وصل به الى باب من ابواب السور الخارجي ففتحه الحرسي بمفتاح معه واشار اليه ان يخرج واذا اعترضه خفير من خفراء يلدز خارجاً فليقل له « الذات الشاهانية » وهو شعارهم في ذلك اليوم — وهي اول جملة نطق بها ذلك الحرسي الملثم منذ قدومه ومسيره مع رامز ولم يفعل ذلك الا مضطرًّا . ولما سمع رامز نطقه وجد صوته يشبه صوت عبد الحميد . لكنه لم ينتبه لذلك الا بعد ان فارقه . ولم يخطر له ان ذلك الحرسي هو عبد الحميد نفسه . وانما اعتقد المشابهة بين الصوتين

# الفصل السادس والخمسون

## فلسفة ماكيافيلي

بلغ من دهاء هذه الطاغيـة انه اراد ان يخفي تهريب رامز حتي عن الحرس فلبس لباس الحراس ومشى بين يدي رامزحتى اخرجه من يلدز. وله من وراء ذلك حكمة لايدركها الا الذين فطروا على المكروالدهاء . وبعد رجوعه دخل قصره كمايدخل بعض الحرس الخاص وكان الحرسي الذي لبس ثيابه محبوساً في بعض الغرف فاخرجه وأمره ان يعود الى موقفه فعاد ولم يشك من راي عبد الحميد داخلاً بلباس الحراس وخروج هذا على اثر ذلك انه هو الحرسي الذي دخل

دخل عبد الحميد قصره وكل اهله نيام فنزع تلك الملابس وارتدى ثيـاب نومه ومشى الى غرفة المطالعة وهو ساكت يفكر في ماذا فعله في تلك الليلة هل اصاب او اخطأ ووجد على موقف هناك باقة من البنفسج تعود رئيس الفراشين ان يتحفه بها من وقت الى آخر لعلمه انه يحب رائحة هذا الزهر كثيراً . فتناول عبد الحميد الباقة وتنشقها فانتعش ثم اعادها الى محلها والقى نفسه على مقعد وتنفس الصعداء وهو يهيء سيكاراً ليدخنه . ثم اشعل السيكار وتمدد وبسط رجليه ورفع بصره الى السقف وقد تألقت تلك القاعة بالاضواء وجعل ينفخ الدخان ويتأمل حلقاته وهي تتصاعد متتابعة متعانقة وافكاره منصرفة الى ما اتاه في ذلك اليوم من الامر الغريب .

ثم ناجى نفسه قائلاً « ظن ذلك الشاب اني وثقت به وبوعده ويزداد اعتقاداً بصدقي متى اطلقت والده .. وهو يرى ذلك ثقة مني بهما .. ومن يثق بكم الى هذا الحد . لكن بقاء رامز هنا لا فائدة منه لانه مصمم على الانكار ولا فائدة لي من قتله اذا لم اقتل كبار تلك الجمعية الجهنمية .. وزد على ذلك ان شيرين هنا في قبضة يدي وهو لايعلم فاذا علم بعد ذلك انها رهن عندي على وعده اتعب نفسه في الانجاز وقد اخبرني صائب بك انه يستهلك في حبها فاذا جاءني ولم يفعل ولا هي اعترفت باسماء اولئك الناس قتلتها...ولكن حيلتي ستنطلي على مؤسسي تلك الجمعية ويرون من اطلاقي سراح احدهم بعد ان قبضت عليه صدق نيتي في التماس آرائهم للاصلاح فيأتيني كبارهم ومتى اتوا أذيقهم الموت فيخاف رفاقهم وتضعف عزائمهم وتذهب هذه الجمعية كما ذهب غيرها من قبلها ونتخلص منها »

ثم اعتدل في مجلسه وزمجر كالشبل الجريح ووقف بغتة وقد اخذ الغضب منه وقال « تباً لكم من اغرار جهال .. لن يبلغ كيدكم كيدي .. سوف تذهبون طعاماً للاسماك – اني لا ازال اسفك واقتل حتى تخلو الدنيا من المعارضين لي .. مهما يكن من تقتهم بي فاني على راي ماكيافيلي ... لله در هذا الفيلسوف .. صدقت يا ماكيافيلي ان الرجل العظيم لايستطيع ان يستقل بحكمة وينجو من الرقباء والحساد الا اذا اغضى عما يسمونه الشرف والامانة والوفاء في معاملته اعدائه .. ولا بأس عليه اذا ضحى هذه الفضائل في سبيل المحافظة على الدولة او الوطن وان يستبدلها بالمكر والدهاء وهي ما يسميه الجهلاء خيانة وغدراً ... ليست الخيانة ان احتال على عدوي حتى اظفر به واقتله وانما هو الدهاء – وما فائدة الوفاء اذا اضطرني الى اطلاق سراح رجل اعرف انه يريد قتلي ... بورك فيك يا ماكيافيلي .. نعم اقتل ثم اقتل .. اقتل من شككت به او من تخاف منه شراً ولو على سبيل الشك – تلك هي سياسة كبار الرجال .. وهي التي سار عليها كبار القواد في تأسيس الدول... الم يفعل ذلك ابو مسلم الخراساني نصير العباسيين في تأسيس دولتهم ؟.. الم يفعله بامر الامام ابراهيم العباسي الم يقتل على الشك ؟ ولو لم يفعل ذلك لما قامت للدولة العباسية قائمة .. فهل يلام عبد الحميد اذا سار على خطوات ذلك الامام واقتدى باكبر الفلاسفة العقلاء .. »

كان يقول ذلك قولاً متقطعاً كانه يخاطب رجلاً واقفاً بين يديه ولو رآه احد يفعل ذلك لظنه اصيب بعقله . فلما فرغ من تلك الاقوال رمى السيكار من يده وتناول باقة البنفسج ومشى يطلب الرقاد في غرفة من غرف ذلك القصر على مقعد او كرسي كالعادة في تستره في النوم حتى لا يعلم احد بمرقده – نام في تلك الليلة نوماً متقطعاً واصبح باكراً فبعث الى الباشكاتب وامره ان يستقدم رامزاً في قصر مالطة اليه فاسرع وارسل في طلبه فعاد الرسول واخبرانه غير موجود هناك . فاظهر عبدالحميد الاستغراب وقال « الم يكن هناك في الامس ؟ »

قال « نعم يا مولاي .. ولكنهم يقولون ان حرسياً من حراس المابين جاء في طلبه »

فقال « انها حيلة انطلت عليهم .. كيف تتركون هذا الرجل يفر من بين ايديكم لله ما هذا .. اني لا اقدر ان اثق باحد من هؤلاء المجانين الخونة ... » واخذ يكرر مثال هذه العبارات ويظهر الغضب والحنق والباشكاتب واقف لا يرد جواباً . ثم اظهر عبد الحميد انه هدأ روعه وقال للباشكاتب « ما العمل ينبغي لي ان اتولى كل شيء

بنفسي حتى الاحتفاظ بالسجناء ؟ فالرجل فرَّ ولا فائدة من تعقب آثاره في الاستانة ولا بد انه عائد الى سلانيك فلنغتنم فراره ونستدل على مقر تلك الجمعية » واطرق كانه يعمل فكرته ثم قال « ارسل تلغرافاً الى حبيبنا ناظم بك قل له فيه ان رامزاً الخائن أفلت من ايدينا وعاد الى سلانيك فليستقبله ويظهر له الصداقة ثم يراقب حركاته ويقتص آثاره بدون ان يشعر به حتى يقف على مقر تلك الجمعية فيقبض على من يجدهم هناك وليرسلهم اليَّ مكبلين بالحديد او فليقتل وليفتك .. فاذا استطاع هذه الخدمة رقيناه واجزناه »

وكان الباشكاتب يسمع اوامر عبدالحميد وهو يعجب لدهائه فكتب صورة التلغراف وتلاه عليه فاصلح به بعض الشيء وامر بارساله حالاً فخرج وفعل ما امر به وعاد عبد الحميد الى تفكيره فاعجبه ما اتاه من الدهاء فضحك ضحكة يندر ان يضحك مثلها وقال في نفسه مع الاعجاب بالذي اتاه « ينبغي ان ادبر اموري بنفسي . وهؤلاء اذا صح اخلاصهم فانهم قليلو التدبير » ومشى مشية الخيلاء وهو يقول « اذا صح تدبيري قضيت على تلك النفوس النجسة وعلمتهم من هو عبد الحميد »

ثم وقف هنيهة وقد طرق ذهنه امر شيرين وما دبره من اغراء القادين بها وهو لايشك في انها تنجح في استنطاقها لاعتقاده بدهائها وذكائها وتذكر مايخافه من حملها ووضعها فقال « ومتى فرغت من مهمتها اقتلها لاتخاص من حملها »

وقضى بقية ذلك اليوم في مطالعة التقارير التي اتته من جواسيسه المنبثين في اطراف المملكة وفيها امور هامة لكنه لم يهتم بها بالنظر لاشتغاله بتدبيره الجديد

ولما امسى المساء تزيا بزي حرسي الامس واخرج والد رامز من يلدز كما فعل برامز

## الفصل السابع والخمسون

### الى سلانيك

خرج رامز من يلدز ولم يصدق انه نجا فناداه خفير واقف عَلَى بضعة امتار من الباب « من القادم » فاجابه « الذات الشاهانية » فوسع له ورحب به ومشى معه حتى تجاوز يلدز واصبح بعيداً عن الظنون

وطال مسير رامز قبل ان وصل الى محطة السكة الحديدية فوصلها في الصباح قبيل

مسير القطار فدفع البطاقة الى ناظر المحطة فرحب به وانزله في القطار المسافر الى سلانيك في تلك الساعة في عربة خاصة

فلما جلس في المركبة وخلا بنفسه عادت اليه هواجسه وراجع في ذاكرته ما مرَّ به من الاهوال في ذلك الليل وأخذ يمني نفسه قبل كل شيء بمشاهدة شيرين لانه لم يصدق قول والدها أنها هربت واذا تحقق هربها الى مناستير او غيرها سافر اليها . وفكر في المهمة السياسية التي هو ذاهب بها فلم يخامره شك في صدق عبد الحميد هذه المرة اذ لولا صدق نيته في ذلك لم يطلق سراحه وهو اسير عنده ثم اطلق سراح ابيه فاعتقد انه صادق في ما قاله — على انه استغرب التماس والده البقاء هناك يوماً آخر فوق السنين التي قضاها في اعماق السجن ولكنه آنس منه اصراراً فقال لعل له عذراً او غرضاً وقد خامره ريب من بقائه واسف لتركه لئلا يحدث مايوجب اعادته الى السجن لكنه قال في نفسه « لولم يكن للسلطان غرض في اطلاقه ليس ثمة ما يكرهه عليه »

قضى الطريق في مثل هذه الهواجس وشغل عما يمر به القطار من التلال والاودية والغياض ووصل سلانيك في الضحى فخرج من المحطة بسهولة بتذكرة اعطاه اياها ناظر محطة الاستانة بعلامات بينهم يفهمونها

ولما خرج من المحطة اخرج منديله من جيبه فاذا فيه ورقة مطوية لم يكن يعهدها هناك ففضها وقراها فاذا هي بخط تذكر انه خط والده فقراها فاذا هو يقول فيها « احذر من مراقبة ناظم ورجاله السريين خوفاً من معرفة مقر الجمعية . افعل ذلك ريثما آتيك » فدهش واخذ يفكر في مابعث والده على هذه الكتابة فبعثه ذلك على الشك في ناظم ولم يعبأ بما فيها من سوء الظن بالسلطان ولكنه عزم على المحاذرة

فأول ماخطر له ان يفعله في سلانيك ان يذهب الى بيت خطيبته ولما اطل على المنزل اخذ قلبه بالخفقان وتصور انه سيلاقي شيرين في المنزل فشعر بلذة أنسته متاعبه واخطاره

وصل الى بيت الحبيبة فرآه مقفلاً فسأل الجيران عن اهله فقص عليه احدهم خبر ضياع شيرين منذ ايام وان والدها سافر الى الاستانة واما والدتها فقد سافرت الى مناستير للبحث عنها عند بعض اهلها هناك . فأسقط بيده وتذكر قول طهماز فوجده صادقاً فوقع في حيرة واسودت الدنيا في عينيه وحدثته نفسه ان يتبع الوالدة الى مناستير لكنه عاد الى التفكير في المهمة فتذكر ان تلك الليلة موعد اجتماع الجمعية فعزم على الذهاب اليها وهو لايخاف انكشاف امرها للتدبير الذي دبروه في اخفاء مكانها . ولم يشأ ان يؤجل ذلك الى مجيء ابيه فذهب الى الفندق الذي كان نازلاً فيه التماساً للراحة فوجد رسولا من ناظم

في انتظاره وقال له « ان حضرة القومندان يطلب مقابلته للترحيب به فصدقه وذهب اليه في قصره فرحب به وهناه برضى الذات الشهانية عنه وعرض عليه مايريد ان يخدمه به فاثنى على فضله ولولا الورقة التي وجدها في جيبه لوثق بقوله لكنه اعتذر انه يطلب الراحة في هذا اليوم فدعاه للنزول عنده فاعتذر ومضى الى الفندق وهو يتوقع ان يتبعه الجواسيس فلم يلاحظ شيئاً من هذا القبيل

ارتاح في الفندق بقية ذلك اليوم وهو يهيء ماسيعرضه على الجمعية حتى اذا كان العشاء مشى الى قهوة تعود الاعضاء ان يتفرقوا في اطرافها قبل الاجتماع ليتواعدوا على مكان الاجتماع وكيفية الوصول اليه

## الفصل الثامن والخمسون

### نظام جمعية الاتحاد والترقي

واصطلاحهم في نظام جمعيتهم انها مؤلفة من عدد محدود يغلب ان يكون ١٢ عضواً هم لجنة الادارة عليهم رئيس يسمونه « المرخص » تحاشياً من تمييز بعضهم بالرئاسة فهؤلاء الاعضاء يتعارفون و يجتمعون غير متنكرين للمباحثة في اعمال الجمعية واصدار الاوامر الى الفروع . اما من ينضم الى الجمعية غير هؤلاء فانه لايتأتى له ان يعرف اعضاء اللجنة معرفة شخصية وانما يعرف الشخص الذي يكون واسطة لادخاله فيها وذلك ان احد اعضاء اللجنة اذا عرف شابا من العثمانيين آنس فيه ميلاً الى الحرية وحب الاصلاح قربه اليه وتدرج في اطلاعه على وجود جمعية حرة تطلب الاصلاح فاذا احب الانتظام في سلكها وطلب اليه ذلك وعده بالنظر في طلبه ثم يخاطب اللجنة بشأنه فاذا قبلت به اعطته رقماً (نمرة) يعرف به في سجلاتها ودعته للحضور في جلسة سرية تعينها له يحضرها اعضاء اللجنة متنكرين فيدخل متهيباً ويقسم اليمين على الانجيل او القران والمسدس ويخرج. وهذا العضو الجديد اذا راى صديقاً له استحسن ضمه الى الجمعية قدم طلبه على يد العضو الذي قدمه قبلاً واذا قبل ياتي الطالب الجديد للجلسة السرية ويقسم اليمين ويخرج وهو لايعرف غير صديقه الذى ادخله . واما هذا فصار يعرف اثنين امامه والاخر وراءه واذا دخل اثنين او ثلاثة او اربعة فانه يعرفهم وهم يعرفونه

واعتبر هذا التحفظ ايضاً في العلاقة بين الجمعية المركزية وفروعها في الجهات فانها تتفرع اولا الى شعب (واحدها شعبة) في المدن الكبرى وللشعبة فروع يقال لها قولات «واحدها قول» وكل شعبة او قول مؤلف من لجنة ادارية لها رئيس واعضاء مثل الجمعية المركزية . ومؤسسو الشعب اصلهم من الجمعية المركزية وذلك ان احد هؤلاء الاعضاء اذا راى في نفسه الكفاءة لانشاء شعبة في بلد من البلاد عرض مشروعه على اللجنة فتخول له انشاءها فينتقل الى ذلك البلد ويجتمع باناس يثق بحريتهم وصدقهم ويؤلف معهم لجنة يخبرهم انها فرع للجمعية المركزية ولكنه لا يصرح لهم باسماء اعضائها . ومتى تألفت الشعبة تشتغل في ادخال الاعضاء على الكيفية التي سنتها الجمعية المركزية وهذه اللجنة لا تعرف من اعضاء الجمعية المركزية الا الذي اسس الشعبة

وهكذا يقال في انشاء الفروع الصغرى «القولات» فان احد اعضاء لجنة من لجان الشعب ياخذ على عاتقه انشاء فرع للشعبة ويخرج للقرية ويؤلف لجنة من اهل ثقته لا يعرفون من اعضاء الشعبة الا هو وقس على ذلك

وتختار الجمعية لنشر ارائها صحفاً ينشئها افراد منها يظهرون للناس وقد لا يظهرون

وكان رامز من اعضاء لجنة الادارة في سلانيك فلما اتى القهوة عرف من لقيهم هناك من الاعضاء وكانوا قد يئسوا من حياته فأخبرهم انه جاء بمهمة ذات بال تغنيهم عما يقاسونه من العذاب واخبروه عن محل الاجتماع في بعض اطراف المدينة ودلوه على طريقة الوصول اليه

فتفرقوا من هناك وسار كل منهم الى منزله. وتذكر رامز والده وربما اتى في اثناء الاجتماع تلك الليلة فاسرع الى بيت طهماز واوصى الجار اذا جاء رجل صفته كذا وكذا ان يلحق به الى بيت كذا وهو المكان المؤدي الى محل الاجتماع ولم يلحظ رامز ان احداً يتبعه على انه لم يكترث بذلك لعلمه ان طريقة الوصول الى ذلك المكان لا يستطيع الجواسيس كشفها . فلما كان قبل منتصف الليل خرج من الفندق ومشى في شارع استطرق منه الى اخر فاخر حتى وصل منزلاً طرقه ففتح له فدخل فيه ثم خرج من باب سري منه الى زقاق لا يهتدي اليه غير العارف فاذا تعقبه جاسوس لا يشك ان ذلك المنزل هو محل الاجتماع فاذا دخله وسأل عن القوم لا يجد فيه احداً ولا يهتدي الى المكان الذي خرجوا منه. وهو منزل بعض الاجانب مما لا يجسر رجال الضابطة ولا غيرهم ان يطرقوه ولم يكونوا يذهبون كل اجتماع في نفس ذلك الطريق . فاوصى رامز صاحب ذلك المنزل اذا اتى والده ان يرشده الى محل الاجتماع ويخبره عن كلمة السر

فلما صار رامز في الزقاق اصبح في مأمن من الرقباء ومشى مدة في طرق مبهمة حتى انتهى الى محفل ماسوني يجتمع فيه الماسونيون ولاحرج عليهم وقد احيط المكان في تلك الليلة بالرجال من اعضاء الجمعية المنبثين في جهات مختلفة لا يراهم احد وعليهم العدة والسلاح للدفاع عند الحاجة

فلما وصل الى الباب تلفت حتى تحقق خلو الطريق من الجواسيس فطرق الباب طرقاً مخصوصاً ففتح له فدخل في دهليز مظلم الا مصباحاً في احد اركان الدهليز نوره متجه بواسطة عدسية مقعرة نحو الباب فيقع النور شديداً على وجه الداخل بحيث يرى ولا يرى وقد اصطف(١) في الدهليز صفان من الرجال عليهم البسة سوداء وقد تلثموا حتى لا تظهر منهم الا العيون . فحالما دخل رامز رفع الحراس سيوفهم المجردة فوق رأسه فاشار اشارة ففتحوا الطريق فدخل الى غرفة يعرفها فاتشح فوق ثيابه برداء اسود يغطيها كلها ولها كساء للراس كاللثام يرسل على الوجه عند الحاجة ومشى الى قاعة الجلوس يتقدمه احد الحراس ليهديه الى الباب فلما وصله قرعه قرعاً خاصاً ففتح له ودخل وفيه ١٢ كرسياً هي مقاعد لجنة الادارة لا يحضر تلك الجلسة سواهم الا باذن خاص وكان رامز واحداً منهم كما تقدم. وقبل دخوله اوعز الى الحراس اذا جاء والده وادى العلامة اللازمة ادخلوه اليهم بالطريقة المعروفة

# الفصل التاسع والخمسون

## الجلسة

فلما صار رامز في داخل القاعة طرق المرخص على الطاولة طرقة خاصة معناها الدعوة الى الجلوس فجلس على كرسي من الاثني عشر كرسياً وكانت القاعة مربعة الشكل يحيط بها الكراسي وفي صدرها المرخص او الرئيس وامامه طاولة عليها كساء اسود وفي منتصف القاعة طاولة صغيرة عليها الانجيل والقرآن والمسدس وفي صدر القاعة فوق مجلس الرئيس صورة مدحت باشا مجللة بالسواد . فعرف رامز من الاعضاء الاميرالاي حسن رضا بك من الطوبجية والقائمقام فائق بك اركان الحرب والبكباشيين اركان الحرب فتحي بك(١) وحقي بك والمحامي رفيق بك وطلعت بك والبكباشي انور بك والقائمقام اركان حرب جمال بك ورحمي بك وغيرهم . وكل الحضور بالبسة سوداء

(١) خواطر نيازي

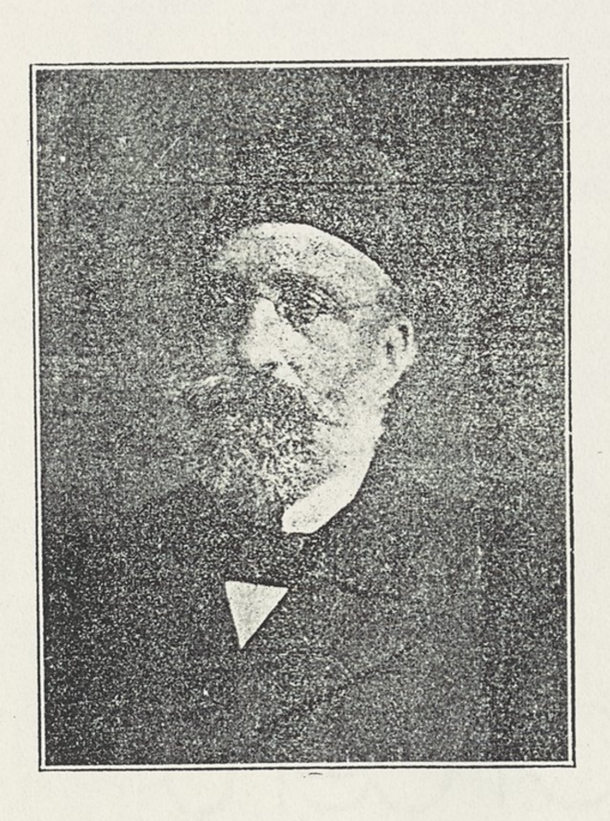
وقد رفعوا اللثام عن وجوههم لانهم اعضاء لجنة الادارة

فلما استقر الجلوس بالاعضاء قال الرئيس « تفتتح الجلسة باسم الله وبذكرى مدحت باشا ضحية الدستور »

فوقف الجميع احتراماً ثم جلسوا وقال الرئيس « ايها الاخوان ان اخانا رامزاً قادم الينا من يلدز بمهمة خصوصية يرجو منها خيراً فلنسمع ما يقول »

فوقف رامز وقال « انتم تعلمون اني أخذت غيلة الى يلدز منذ ايام ولعلكم قطعتم الامل من حياتي لان الذاهب الى ذلك المكان كالذاهب الى الجحيم »

فضحك الحضور وقال الرئيس « علمنا بذلك وكانت اخبارك تأتينا بواسطة احد اخواننا الشجعان هناك لا نظنك تعرفه .. »



مدحت باشا

فاستغرب رامز ذلك وقال « اني لم اشاهد احداً لاني قضيت مدة مكثي هناك في مكان منفرد عن الناس »

قال « ان اخانا هناك اخبرنا ببعض ما قاسيته وقال انك كنت مسجوناً في قصر مالطة »

فازداد استغراباً لانه لم يكن يعرف وجود جاسوس للجمعية هناك فقال « نعم اني كنت مسجوناً وقد قاسيت كثيرًا ولي الشرف اني قمت بالقسم الذي اقسمته بالنظر الى الجمعية المقدسة فلقيت السلطان وغيره من رجال المابين والحوا عليَّ ان ابيح باسماء الاعضاء العاملين فيها فابيت وكنت اتوقع ان اتشرف بالقتل في هذا السبيل لكن فتح لي باب لم يسبق لاحد انه وفق الى مثله وفيه منجاة من سفك الدماء والوصول الى المقصود على اهون سبيل »

فتطاول الاعضاء باعناقهم لسماع حديثه وتعرَّض الرئيس قائلاً « ما هو ذلك الباب ايها الاخ انا من ارغب الناس في المسالمة وانت تعلم ان خطة جمعيتنا هذه نيل الدستور وانقاذ هذه الدولة من الدمار بالطرق السلمية ما استطعنا الى ذلك سبيلاً »

فقال رامز « ولعلمي بذلك فقد عددت ما وفقت اليه نجاحاً باهرًا »

فاستأذن انور بك وقال « هل يأتي من المابين امر فيهِ مصلحة لا يعتورهُ سفك الدماء ؟ . اني لا ارى الاصلاح ينال بغير السيف وسفك الدماء »

فقاطعهُ الرئيس قائلاً « لله درك يا انور من رجل حرب وحزم . ولا يمنعنا ذلك من الاصغاء الى مايعرض علينا وليس على الله مستحيل »

فعاد انور الى مجلسه وهو يقول « ليس على الله مستحيل — هات ايها الاخ ما عندك »

فقال رامز « انتم اهل حرب وكفاح يهون عليكم القتل . واما انا فاني ربُّ قلم وبحث ولا ارى الوصول الى الاصلاح بالحسنى مستحيلاً ومع ذلك فاني عارضٌ عليكم ماجئت من اجله »

## الفصل الستون

### حديث رامز

فاصغى الجميع واخذ رامز يقص حديثه مع السلطان حتى اتى الى مادار بينهما في قاعة قصر چيت وكيف اعترف عبد الحميد بخطاه وكلفه ان يخابر اعضاء الجمعية بشأن المجيء اليه وكيف اطلق سراحه لهذا الغرض ـ الى ان قال « ومما يؤكد لي صدق نية السلطان هذه المرة انه اطلق سراحي بعد ان كنت في قبضة يده . وفعل ذلك سرًّا عن كل

انسان حتى تولى اخراجي سرًّا بنفسه — وقد اطلق سراح والدي ايضاً وانتم تعلمون انا يئسنا من بقائه حيًّا و. »

فلما ذكر والده ظهرت البغتة على الحضور ولم يتمالك الرئيس عن قطع حديث رامز قائلاً « والدك اتى معك ؟ اين هو ؟ »

قال « لم يأت معي فانه استمهلني ريثما يصلح من شأنه ويأتي في الغد .. الا تعدون هذه المعاملة دليلاً على اقتناع عبد الحميد بخطإه وانه أُلهم الرجوع الى الصواب على ايدي الاحرار العثمانيين ؟ »

وكان الكل يسمعون وهم يستغربون هذا الاقتراح فلما فرغ من كلامه قال الرئيس يخاطب الاعضاء « انتم تعلمون قانون جمعيتنا المقدسة ولا يخفى عليكم ان قانونها انما هو المطالبة بالدستور وقلب الحكومة الاستبدادية بالحسنى بلا سفك دماء على قدر الامكان . ولذلك فلا يمكننا رفض اقتراح عبد الحميد مع ما فيهِ من نيل الدستور على اهون سبيل . ولا يخفى عليكم ايضاً ان هذه الجمعية ترى اذا نالت الدستور ان لا تلحق بالسلطان سوءًا — اذ لا رغبة لنا في الانتقام وانما نريد الاصلاح »

فوقف انور بك وشارباه المرتفعان ينتفضان من التأثر وقال « يا اخواني ان اقتراح عبد الحميد جميل وحجب الدماء جميل — اما نيل الدستور بالحسنى فنعمة لا مثيل لها — ولكن ذلك يخالف النواميس الطبيعية الاجتماعية التي جرت عليها الامم من اقدم ازمنة التاريخ . هل سمعتم بامة نالت حريتها وقلب حكومة الاستبداد الا بالسيف ولله در الشاعر العربي القائل :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

لا نقول ان نيل الدستور بالحسنى مستحيل ونحن في الواقع ساعون فيه جهد طاقتنا ولكنني ارى امر ذلك يطول وقد جعلنا هذه الجمعية عسكرية واعضاءها اكثرهم من الضباط الشجعان المثقفين الذين يعرفون قدر الحرية او الكتبة الاحرار العارفين فينبغي لنا ان نبادر الى العمل .. هذا هو رأيي ولا ارى اقتراح ذلك الطاغية الا حيلة يدبر لنا من ورائها مكيدة » قال ذلك وجلس وحصل ضجيج استحسان وسمع صوت احدهم يقول « اقتل .. اقتل .. لا يفيد غير ذلك .. » فعلم الجميع انه صوت احد الضباط الحاضرين وهو الملازم ك . وقد عرفوا فيه الحماسة فضحكوا واعجبوا ٠

اما الرئيس فوجه كلامه الى انور بك وقال « لله درك يا انور وبارك الله في بسالتك وحزمك ان جمعية فيها امثالك فائزة باذن الله . ولكننا نبحث عن اقتراح عرضه علينا

ذلك السلطان وهو يوافق غرض جمعيتنا هل نرفضه بتاتاً ؟ »

فنهض القائمقام فائق بك وقال « ايها الاخ المرخص ان قانون جمعيتنا المقدسة لا يؤذن لنا برفض هذا الاقتراح .. صدقت ولكن الاختبار الماضي يدلنا على ان هذا الرجل لا يركن اليه ولا يوثق بقوله . كم استرضى الاحرار بمثل هذه الوعود ثم غدر كما فعل بجمعية باريس وحديث مراد وغيره اشهر من ان يذكر واول وعد غدر به يوم مبايعته الم يعد مدحت باعلان الدستور والثبات عليه ثم اخلف ولم يعلنه الا قهراً وما زال حتى افسده




البكباشي انور بك

وفتك باصحابه . ثم ان هذا الرجل عامل بفلسفة ماكيافيلي الايطالي في السياسة ولا يقرا غير كتبه وهي تعلّم الفتك بالناس في سبيل مصلحة الدولة بلا مبالاة بالشرف وبالوفاء وقد زاد عبد الحميد عليه اقتداره العجيب على اخفاء عواطفه والتظاهر بما ليس فيه كما تعلمون — ولو انه اقترح علينا المخابرة كتابة لم يكن ثمة بأس من القبول باقتراحه

اما الذهاب الى يلدز مدفن الاحرار فانا لا اوافق عليه بل ارى اننا اليوم في خطر اشد مما كنا فيه قبلاً »

فصاح انور بك « تمام . تمام »

فنهض رامز وقال « يحق لكم الشك في ما سمعتموه وانا ظللت برهة وانا بين الشك واليقين ولكنني رايت الدمع يتساقط من عيني عبد الحميد وهو يتكلم واصبح بين يديَّ كالطفل النادم على ذنب اقترفه خوف العقاب . اما المخابرة عن بعد فلا تفيد لانه يريد ان يفعل ما يفعله ولا يشعر به رجال المابين وقد اصبح يخافهم على حياته اذا شعروا انه ناقل النفوذ من ايديهم الى ايدي اعدائهم . وسيأتي والدي ولهُ فيهِ راي كما تعلمون »

فقال الرئيس « نؤجل الحكم في هذه المسألة للتأمل فيها واذا شئتم ان نعقد جاسة عامة يجتمع فيها سائر الاعضاء غير اللجنة فعلنا . . »

فصاح الجميع « موافق »

فوجه الرئيس كلامه الى رامز قائلاً « شغلنا بهذا البحث عن حديث والدك سعيد بك . . هل ظفرت به في يلدز ؟ »

قال « نعم وسيكون هنا الليلة او في الغد »

فقال حقي بك « سعيد بك صديق مدحت باشا لا يزال حيًّا ؟ »

---

# الفصل الحادي والستون

## مدحت وسعيد

قال الرئيس « نعم . نحمد الله عَلَى ذلك . لعلكم تعلمون مهمة هذا الاخ . او بعضكم لا يعلمها فاقصها عليكم بالاختصار لاني صديق قديم لسعيد بك . . كان اخونا المشار اليه اكثر الاحرار التصاقاً بابينا واستاذنا مدحت صحبه في اكثر مصائبه ونكباته حتى رافقه اخيراً الى منفاه في الطائف لانه كان يتعشقه او هو يتعشق الدستور الذي ذهب ضحية عنه وقد قصَّ عليَّ الفظائع التي قاساها مدحت في منفاه من الجوع والتعذيب الي القتل. اخبرني الاخ سعيد انه شهد مقتله عَلَى ايدي تسعة من الخونة فيهم ضابطان احدهما شركسي خانا

الشرف العسكري والباقون من الانفار قتلوه خنقاً وقطعوا رأسه وارسلوه في صندوق شحنوه الى يلدز وكتبوا عليه انه يحتوي عاجاً يابانياً وادوات صناعية لجلالة السلطان .
قص سعيد علي" ذلك وهو يبكي وقد بكيت معه ولاشك انكم تشاركوننا بمصيبة ابي الاحرار ان عبد الحميد قتل مدحت ولكنه لم يقتل روحه وتعاليمه . ووجودنا في هذا المجتمع وسعينا في سبيل الدستور انما هونسمة من تلك الروح الطاهرة . وليس ذلك كل افضال مدحت فانه علمنا تجنب الخطر وعدم الاركان الى المواعيد اقتداء به، وقد بعث الى الاحرار العثمانيين رسالة شفهية عَلَى يد الاخ سعيد بلغنا اياها وقال ان هناك وصية مخطوطة كتبها المرحوم وهو في قصر مالطة يوم قبضوا عليه واخذوا في محاكمته تلك المحاكمة الظالمة وكانه احس بالخطر القريب وهو هناك فاغتنم انفراده وكتب وصية للاحرار ووضعها في مخبأ في قصر مالطة عَلَى ان يحملها معه ويدفعها الى بعض خاصته بعد خروجه من ذلك القصر . فاخرج فجأة ولم يمهل ريثما يأخذ الوصية فبقيت هناك وظن نفسه يعود بعد تقلب الاحوال فلما يئس من ذلك واحس بقرب الاجل اسر" الى سعيد خبر الوصية ودله عَلَى مخبأها في قصر مالطة واوصاه ان يتلوها على الاحرار العثمانيين حيثما وجدوا . فلما عاد سعيد من الطائف اخذ يبث افكار مدحت سراً وانتم تعلمون اكثرها . واصبح يترقب الفرص لاستخراج الوصية فلم يستطع دخول يلدز بالحيلة الا منذ بضع عشرة سنة ونحن في انتظار رجوعه الى الآن . فانا اعد خبر خروجه فوزاً لنا وبشارة تدل عَلَى قرب النجاة من اسر الاستبداد واطلاق روح الدستور »

وكان الجميع سكوتاً لان الحديث اكثره جديداً عَلَى مسامعهم حتى رامز فانه لم يكن يعرف من هذه التفاصيل الا قليلاً فلما فرغ الرئيس من كلامه نهض انور بك وكان في اثناء الحديث غارقاً في التفكير وقال « هل يطول بنا انتظار الاخ سعيد بك ؟ »

فقال رامز « ارجوان يكون هنا الليلة او غداً ولعله تاخرليأتي بالوصية معه . هذا ما خطر لي الآن عَلَى اثر ما رأيته من رغبته في البقاء هناك يوماً آخر وقد اوصيت من يلزم اذا جاء الليلة واراد المجيء الى هنا ان يأتي »

فقال « اما وقد دنا مجيئه ومعه وصية مدحت فلنؤخر حكمنا في هذا الامر حتى نتلو الوصية ولا شك اننا سنجد فيها اموراً هامة »

وهم في ذلك سمعوا قرع الباب الخارجي فانصتوا وبعد برهة قرع باب القاعة ففتح الحارس فدخل احد الحراس يقول « ان اجنبياً لا اعرفه يريد الدخول فلم ناذن له فطلب ان يرى الاخ رامزاً »

فتأكد الرئيس ان القادم سعيد بك فاذن رامز ان يذهب لاستقدامه فخرج ولبث الجمع في انتظاره عَلَى احر من الجمر. وبعدقليل عاد رامز ومعه ابوه فاشار الرئيس الى الجميع بالنهوض اجلالاً له وقال الرئيس « اننا نقف لك ترحاباً بك واقراراً بفضلك في خدمة الحرية . وايضاً لانك رسول استاذنا مدحت »

فحياهم ووقف فاشار اليه الرئيس ان يقعد عَلَى كرسي بجانبه احتفاء به فقعد والدهشة ظاهرة في طلعته وابنه رامز ينظر اليه ويتأمله فرأى فيه الصورة التي يعرفها ولم يلحقها الا تغيير قليل. ولما استقر الجلوس بسعيد سكت الجميع في انتظار ما يقوله. اما هو فمكث هنيهة صامتاً مطرقاً كانه تهيب من تلك الجلسة او انها اذكرته أُموراً محزنة ثم التفت الى صورة مدحت المعلقة بالحائط وتفرس فيها طويلاً والاعضاء ينظرون اليه كان عَلَى رؤوسهم الطير فلاحظوا قطرات من الدمع تتساقط عَلَى لحيته وهو يتجلد فاراد الرئيس ان يشغله عن تذكاراته المحزنة فقال « ان فرحنا بقدومك كثير وخصوصاً بعد نجاة اخينا رامز من خطر القتل ولا شك انك تشعر بما في قلوبنا من البهجة بهذا اللقاء بل نحن نستبشر خيرًا بقدومك يا حامل رسالة ابينا وقدوتنا شهيد الحرية . لا ينبغي ان نحزن عليه فانه لا يزال حياً بيننا حتى ناخذ بثاره ونتم عمله فيبقى ذكره خالداً . . نحن في انتظار الوصية المكتوبة . هل وقفت عليها ؟ »

فتنهد وقال « نعم انها معي وقد سجنت من اجلها اعواماً وهي اقرب اليَّ من حبل الوريد ولكن السجن حال بيني وبينها لان اهل يلدز اشتبهوا بمقاصدي فسجنوني وعذبوني لاطلعهم عَلَى غرضي من وجودي في قصر مالطة بلا مناسبة فلم اجبهم ولم اشأ ان احتال في الخروج بدون الوصول الى هذه الوصية حتى اتيح لي النجاة امس مع ولدي كما اخبركم فطلبت البقاء هناك يوماً آخر فبقيت بلا رقيب فاستخرجت الوصية من مخبائها وخبأتها بين اثوابي بحيث يستحيل الاطلاع عَلَى مكانها وها هي » قال ذلك واستخرج اوراقاً تأكلت اطرافها لطول دفنها في التراب وتهرأت ودفعها الى الرئيس فشخصت الابصار وتطاولت الاعناق لما سيتلى عليهم

# الفصل الثاني والستون

## وصية مدحت

فنهض سعيد لمساعدة الرئيس في ترتيب الاوراق ومعرفة اولها وآخرها وتعرف الرئيس خط مدحت فقبله وقال « هذا خطه رحمه الله » وعاد الى الترتيب ثم قال « ان هذه الوصية مكتوبة بالسرعة الكلية ولذلك فهي اسطر متقطعة اشبه بالمفكرات منها بالوصية فابدأ بما على ظهرها » وقلب الورقة وقرأ « الدستور اطلبوه بالسيف »

فلم يتمالك انور ان صاح « برافو.. بالسيف بالسيف » فنظر اليه الرئيس بلطف كانه يوبخه على مقاطعته ولم يكن انور بك ممن يقاطعون بل هو من اعلم الناس بالاصول والقواعد لحفظ النظام ولكنه سر بمطابقة قول مدحت لرأيه فغلب عليه فرحه فقال تلك الكلمة اما الرئيس فعاد الى القراءة فقرأ « سأذهب ضحية طلب الحرية ولكنني فرد لا تذهب بذهابه تلك الروح التي اخذت تدب في انفس العثمانيين . روح الحرية انتشرت في الشبيبة العثمانية ولا بد ان تزداد انتشاراً كل يوم بطبيعة العمران فموت واحد من الاحرار او عشرة او مئة لا يستطيع ان يقف في سبيلها . ولذلك فانا اكتب هذه الاسطر اخاطب بها تلك الروح الممثلة بالشبيبة العثمانية ...اثبتوا في طلب الحق فانكم ستنالونه. لا بد من نيل الدستور لانه حق وان طال الامد على ضياعه .. لا بد من تغلبه ولكنني ارشدكم الى أمور عرفتها بالاختبار الشخصي ولو عرفتها قبل الآن لم تصل ايدي الظالمين اليَّ ولا افات الدستور من يدي ولكنني وثقت وارفقت فذهب سعيي بين الرفق والثقة فاحذروا من ذلك وهذه وصيتي بالاختصار فان الوقت لا يساعدني على التطويل وانا مطلوب للوقوف امام تلك المحكمة الظالمة ولا البث ان يحكم عليَّ بالقتل او النفي فاكتب مختصراً :

١ : علموا الامة رقوا العامة ان الجهل سبب كل علة . ولا اعني التعليم المدرسي كالصرف والنحو والحساب ولا الطب والهندسة والقضاء وانما اعني تربية الشبان وتدريبهم على الحرية الشخصية واستقلال الفكر وبث روح الوطن في نفوسهم حتى يدركوا ما هو — وهذا يقتضي تعليم المرأة فانها روح الامة — فاذا ارتقت وتثقفت نشأ ابناؤها على مثالها فالامة التي نساؤها مثقفات او مرتقيات ينشأ ابناؤها اهلاً للحرية ولو لم يتعلموا فان القصد التربية وهذه لا تثبت الا اذا رغبت في الصغر . فاول وصاياي ترقية الشعب وتدريبه على روح الحرية ولو كان لهذه الامة التعسة شيء من ذلك الان لما اذنت بحل مجلس المبعوثان

وقُتل الدستور وانصاره وهي نائمة لا ترفع صوتاً ولا تجرد سيفاً ـ انا ذاهب ضحية هذا الجهل فاستفيدوا منه واذا علمت ان قتلي يأتي بفائدة فاني اتلقى الموت مسروراً

٢ : احذروا من الشقاق بين العناصر والاديان ان الدستور العثماني يحتاج الى هذه الوصية اكثر مما الى سائر الوصايا لاختلاف العناصر والمذاهب في هذه المملكة . دعوا التعصب الجنسي او المذهبي واتحدوا في العثمانية . لا تذكروا الاسلام والنصرانية او اليهودية ولا التركي والعربي او الرومي او البلغاري او الالباني اغضوا عن هذه الاختلافات لانها اكبر سلاح يحاربكم به اعداء الحرية الظالمين . هم يفرقون بين العناصر والمذاهب ليستتب لهم الاستبداد ويأمنوا اجتماع الايدي على مقاومتهم . كلكم مظلوم وكلكم موتور . ان الظلم لا يخص طائفة دون اخرى ولا مذهب دون آخر فاتحدوا

٣ : اجعلوا معولكم في الدفاع على الجندية الفوا الجمعيات السرية وادخلوا الجند فيها .. الجند هم الامة وباسيافهم يحمى الدستور وتستقر الحرية . ان لم يكن الجند معكم فسعيكم في سبيل الحرية يذهب عبثاً — بالجند حاربنا هذا الطاغية ، لو كانت الجندية معنا لفعلنا كما نشاء — لا تفلح امة في طلب حق من حكومتها ان لم يكن الجند نصيرها ويشترط ان يكون متعلماً مثقفاً ، عولوا على الضباط وهم قادة العساكر . اما العساكر فالجهل يجعلهم أتباعاً لكل ناعق يباعون ويشترون واما الضابط المتعلم الممرس بالفضيلة فانه سيف قاطع ـ اجعلوا معولكم على الضباط المتعلمين فهم وحدهم يدركون معنى الحرية وهم وحدهم يحمونها باسيافهم . . »

فحدثت تمتمة ولو اتيح للسامعين الكلام لصاحوا « لتحي الجندية » ولكن ظهر هذا القول بتمتمتهم وعاد الرئيس الى القراءة فقال :

٤ : وهذه وصية خاصة احرضكم على العمل بها فقد كلفتني حياتي وحياة كثيرين امثالي من الاحرار — ان الحُرَّ الصادق قريب من التصديق كثير الوثوق وقد يجره وثوقه الى الخطر لان الناس حوله على غير ذلك — وخصوصاً عبد الحميد اذا وصلت وصيتي اليكم وهو حيٌّ فاوصيكم ان لا تثقوا باقواله ولو اقسم الايمان واغلظ القسم فانه كاذب الا اذا كان قوله عائداً الى اشباع مطامعه ـ احذروا من الوثوق به فان الوثوق جرني الى الموت .. لا تصدقوه ولو اقسم وظهرت علامات الصدق في وجهه فان ذلك الوجه لا مثيل له من حيث التلوُّن . ان فيه شيئاً لا اعرفه في سائر الوجوه يوهمك منظره انه صادق وما هو كذلك . له قدرة غريبة على اقناع مخاطبه وقد يتظاهر بالبكاء ندماً واسفاً وهو ينوي غير ما يقول فاحذروه »

فلما بلغ الرئيس الى هنا وقف انور بك وقال « استأذن الاخ المرخص ان اقول فليحى مدحت ابو الاحرار . . . هذا هو الرأي الصواب وقد جاء قوله فصل الخطاب »

فابتسم الرئيس وعاد الى القراءة فقرأ :

٥ : بقيت وصية ربما تعجبون منها لعلمكم بالقواعد التي تقتضيها الحرية — ان الحرية تقتضي العدل والرفق وحجب الدماء ولكنها لا تنال الا بسفك الدماء — اعني الفتك بالافراد الذين يقفون في سبيل اغراضكم . لان رجلاً واحداً شريراً قد يكون وجوده سبباً في خراب امة او ضياع حقوقها . فاذا كان الحق لا يقضي بقتله فالسياسة تقتضيه — افتكوا بالاشرار .. اقتلوهم .. واذا كانت الجندية معكم فليس اهون عليكم من ذلك — كل من تأكدتم سعيه ضد الحرية والدستور اقتلوه وانا المسئول عن ذنبكم بقتله . انكم اذا قتلتم شخصاً تحيون امة — لو اتيح لي ان اعرف ذلك قبل الآن لكنتم رافلين الآن في بحبوحة الدستور ولكن تلك سنة الله في خلقه يستفيد الابناء من اختبار الآباء

ولما فرغ من قراءة هذه الوصية تنفس الصعداء ولم يتكلم احد الا الشاب الملازم ك فانه تنحنح تصديقاً لما سمعه وعاد الرئيس الى القراءة :

٦ : اذا اتيح لكم الفوز بالدستور احذروا ان تبقوا هذا الطاغية على كرسي السلطنة وان ظهر لكم انه تاب ورجع فانه يظهر غير ما يضمر

٧ : لي وصية اخرى هي آخر الوصايا تتعلق بتوارث الملك في الدولة العثمانية . ان طريقة التوارث الجارية الى هذه الغاية لا تخلو من الخطر على الدولة اذ يكون ولي العهد شخصاً معيناً هو اكبر ابناء السلاطين سناً فقد يتفق ان يكون غير كفء لادارة امور الدولة فاذا اعلن الدستور وصارت الحكومة العثمانية دستورية اصبحت مقاليدها في ايدي النواب فينبغي ان ينظروا في توارث الملك انه عظيم الاهمية ان لم يكن حال الانقلاب فبعده عند سنوح الفرصة . والذي اراه ان يبقى حق السيادة في آل عثمان يتوارثونها بشرط ان يكون كل بالغ من ابنائهم مرشحاً لولاية العهد وانما يكون للامة او مجلس نوابها ان يختار منهم من يجد فيه الكفاءة لهذا المنصب — لا انكر ما يعتور هذه الوصية من العقبات ولكنها لازمة

اخيراً استودعكم الله وانا ذاهب لاموت في سبيل الدستور ؟ (مدحت)

# الفصل الثالث والستون

## المفاوضة

فلما فرغ الرئيس من تلاوة الوصية قعد وقال « قد سمعتم هذه الوصايا الثمينة وبعضها قد سمعناهُ شفاهاً من اخينا سعيد وبعضها جرّتنا اليهِ الحوادث واقتضته الاحوال فما رايكم ؟ »

فنهض المحامي رفيق بك وقال « ان بعض هذه الوصية قد عملنا به على قدر الامكان وبعضها يحتاج الى نظر فنرجو من حضرة المرخص ان يعرض هذه المسائل واحدة واحدة ويأخذ الآراء بشأنها »

فقال الرئيس « ان تربية الامة هذا امر اقتضتهُ طبيعة العمران وان كنا لم نستطع شيئاً كثيراً لوقوف حكومة الاستبداد في طريقنا . اما الجمع بين العناصر فانه وجهتنا وان كنا قد تأخرنا في اتباعه كما تعلمون فوصية ابينا واستاذنا مدحت تجعلنا نثبت فيه . وهكذا وصيته في التعويل على الجندية فانها خطتنا الجديدة وقد وصلنا اليها بعد طول الاختبار ونعم الرأي هو . اما تحذيره ايانا من عبد الحميد وعدم الركون الى مواعيده فقد اتى في ابان الحاجة اليه ونحن في اضطراب وتردد . واظن هذه الوصية تكفي للفصل في هذه المسألة . فهل تترددون في رفض اقتراح عبد الحميد الذي اتانا به الاخ رامز ؟ » واشار الرئيس الى الاعضاء يطلب رايهم في ذلك فصاحوا بصوت واحد « مرفوض »

فقال الرئيس « والفتك — ما قولكم به ؟ ان غرضنا حتى الساعة ان ننال الدستور بلا فتك ولا قتل ولكن استاذنا مدحت يلحّ في تحريضنا على الفتك فما قولكم ؟ »

فوقف انور بك وقال « ان استاذنا يعين الاحوال التي يجوز فيها الفتك ويقول اذا وجد شخص كثير الاذى للاحرار ووجوده حجر عثرة في سبيل مقاصدها فلنقتله ان هذه سياسة الملك يقضي بها العقل والعدل — فان قتل شخص واحد افضل من ضياع حقوق امة برمتها . . »

فاستأذن الملازم للكلام وهو شاب في حدود الخامسة والعشرين من عمره قد امتلأ صدره حماسة وتدفقت عيناه ذكاء وحدة فبشّ له الرئيس واذن فقال « اذا كانت السياسة لا تقضي فالحق يقضي . ان اهل المابين واتباعهم اعداء لنا وهم

يقتلون مناعشرات قتلاً تسيل منه الدماء فضلاً عن قتل الحرية واماتة الشعائر . وشريعة الحرب تجيز ان نقتل منهم من يقف في طريقنا . هم يقتلون منا طلاّب الدستور ونحن نقتل من يسعى في قتل الحرية والاحراروكل واحد منا يساوي مئات منهم » قال ذلك وعيناه تبرقان وصدق اللهجة ظاهر في كل حركة من حركاته

فاشار الرئيس مبتسماً ان يقعد وقال مخاطباً الجلسة « هل توافقون على الفتك عند الحاجة . هذه خطوة جديدة في جمعيتنا تأملوا قبل الاقرار عليها انها خطوة مهمة جدًّا فما قولكم ؟ »

فاستأذن سعيد بالكلام فاذن له فقال « ان هذه الشريعة قديمة وانا اعتقد انها ستكون الدواء الناجع لهذه الحالة . انكم تفتكون ببضعة من كبار الظالمين حتى تصغر نفوسهم ويهابوكم اذ يعلمون انكم لاتقتصرون في الدفاع على الاقلام ولكنكم تدافعون بالسيوف ايضاً . وهؤلاء القوم لايفهمون الا بالارهاب نخاطبوهم بلسانهم وانا الضمين بفوزكم باذن الله »

وكان لكلام سعيد وقع عظيم في نفوس الحضور حتى لم يبق الا من وافق على هذا الراي ولما عرضه الرئيس على الاكثرية أقرُّوا عليه بالاجماع وكان الجهادية اكثر سروراً به لانهم اهل سيف . ومع ذلك وقف الرئيس وقال « نقبل هذا القرار رغم ارادتنا لانه مخالف للخطة التي رسمناها من اول انشاء جميتنا لكننا قبلناها أولاً لانها وصية ابينا واستاذنا وثانياً لان السياسة تقتضيها وقد اقر عليها الاعضاء »

ثم عرض مسألة بقاء عبد الحميد على العرش اذا اخذ الدستور فاختلفت الاراء فيه وفي الوصية التالية واتفق الراي ان ينظر في ذلك فيما بعد . فاذا وفقوا الى نيل الدستور تصرفوا حسب الاحوال

ثم اوعز الرئيس الى الكاتب ان يبلغ هذا القرار الى شعب الجمعيـة في مناستير وغيرها فاجاب مطيعاً ثم سأله الرئيس « كم هي الساعة »

فقال الكاتب « الساعة الثانية بعد نصف الليل »

فقال الرئيس « لم يأتنا خبر حتى الساعة من الاخ المقيم في يلدز وقد عودنا ان يرسل الاخبار كل يوم او يومين »

فقال الكاتب « لم يتأخر عن الارسال فقد اتتني رسالته في هذا المساء ولم اتمكن من حلها قبل مجيئي وانا اشتغل الآن في حلها على الارقام ( شيفرا ) »

فاستأذن رامز ان يساعده في حلها لانه خبير بذلك فاذن له . ثم اشار الرئيس ان تعطى

عشر دقائق استراحة ريثما يفرغ الكاتب من حل رموز تلك الرسالة فنهضوا وخرجوا لقاعة الاستراحة والتفوا جميعاً حول سعيد ورامز وجعلوا يسألونهما عما مرَّ بهما من الاهوال ويتحادثون ويتفاوضون وتناولوا بعض المنعشات . ثم عادوا الى الجلسة فقال الرئيس للكاتب « هل في رسالة اخينا شيء جديد ؟ »

فقال « نعم يا حضرة الاخ المرخص »

قال « اقرأها »

فقرأ « خذوا حذركم ان المسألة اخذت دوراً جديداً انتبهوا جيداً ان الطاغية بعث الى ناظم بك قومندان سلانيك ان يفتك بالجمعية ويقتل على الشبهة فمن قدر ان يقبض عليه ويرسله الى سلانيك ارسلهُ والاّ فهو مفوض بالقتل سريعاً وله الجوائز على ذلك ـ واخشى ان يطلع على محل الجميعة فيباغتكم برجاله اعوذ بالله خذوا حذركم »

## الفصل الرابع والستون

### الفتك

وكان الكاتب يقرأ والقوم صامتون مبغوتون فلما فرغ من القراءة ضج الحضور وكان اعلاهم صوتاً الملازم ك فانه قال « قد اقترب اجلهُ ... قولوا رحمة الله عليه »

فعجبوا من تعبيره وفرحوا بحماسته ولكن الرئيس طلب النظام للجلسة فانتظمت فقال « قد سمعتم ما جاءنا من اخينا في يلدز بشأن ناظم بك فما قولكم ؟ »

فقال انور بك « ينبغي ان يذهب هذا الرجل من الوجود بمقتضى قرارنا الاخير »

فقال الرئيس « ان هذا العمل يستلزم ان يكون في الجمعية فدائيون يبذلون ارواحهم في هذا السبيل كما في سائر الجمعيات السياسية في اوربا ونحن لم نتعوَّد ذلك بعد فينبغي ان ندبر تدبيراً جديداً تسير عليه »

فوقف رامز وقال « ان ناظم هذا اساءني وانا اولى الناس بقتلهِ »

فتصدى الملازم ك وضحك وهو يقول « لا تتعدَّ يا رامز على ما ليس من شأنك . انما انت اهل لكتابة المقالات ونظم الاشعار فاذا احتجنا الى ذلك يوماً ما فلا غنى لنا عنك .. اما اعدام هذا الرجل فهو عليَّ اقول ذلك واطلبهُ بالحاح . انا اعدم ناظم من الوجود غداً »

فأعجب الجميع بمروأته وشجاعته وثبات جاشه وقال له الرئيس « تتعهد بقتل ناظم ؟ »

قال بدون تردد « نعم »

قال « فأنت اول فدائي في سبيل الدستور فاذا بقيت حياً فلك الفضل يتناقله الناس وليس في الاحياء من العثمانيين من عمل عملك . واذا مت فليس في الاموات منهم من سبقك الى ذلك »

ونهض الرئيس وناداه اليه فقبله في راسه ودعا له ليحفظه الله من ذلك الخطر فقال الشاب « لم اقدم على هذا العمل وانا خائف من الموت . لابد من الخطر في سبيل الحرية فاذا مت اذكروني عند اهلي »

ثم اجتمعوا جميعاً في وسط القاعة حول القرآن والانجيل والمسدس وأقسموا على الثبات والكتمان حتى يقضي الله بما يشاء وودعوا بعضهم بعضاً وقد قرب الفجر واخذوا في الخروج من باب سري غير الذي دخلوا منه يؤدي الى زقاق ضيق لايفطن له احد وهم في ذلك استوقفهم احد حراس المحفل فرجعوا فقال « شاهدت رجلاً متنكراً اكثر من المرور ذهابا واياباً في الشارع المؤدي الى المحفل في هذه الليلة . ويظهر من مشيته وحركاته انه ناظم بك القومندان او رجل يشبهه »

فلما سمعوا قوله اجفل رامز والتفت ابوه اليه وقال له « الم اقل لك انه سيراقب خطواتك فاحذر منه ؟ »

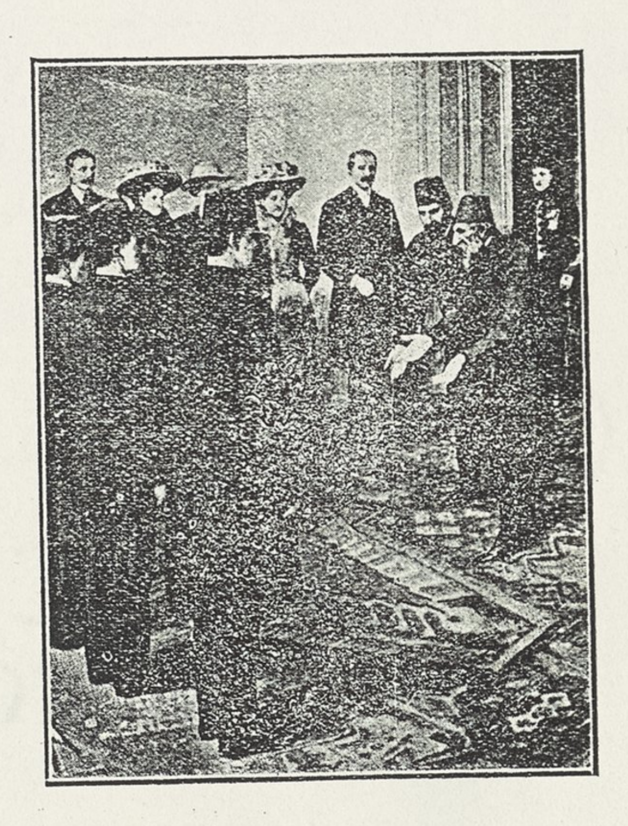
فمد الضابط الملازم يده اليهم وقال « لاتتعبوا انفسكم بالحذر من هذا الملعون فانه لن يملك فرصة يستفيد بها من معرفة مكاننا ولا ان يطلع احداً على ماعلمه . . قولوا رحمه الله »

فتحمس القوم عند اظهار هذه البسالة وقالوا له « بورك فيك من فدائي شريف ووقاك الله غائلة الظالمين . وجعلك قدوة اقرانك في هذا السبيل . الجديد انت اول فدائي في طلب الدستور » وتسرب القوم من ذلك الاجتماع الى اماكنهم

# الفصل الخامس والستون

## الحريم في يلدز

تركنا شيرين وقد امر عبد الحميد بارسالها الى القادين ج لتحتال في استنطاقها . وكانت هذه القادين في قصر خاص بها مثل سائر القوادين وهن ١٢ قادينا منهن اربع نساء هن ازواجه الشرعيات ولكل من هولاء القوادين قصر خاص فيه دائرة خاصة لها الباشكاتبة والخازنة والمهردار والاسفتجي وعدد من الخدم والخصيان والجواري . ولا تخرج القادين من القصر لسبب من الاسباب



عبد الحميد في اواخر ايامه يقابل وفداً من الاجانب

واصل القادين في الغالب سرية من السراري المجلوبة الى قصر يلدز. وقد بلغ عدد السراري عنده في الزمن الذي نحن فيه نحو ٣٠٠ سرية . وللسراري قواعد في تربيتهن وتدريبهن. واكثرهن من الشراكسة وفيهن الروميات وغيرهن من الاجناس العثمانية الاخرى . والغالب فيهن ان يجلبن صغاراً الى يلدز بالبيع او على سبيل الهدايا من الاهل

او بعض الاعيان. ويندران يقبل عبد الحميد جارية على سبيل الهدية من الاعيان خوفاً من دسيسة او غدر قياساً على مايفعله هو مع سائر الناس

ينشأ أولئك السراري في يلدز على قواعد خاصة - فاذا دخلت السرية يلدز نسيت كل ماهو في الخارج فتنسى اهلها واصدقاءها . ويتولى تربيتها نساء تعرف الواحدة منهن في اصطلاحهم بباش قلفة . ويرجع كلهم الى والدة سلطانة سيدة دار الحريم . تبقى هذه السرية في المدة الاولى سنتين تتدرب فيهما على ما يسر السلطان من حسن الهندام او الاحاديث او غير ذلك حتى مشيها ووقوفها وجلوسها فانهم يجعلونه على نسق خاص . ويعلمونها بعض الاشعار والاقوال الشعرية ويثقفونها على سرعة الفهم بالرمز وغير ذلك مما يطول شرحه (١)

فاذا احرزت الفتاة قبولاً وظهرت فيها المواهب التي تؤهلها لرضى السلطان سموها « كوزده » فاذا تخطت الرتبة الاولى وحازت الاستحسان سموها « اقبال » فاذا حملت الاقبال صارت قادينا فيفرد لها قصر خاص كما تقدم . لكنها لا تعد زوجة شرعية الا متى توفيت احدى الازواج الاربع فتحل احدى القوادين محلها حسب اختيار السلطان

فيبقى مئات من السراري على اختلاف طبقاتهن يتوقعن لفتة من السلطان. وهن جميعاً مع القوادين والازواج وما في قصورهن تحت رعاية والدة سلطانه وفي ادارتها واذا توفيت صارت احدى الخوازن او كبيرتهن في مكانها ويسمونها ايضاً « والدة سلطانة » كانه لقب المنصب لا لقب النسب

وفي كل قصر من قصور القوادين طائفة من الخصيان والجواري والسراري للخدمة والتدريب . وعلى الخصيان رئيس يسمونه الباش آغا او قزلر آغاسي وقد تداول هذا المنصب غير واحد في زمن عبد الحميد آخرهم نادر آغا وقد تقدم ذكره مراراً وصاحب هذا المنصب من اكبر اصحاب النفوذ والسطوة لثقة السلطان فيه واركانه اليه وقد مر زمن كان الباش آغا فيه اقوى شوكة في الدولة من اكبر الوزراء . ذكروا ان زكي باشا ارادت الدولة ارساله قائداً لعساكرها في طرابلس الغرب فجاء لوداع الباش آغا وهو يومئذ بهرام آغا فدخل عليه وهو في مجلس حافل فوقف بين يديه وقال « يامولاي ان الدولة عينت عبدكم قائداً على عساكرها في طرابلس الغرب ولي امنية التمس من عنايتكم تحقيقها لتكون لي حرزاً من ريب الدهر وهي تقبيل يدكم الشريفة » فقهقه الآغا وقال له « متى وصل قدركم ان يتعدى رجلي الى يدي »

(١) Abdul-Hamide Intime 215

ويذكرون من نوادر الآغا انه خرج الى ظاهر السراي في الوقت الذي وصل الروس فيه الى سان استفانو وهو الوقت الذي كان فيه الفزع الاكبر والسلطان مهتم لما يؤول اليه التخت العثماني الذي اودعه اياه آباؤه واجداده العظام فدخل عليه الاغا وقال له « لا يهتم مولانا الاعظم فقد خرجت الى ظاهر السراي ونظرت يميناً وشمالاً فوجدت جميع ما انتهى اليه بصري هو ملك جلالتك فلا تزعل فانه يكفينا »

ومن ادلة نفوذ اولئك الخصيان ان بهرام هذا هو الذي منع عبد الحميد من ارسال جند عثماني الى مصر في اثناء الحوادث العرابية وكانت انكلترا قد اوعزت اليه ان يفعل ذلك ليحتل مصر مكانها فزعم الاغا المذكور ان السلطان اذا ارسل جنوداً الى مصر لم يبق في يلدز من يحافظ على حياته

وتحت الباش آغا من الخصيان طبقة المصاحبين واشتهر منهم جماعة كبيرة كان لهم شأن في زمن هذا الطاغية مما يضيق عنه المكان

# الفصل السادس والستون

## شيرين والقادين

دخلت شيرين الى قصر القادين ج فبهرها ما فيه من الرياش الفاخر الثمين واستغربت كثرة من يجول في عرصاته من الخدم والخصيان والجواري. ومشى بها الاغا حتى ادخلها القصر ونساؤه وجواريه يرفلن بالالبسة الفاخرة بلا حجاب ولا نقاب وفيهن البارعات بالجمال . ولا غرو فانهن منتقيات من الوف من الجواري حملن للاتجار بالجمال وخصصن لرضى سلطان آل عثمان صاحب الشوكة والاقتدار في ذلك العهد والناس يتسابقون الى الارتزاق بما يرضيه

لم يقع نظر شيرين على اجمل ممن هنالك ولم تكن تجهل الغرض من جمع تلك الانفس هناك وكيف انها جمعت لرضى شخص واحد هو من اشر الخلق فتألمت في داخلها لكنها شغلت بالنظر الى ما بين يديها من الفتيات وهن شغلن بها وان نفرن منها لانها غريبة ويندر ان يدخل تلك القصور احد من الغرباء رجالاً ولا نساء. وهن اكثر استئناساً بالعبيد والخصيان مما بتلك الفتاة رغم ما في وجهها من الدعة واللطف

وصلت شيرين الى باحة في ذلك القصر كانت القادين ج قد اتكات فيها على مقعد مكسو بالسجاد وتمددت بغير كلفة او حذر وبين يديها المهرج المضحك كاغدخانه امامي وغيره من الخصيان الذين اتقنوا بعض اسباب اللهو من الالعاب ونحوها

فلما اطل نادر آغا على تلك الباحة وشعر الجواري والخصيان بقدومه تنافروا وتفرقوا في دهاليز القصر تهيباً من سيدهم وولي امرهم . اما القادين فلما انبئت بقدوم الباش آغا اعتدلت في مجلسها وابتسمت له فدخل وحياً واومأ الى شيرين كانه يقدمها اليها وقال « اعرف اليك هذه الفتاة واسمها شيرين وقد امر مولانا البادشاه ان تكون ضيفتك مبالغة في اكرامها ورغبة في استئناسها »

فتحفزت القادين للقيام اظهاراً لاحترامها امر الخليفة وقالت « كلنا عبيد امير المؤمنين غارقون في نعمه وآلائه » والتفتت الى شيرين ومدت يدها فصافحتها وامرتها بالجلوس وقالت « لقد اتيت اهلاً ووطئت سهلاً — انزلي على الرحب والسعة »

فخجلت شيرين من هذا الاطراء واستأنست بالقادين وكادت وحشتها تذهب . اما نادر آغا فانه تحول عنهما وهو يقول للقادين « لم تبق حاجة الى التوصية بعد ان اخبرتك برغبة امير المؤمنين . »

وحالما خرج تراجع الجواري من الدهاليز الى الدار والبطر ظاهر فيهن يتلاهين باكل النقول كالفستق وغيره او بمضغ اللادن يتضاحكن ويتغامزن وبينهن البارعات في الجمال وقد ارخين شعورهن على غير كلفة . وبعضهن اختص بحمل ما تلهو به القادين لقتل الوقت فاحداهن وكلت بتربية ببغاء جميل اللون اتقن التقليد واخرى تلاعب قطة جميلة من قطط انقره وهو ضرب من السنانير حسن الشعر جميل الالوان . واخرى تحمل ورق اللعب اوغيره من اسباب اللهو. ولما رأين شيرين اخذن يتفرسن فيها ويتساءلن من عسى ان تكون وليس عليها ثياب الجواري اول قدومهن ولا عهدنها في القصر من قبل ولا هي كوزدة ولا اقبال . على انهن لبثن ينتظرن ما يبدو من امرها وهن لاهيات مسرورات . الا القادين فانها مع ما اظهرته من البشاشة والاستئناس بضيفتها كانت الهواجس مستترة بين اسرتها لما قام في نفسها من الشك في حب عبد الحميد لها رغم ما اظهره بالامس من رجوعه الى سابق عهده معها . ولم يفتها انه انما اظهر ذلك تملقاً لها حتى تقضي ما في نفسه لكن حبها له كان يخدعها حتى تصدق دعواه وتتوهم انه يحبها وما زالت ترجو نيل بغيتها وتقديمها متى وضعت حملها فاذا كان غلاماً ارتفعت منزلتها »

اما شيرين فلما رأت ما يحدق بها من اسباب اللهو والقصف نفر قلبها من تلك الجلسة لكنها تجلدت وسكتت . واحست القادين بوحشتها وهي تريد ان تتملقها للغرض المقصود من مجيئها خدمة لاغراض مولاها فهشت لها وقالت « اراك مشعرة بالوحشة

لانك في وسط لم تتعوديه لكنك لا تلبثين ان تألفيه . وقد سرني اختصاص امير المؤمنين هذا القصر بنزولك فيه اذ جعلك ضيفة علي وهذا من حسن حظي وارجو ان تتحقق سروري بقربك لما اقراه في محياك من آيات اللطف والذكاء فعسى ان تكوني سلوة لي في وحدتي – والان ينبغي لي ان ابذل جهدي في تسليتك » واومأت الى جارية جاثية بقرب مقعدها تلاعب قطة جميلة فنهضت ودفعت القطة اليها فتناولتها القادين وادنتها من خدها وجعلت تتلذذ بنعومة شعرها اذا لمس خدها وهي تخاطب الجارية قائلة « احب ان ارى الخازنة »

فاسرعت الجارية ثم عادت والخازنة وراءها . وهي امراة كهلة كانت القادين تحبها وتثق بها وتعول عليها واصلها من البانيا وطن شيرين وقد جيء بها الى يلدز وشبت هناك وارتقت حتى صارت خازنة القادين ج وكانت هذه تقربها وتركن اليها باسرارها وتعدها صديقة لها . فاحبت ان تستعين بها على اجتذاب قلب شيرين للغرض المقصود من نزولها هناك . فلما جاءت في تلك الساعة قدمتها الى شيرين قائلة « هذه خازنتي وصديقتي فطينة وهي من بلدك لان اصلها من جهات مناستير »

فصافحتها شيرين وتفرست فيها فرات الجمال لايزال بادياً في محياها وملامح الالبانيين ظاهرة فيها فاحست بارتياح الى رؤيتها وتحركت لتهيء لها مجلساً فاذا بالقادين تخاطبها قائلة « قد دعوتك لاعرفك الى ضيفتنا ولكي تساعديني في تهيئة ما يسرها فدبري ما ترينه »

فذهبت فطينة ولم يمض يسير حتى جاء المهرج ( كاغد خانة امامي ) فدنا من القادين وحيا تحية عسكرية واشار بعينيه نحو شيرين اشارة استفهام مع مداعبة فقالت له القادين « هذه ضيفتنا ينبغي لنا ان نسرها وننسيها الوحشة فاذا كنت لا تستطيع ذلك امض بسلام »

فادار عمامته حتى مالت على اذنه اليمنى وقال « امن اول الكلام خصام ؟ ان هذه الجميلة ان لم يعجبها كلامي لا بد ان تضحك من رشاقة قوامي – وحسن هندامي .. ولكن اذا امرت مولاتنا بمن يغنينا او يرقصنا كان ذلك ادعى الى الانبساط »

فاعجبها ذكر الرقص والغناء فاشارت الى الخازنة فمضت وبعد قليل جاءت فتاة طويلة القامة عليها لبس خاص بالراقصات وحول زنديها الاساور والدمالج تحمل دفاً تنقر عليه وترقص ومعها عوادة اخذت تسوي عودها وقد جلست الاربعاء على البساط وجعلت تنقر نقراً يناسب حركات الرقص . وبذلت كل واحدة جهدها في اتقان ما عهد

اليها والقادين تلاطف شيرين بالحديث عن حركات الرقص او الحان الغناء واكثره من اللحن التركي والرومي وشيرين تظهر امتنانها من ذلك التلطف . لكن القادين ادركت بفراستها ان ذلك لم يشغلها عن هواجسها فاشارت باخراج القوم وقالت لشيرين « يظهر انك لم تطربي لهذه الانغام فان عندنا جارية تقلد كل صوت من اصوات الحيوانات الاهلية كالديك والكلب والماعز وغيرها » واومأت الى جارية سوداء هناك فسمعت شيرين صوتاً كانه صياح الديك فاجفلت والتفتت الى جهة الصوت فرات جارية تحمل ببغاء فظنتها تحمل ديكاً فلاحظت القادين انها تتوهم ذلك فقالت « اظنك تحسبين ديكاً يصيح وهو صوت تلك الجارية » واشارت اليها فجاءت وهي تقلد الديك في مشيتها ثم غيرت مشيتها الى ما يشبه الكلب واخذت في العواء ثم قلدت الفرس والحمار وقد علت القهقهة . فشاركتهم شيرين لكنها كانت تنظر الى ذلك اللهو نظر الاعتبار فضلاً عما شغل خاطرها من امر رامز ورغبتها في معرفة مكانه . وكانت لما رات رغبة القادين في مؤانستها قد عزمت على استخدامها في استطلاع خبره او الوصول اليه

## الفصل السابع والستون

### الشكوى

ولم تكن القادين ج من المنهمكات في اللهو او اللعب مثل سائر القوادين ولكنها قلدتهن في ما يرغبن فيه من القصف ولو تركت لنفسها لكانت اقرب الى الرزانة والتعقل والدهاء . ولكن للوسط تأثيراً في الاخلاق والاطوار. وما دار الحريم في يلدز الا ملهى لعبد الحميد لا يأتيه الا اذا اراد ان يلهو فتتجه الافكار الى هذا الغرض . وما شأنك في نساء لا عمل لهن غير الاكل والشرب وهن في الغالب جاهلات ؟ بماذا يقضين اوقاتهن ان لم يكن بالالعاب والغناء والرقص وتربية السنانير والطيور والتعلل بالاكل او المضغ او الاحاديث الفارغه عن الجان والعفاريت — ذلك كان شأن النساء في يلدز الا القادين ج فانها كانت اقربهن الى الرزانة والتعقل فادركت ان شيرين لم يفرحها ذلك العمل فامسكت بيدها وانهضتها وهي تقول « هلم بنا الى غرفتي »

نهضت شيرين ومشت حتى دخلت دهليز القصر وشاهدت ما هناك من التحف الثمينة والفرش الوثير وتذكرت ان عند عبد الحميد ١٢ قادينا لكل منهن قصر مثل هذا بفرشه واثاثه وخدمه وخصيانه غير قصوره الاخرى وغيرها في يلدز من منازل الحاشية والياوران والمشائخ وغيرهم وناهيك بالحراس الالبان . فلم تعد تستغرب ما كانت تسمعه من الاحرار في عرض انتقادهم المابين ان في تلك القصور خمسة آلاف انسان وفيهم النساء والجواري والخصيان والياوران و ٧٠٠٠ جندي من الالبان . وان نفقاتها ٣٥٠٠٠ ليرة عثمانية في الشهر وانهم يهيئون كل ليلة ١٧٠٠ مائدة ( طبلية ) [١] تفرق في القصور وغيرها ويبقى من الاطعمة ما يقتات به مئات ثم يوزع باقيه في بعض العائلات

فلما تصورت ذلك اسفت كيف يتنعم الظالمون باموال المظلومين الابرياء وكيف يسود رجل سفاح كعبد الحميد فيقبض على رجل حر نزيه كرامز وامثاله — واحست عند تذكرها رامزاً بقشعريرة وهب جسمها خوفاً عليه لئلا يكون قد اصابه سوء وعزمت ان تخاطب القادين بشأنه في اول فرصة — حتى اذا وصلتا الى غرفة القادين الخصوصية دعتها الى الجلوس على مقعد مطعم بالعاج بين يدي سرير مذهب يحيط به ستائر المطرزة وقد فرشت تلك الغرفة باحسن ما تفرش به غرف الرقاد من السجاد والستائر . وفي صدر الغرفة موقد التدفئة ( صوبا ) من البروسلين نحو مواقد المابين الصغير وعليه ساعة مذهبة

جلست شيرين على المقعد بجانب نافذة تطل على الحديقة الداخلية وتشرف على البوسفور عن بعد وجلست القادين الى جانبها وهي ترحب بها وتتلطف في مجاملتها حتى دعتها الى تبديل ثيابها وهمت بان تطلب من الاوسنه باشي اعداد بدلة فاخرة فاعتذرت شيرين بانها تشعر بتعب وربما بدلت ثيابها بعد ذلك . وجلست الى النافذة واطلت الى الحديقة فرات ما يسرح هناك من الطيور واكثرها من الحمام فاستغرقت في هواجسها وانقبضت نفسها وتلألأ الدمع في عينيها والقادين تراعيها وتتوقع فرصة تفتح بها الحديث . فلما رات انقباضها قالت « ما بالك يا عزيزتي اني اراك منقبضة النفس واذا كان دخولك هذا القصر قد ساءك فاني لا احملك على البقاء فيه قهراً »

فخجلت شيرين من هذا التوبيخ اللطيف وابتسمت وقد توردت وجنتاها من الحياء وقالت « العفو يا سيدتي . . اني هنا منذ بضعة ايام ولم اشعر بانس وراحة كما شعرت في هذا اليوم منذ رايتك . بالحقيقة انك معدن اللطف والانس . . »

---

(١) Abd-El-Hamide intime

قالت « مالي اراك اذاً منقبضة النفس على هذه الصورة ؟. »

فتنهدت وسكتت

فادركت القادين انها قلقة على حبيبها وكان نادر آغا قد افهم القادين كل ما عرفوه عن شيرين حتى تعرف كيف تتصل الى تسقط اسرارها فتجاهلت وقالت « اسمحي لي يا حبيبتي ان اقول بحرية ... ان ما اراه فيك لا يكون الا في المحبين »

فلم تمالك شيرين عن البكاء فهمت القادين بمسح دموعها وقد اثر فيها منظرها واحست بما تقاسيه لانها جربت مثله بنفسها فاحبت الاستطراق الى الغرض من هذا الطريق فقالت « يظهر ان ظني قد صدق فانت عاشقة و.. »

فاجفلت شيرين من هذا التعبير ومدت كفها نحو فم القادين كانها تستكفها عن الكلام حياء وانكاراً فقالت القادين « لا يسؤك انك عاشقة فان الحب ليس عاراً وقد يكون حبك طاهراً ... قولي لا تخفي عني شيئاً اجعليني مستودع سرك وان كانت هذه اول مرة لقيتني بها فاني شعرت بانعطاف نحوك مثل انعطافي على شقيقتي »

فانشرح صدر شيرين لهذا التلطف وحسبت نفسها قد فازت بما تريده لانها انما اظهرت انقباضها بين يدي القادين لعلها تتصل بالحديث الى توسيطها في انقاذ رامز وهي تعتقد انه اسير هناك . فابتسمت وقد خفق قلبها فرحاً بهذا الامل وقالت « انك بالحقيقة اكبر تعزية لي ولا ارى بأساً من الشكوى اليك لعلك تستطيعين التفريج عني بما لك من النفوذ والدالة »

فتطاولت القادين نحوها وقالت « قولي لا تخفي عني شيئاً واكدي اني ابذل جهدي في سبيل راحتك »

قالت « الا تعرفين اسيراً حمل من سلانيك الى يلدز في هذين اليومين ؟ »

قالت « نحن بعيدات عن امثال هذه الاخبار ـ لا يؤذن لنا بالاطلاع على شيء من ذلك .. ولكنني استخدم من يأتينا بخبره اكراماً لخاطرك .. زيديني ايضاحاً »

فاستبشرت شيرين وابرقت اسرتها وقالت « ان شابا من ذوي قرابتي اسمه رامز اتهموه بالدخول في جمعية سرية في سلانيك ووشى به بعض الجواسيس فقبضوا عليه وساقوه الى يلدز منذ بضعة ايام . فلم اتمالك عن اللحاق به حتى يلحقني ما يلحقه او استطيع انقاذه وقد علمت انه محجور عليه في بعض هذه القصور ـ سمعت ذلك من السلطان نفسه ولكنني لم اعرف غير ذلك »

فاظهرت القادين الدهشة وقالت « تشرفت بمقابلة الباد شاه ؟ »

قالت « نعم تشرفت بالمثول بين يديه .. »

قالت « انه حظ يندر ان يوفق اليه النساء ويظهر ان جلالته عالم بما بينك وبين رامز من القربى .. »

قالت « نعم هو عالم .. يظهر ان الجواسيس اطلعوه على خبري معه .. »

فاظهرت الاستغراب وقالت « لا تواخذيني على كثرة اسئلتي .. ما الذي دعاك الى مقابلة الذات الشاهانية ؟ »

قالت « دعاني الى ذلك كما قلت لك رغبتي في الدفاع عن رامز والتصريح للسلطان بما يجول في خاطري من امر الدولة وما يحدق بها من الاخطار اذا لم يتداركها جلالته بالدستور .. »

فاجفلت القادين وتراجعت عند سماع اسم الدستور وقالت « قلت له ذلك ؟ وماذا قال لك ؟ »

قالت « اظهر لي كل ارتياح وآنسني لكنه طلب الي ان اخبره عن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي القائمة بالمطالبة بالدستور في سلانيك ورامز واحد منهم . . فاعتذرت بأني لا اعرف منهم احداً . . فهددني باني اذا لم ابح له باسمائهم كان رامز في خطر على حياته واني اذا بحت انقذته من القتل »

فبادرتها القادين بالسؤال « وماذا فعلت الم تجيبي ؟ »

فهزت راسها هزّ الانكار وقالت « كلاَّ . . هبي اني اعرف احداً منهم فهل من المروأة ان افشي خبرهم .. واعرضهم للخطر ؟ »

فابتسمت القادين ابتسام الاعجاب واظهرت عدم رغبتها في الاطلاع على شيء من ذلك وقالت « لله درك من جسورة حازمة اني لم اعهد مثل ذلك في النساء من قبل . . تعرضين نفسك وخطيبك لخطر القتل محافظة على عهد بعض الناس ! انها مناقب كبار النفوس » وخفضت صوتها وتلفتت يميناً وشمالاً كأنها تحاذر ان يسمعها احد وقالت « والحق يقال ان بين اعضاء هذه الجمعية جماعة من العقلاء والعلماء .. ولكن بينهم ايضاً جماعة من الضعفاء المنافقين ينتفعون باذى غيرهم .. ولو كانوا كلهم مثل رامز ومثلك لكانوا .. » وسكتت وتحفزت للوقوف وهي تقول « الا تنهضين للطعام ؟ »

فشق عليها قطع الحديث قبل اتمامه لعلها تتوصل الى طلب مساعدتها فاعتذرت عن الطعام انها غير جائعة فقالت القادين « الا تأكلين بعض الفاكهة ؟ »

اجابت « كما تشائين » وظلت قاعدة فعادت القادين الى الجلوس وقالت « لم تقولي

لي ما هي الخدمة التي تطلبينها مني »

قالت « لم يبق لي مع ذكائك من حاجة الى التصريح »

فضحكت وقالت « طبعاً انت تطلبين معرفة مقرّ رامز وتبحثين عن الطريق الى نجاته »

قالت « نعم هذا كل ما اطلبه واذا كنت تستطعين ان تساعديني على ذلك لا انسى فضلك طول حياتي »

قالت « اذا استطعته فاني افعله من كل قلبي ولا فضل لي في شيء من ذلك .. » وتنحنحت واظهرت انها تهم بالكلام و يمنعها الحياء

فقالت لها شيرين « ماذا تريدين .. قولي يا سيدتي .. العلك ترين مانعاً من دخولك في هذا الامر فاذا كنت .. »

فقطعت كلامها قائلة « كلا . . ولكنني اكتم امرًا لا اجد من ابيح به اليه .. وقد رايت فيك ... » وبلعت ريقها واطرقت لحظة ثم وقفت وهي تتجاهل ما بدر منها وقالت « سأبحث الليلة عن خبر رامز واطلعك عليه .. افعل ذلك من كل قلبي .. » وصفقت فجاءت جارية سوداء فامرتها ان تعد المائدة وتكثر عليها من الفاكهة وان تدعو الخازنة فطينة . وامسكت شيرين بيدها وانهضتها الى المائدة فمشت معها وهي تتوقع ان تسمع منها تتمة الحديث وان تبوح لها بسرها والقادين تغالطها وكلما اقترب حديثها من تلك النقطة غيرته واستانفت الموضوع . فادركت شيرين انها كانت تريد ان تكاشفها بسر وندمت فسكتت

# الفصل الثامن والستون

## الاستنطاق

قضتا بقية ذلك النهار في امثال ذلك وشيرين تزداد استئناساً بالقادين وخازنتها وظلت عالقة الذهن بما همت ان تكاشفها به وتوهمت ان القادين عدلت عن المكاشفة خوفاً من ضياع سرها لقلة ثقتها بهما فاجلت ذلك الى فرصة اخرى . ولما مالت الشمس الى المغيب وانقبضت الطبيعة لفراقها انقبضت نفس شيرين وغلبت عليها السوداء

وليس اثقل على قلب المحب المشتاق من ساعة الغروب فانها تزيده وحشة والماً . ولم تشا شيرين ان يبدو انقباضها لدى القادين ولا خازنتها فالتمست الخلوة في غرفة اعدوها لها واظهرت انها تعبة تطلب الرقاد لحظة

فلما خلت بنفسها في تلك الغرفة اخذت تتأمل بما هي فيه وماذا عسى ان يكون من امر رامز هل هو هناك وهل يمكن انقاذه – على انها كانت ترجو من وعد القادين خيراً كثيراً ولم يخامرها شك في صدقها وخصوصاً بعد ان رأتها تهم بمكاشفتها عن سرها وهي لم تقابلها من قبل . قضت ساعة في هذه الهواجس وقد اظلمت الدنيا وانيرت مصابيح القصر الا غرفتها فلم يشأ الفراش ان يزعجها بدخوله لانه يحسبها نائمة

وهي في ذلك سمعت وقع اقدام في ارض الغرفة فرفعت راسها لترى من القادم فتبينت في تلك الظلمة القادين داخلة وهي تخفف الوطء لئلا توقظها فتحركت شيرين في سريرها دلالة على انها مستيقظة . فتقدمت القادين نحوها بسرعة واكبت عليها وجعلت تقبلها ترحيباً بها . فجلست شيرين في الفراش وقد احست بحرارة تلك القبلات ولم يبق عندها شك في محبة تلك المراة فبادرتها القادين بالسؤال عن صحتها فقالت « اني في خير اشكر فضلك ؟ »

قالت « لا تظني اني نسيت وعدي اياك للبحث عن حبيبك ولكنني لا استطيع ذلك الا في فرصة مناسبة ولم تتأت لي الا الان . . ولا اقدر ان افعل ذلك الا سرًّا عن كل انسان . . وقد يكون ذلك مستحيلاً علي لو لم اوفق الى فرصة لم يوفق اليها سواي من القوادين . . » قالت ذلك وتنهدت

فاحست شيرين بميل القادين الى الشكوى والمكاشفة فقالت لها « مثلك يتنهد ويشكو ايضاً ؟ انك اشرف امراة في المملكة العثمانية لانك من نساء السلطان . وفي المملكة ملايين من النساء يحسدنك على مقامك ومع ذلك فانك تتاوهين . . »

فتنهدت ثانية وقالت همساً في تلك الظلمة « ليس في المملكة العثمانية اشقى من نساء السلطان . حتى جوارينا فانهن اسعد حالاً منا . »

فاستغربت شيرين هذه الشكوى وارادت ان تعترض فبادرتها القادين قائلة « هل في الدنيا اثمن من الحرية ؟ »

فانتعشت شيرين عند ذكر الحرية وقالت « كلا »

فقالت « الحرية التي يتمتع بها كلابنا وسنانيرنا وطيورنا ودوابنا حتى الناموس والذباب – ان هذه الحرية نحن محرومون منها دون سائر البشر . ان المراة متى صارت

قاديناً دفنت في قصرها لا تخرج منه حتى الى الحديقة التي ترينها من هذه النافذة . وهي فوق ذلك عرضة للخطر والغضب وسوء الظن . تسعى الجارية في يلدز في الرقي وارقى درجة يمكن ان تبلغها ان تصير قاديناً من نساء السلطان فاذا وصلت الى هذه الرتبة ندمت على ماضيها لانها تفقد حريتها ـ حرية الذهاب والمجيء ويمنع عنها التمتع بالطبيعة . الحرية آه الحرية ٠٠ » وسكتت كانها غصت بريقها

فتاثرت شيرين من هذا القول ووجدت للكلام مجالاً فقالت « آه يا سيدتي ٠٠٠ الحرية ! ٠٠هذه هي طلبة الاحرار الذين يحاربهم السلطان ويبحث عنهم ويتعمد قتلهم » ولما قالت ذلك خافت ان تكون قد تطوحت لكنها ما لبثت ان سمعت القادين تقول « السلطان ! انه لا يريد ان يكون احدٌ حرًّا حتى هو نفسه فانه مقيد في هذه القصور كما تعلمين ولكن ما العمل ... اعلمي يا شيرين اني تسرعت في مكاشفتك فارجو ان لا اكون قد اخطأ ظني فيك .. اني ظننت فيك المحبة وصدق المودة فهل انا مخطئة بهذا الظن ؟ »

فبادرتها شيرين قائلة « ان ظنك في محله انت تخاطبين فتاة تحبك وتعول عليك ٠٠ ويا حبذا لو استطيع ان اخدمك في شيء »

فنهضت القادين حتى وصلت الى الباب وتلفتت خارجهُ كأنها تبحث عن احد هناك ثم عادت وقالت لها « ان اكبر خدمة تقدرين على تأديتها لي هي ان تنقذيني من هذا السجن .. هل يمن الزمان عليَّ بذلك يا ترى ؟ »

وكانت الغرفة مظلمة الا بصيص من النور كان يدخل من شقوق الباب والنوافذ والقادين تتكلم همساً وشيرين تستغرب ما تسمعه وقد داخلها الشك لحظة في صدقها لكنها لما رأتها تكشف لها سرها ولا تطلب منها كشف خبرها غلب عليها تصديقها فقالت « اذا اتيح لي الخروج من هذا الاسر مع رامز ثقي اني باذلة جهدي في ما تريدين — ان القوم العاملين مع رامز على نيل الحرية اذا نجحوا — وهم ناجحون باذن الله —كنت في مقدمة الفائزين .. انا افديك بروحي »

فاظهرت القادين انها صدقتها وقالت « صدقت في ما تقولين بالنظر الى حبيبك واليك واما بالنظر الى سائر اعضاء تلك الجمعية فلا ... انا اعلم منك بذلك ... كثيراً ما سمعنا بجمعيات قامت تطالب بالدستور او الحرية ثم رايناهم يأتون ويسلمون انفسهم للسلطان طمعاً بالمناصب وانما يضام منهم الاحرار الصادقون الذين انما يعملون لخدمة الحقيقة — ولا اظن جمعية سلانيك هذه المرة الا مثل سوابقها في باريس وغيرها —

ومع ذلك دعينا نؤمن بنجاحها ... » ثم قطعت الحديث وانتقلت الى سواه لتوهم شيرين انها لاتطالبها بكشف السر- وذلك ادعى الى الحصول عليه -فقالت « قدشردنا عن الموضوع الذي جئت من اجله - فاول كل شيء اني واثقة بمحافظتك على السر - ثم اني جئت لاعتذر لك عن تأخري في استقصاء خبر حبيبك لاني لا استطيع ان اتظاهر بذلك ولا بد من اغتنام الفرصة . » وسكتت

فقالت شيرين « الم توفقي الى فرصة بعد ؟ »

قالت « سنحت لي فرصة لم يوفق اليها غيري .. قلت لك ان نساء السلطان لا يؤذن لهن بالخروج من قصورهن ولا ان يأتي اليهن احد غير الخصيان والجواري ولذلك رايتنا نشغل انفسنا بتلك الالعاب الصبيانية كمهارشة الاديال وملاعبة السنانير - الا انا فان السلطان اذن اذناً فوق العادة لطبيب من اطباء المابين ان يتردد الينا منذ بضعة ايام يسألني عن صحتي وكنت اشكو انحرافاً عالجني من اجله - فهذا الطبيب اشعر انه صادق وقد غمرته بالجوائز والنعم - وانا مع ذلك مستغربة الاذن له بالدخول الى هذا القصر ولا اجسر على مخاطبته بشأنك لئلا اعرض نفسي للخطر ولكنني رايت راياً اظنك توافقينني عليه وذلك ان اعرفه اليك بحجة انك منحرفة المزاج فمتى اتى للاستفهام منك عما تشكين تدرجي بالحديث حتى تسأليه عن محل رامز . ولا بأس عليك اذا فعلت ذلك فان السلطان نفسه يعلم قلقك عليه . فلعله يخبرك عن مكانه واذا افلحت فاذكريني بالخير — وها انا الآن ذاهبة وسأرسل الخادم ليضيء هذه الغرفة فامكثي في الفراش وانا اشيع في القصر انك منحرفة الصحة » وخرجت . ثم جاء الخادم واضاء الغرفة وهي ساكتة في الفراش كالمريضة وما بها مرض وقد عادت اليها هواجسها واحست ان القادين تحبها حبّاً صادقاً وتثق بها ثقة كبرى ورات انها قصرت في ايفائها حق الصداقة لانها ساءت الظن بها وخافت مكاشفتها باسرارها

اما القادين فقد اتقنت حيلتها حتى اوهمت شيرين انها لا يهمها سرٌّ غيرها وتقدمت هي بكشف سرها لها حتى جعلتها تسعى من نفسها لمكاشفتها باسرارها وادركت بدهائها ان شيرين تنتظر اول اجتماع تجتمع فيهِ بالقادين لتبيح لها باسرارها في مقابل ما فعلته هي

ومكثت شيرين في الفراش ساعات حتى آن الرقاد ولم يأت الطبيب اذ لم يكن على موعد من المجيء وقد اوعز اليه نادر آغا ان يقتصر عن القادين هذين اليومين اذ لم تبق حاجة الى التعجيل — وفي الصباح التالي بكرت القادين الى شيرين لتعتذر لها عن

تخلف الطبيب عن الحضور في ذلك اليوم وهي تحسب له عذراً في الغياب وانها بعثت اليه من يستقدمه وجلست بجانب سرير شيرين وقالت « تأملي يا عزيزتي مقدار تقيدنا – اني لا اجسر ان استقدم الطبيب الا سرًّا ولو علم السلطان بذلك لبالغ في العقاب وقد يعاقب بالقتل لاقل الذنوب . ان هـذا البوسفور مملوء بجثث القتلى من النساء والرجال » قالت ذلك وهي تخفض صوتها وتتلفت

فلما سمعتها شيرين تقول ذلك عزمت على التصريح لها ببعض الشيء فقالت « اذا كنت تشكين من اقامتك هنا فاتركي هذه القصور واخرجي الى بلاد الحرية »

فقالت « الى اين اذهب وانا غريبة وحيـدة ؟ واعترف لك اني لا اثق بالاحرار فانهم كثيراً ما رجعوا وخافوا . »

فقطعت شيرين كلامها قائلة « انهم ياسيدتي اليوم غير ما كانوا عليه من قبل »

فهزت راسها استخفافاً وقالت « انهم هم لم يتغيروا .. »

قالت « أؤكد لك انهم هذه المرة غير ما كانوا عليه قبلاً وانا من اعلم الناس بهم »

فاستبشرت القادين بقرب الوصول الى المقصود فقالت « يا حبيبتي ان امثالنا لا يمكنه الاطلاع على حقيقة الرجال . . لم يظهر بين الاحرار المقاومين للظلم اضخم من مراد بك وهو الآن في الاستانة بين الاخصاء المقربين .. »

فابتسمت شيرين ابتسام عالم باموره هامة يجهلها مخاطبه وقالت « قلت لك ان اعضاء جمعية الاتحاد والترقي هذه المرة يختلفون عنهم في المرات الماضية اختلافاً كبيراً – ولولا حرمة الاسرار لذكرت لك بعضهم فتثقين بقولي وتعلمين اني اقول لك الصدق .. »

فاطرقت القادين لحظة ثم رفعت بصرها الى شيرين وفي عينيها ملامح العتاب وقالت « صدقت ينبغي للانسان ان يكون حريصاً على سره ولا يفرط به كما فعلت انا.. ولكنني وثقت بك ولم اندم على ما فرطت به لاني شعرت بلذة الراحة »

فتوردت وجنتا شيرين من الخجل واحست انها اخطأت بما قالته . واذا لم يكن في نيتها مكاشفة القادين بشيء لم يكن ينبغي لها ان تذكر شيئاً من هذا القبيل فارتبكت في امرها ولم تجد لها مخرجاً الا بالمكاشفة لكنها قالت « قد اخطأتِ يا سيدتي فهم مرادي .. ومع ذلك فقد قبلت توبيخك . فانا لم اقل اني اضن عليك بسر اكتمه اذا كان ذلك السر لي واما هذا السر فهو لرامز وقد اطلعني عليه ونحن نتشاكى ولا يخفى عليك ذلك وهو واثق انه لايخرج من فمي لاحد فاذا اخرجته اعد عملي خيانة. واما الاسرار التي هي لي فلا اخفي عنك شيئاً منها »

فاجابتها وهي تساعدها على الاعتذار « ان قدرك قد ارتفع في عينيّ الآن عما كان عليه قبلاً .. ان الانسان يجب ان يكون اميناً صادقاً والا فهو من الاشرار وحاشاك ان تكوني منهم — وهذا يؤكد لي ان ما كاشفتك به الآن يبقى محفوظاً عن كل انسان .. لاتظني اني اطلب منك ان تبيحي باسرار الجمعية ولكنني اجادلك في حقيقة هذه الجمعية فاحب ان اعرف الفرق بين اعضائها الآن واعضائها في الامس »

فانشرح صدر شيرين لذلك التخلص واحست بنزاهة تلك المراة وكبر نفسها وسعة صدرها وتعقلها حتى هان عليها ان تضع كل اسرارها بين يديها . على انها جاملتها قائلة « الفرق المهم ان اعضاء الجمعية اليوم اكثرهم من ضباط الجيش العثماني وكانوا قبلاً من الكتاب والادباء .. ولا يلبث الضباط كلهم ان ينتظموا في سلكها فاذا فعلوا ذلك فبماذا يطاردهم عبد الحميد ؟ »

فاظهرت القادين الاستغراب وقالت « هل انت على ثقة مما تقولين ؟ .. قد سمعت شيئاً من ذلك .. ولكنهم يقولون ان بعض الضباط الصغار المطرودين من الجيش انتظموا في الجمعية »

فقالت « كلا يا سيدتي .. ان المنتظمين في الجمعية اليوم هم اهم ضباط الجند من امراء الايات فمن دونهم وهم في خدمتهم العسكرية والجند تحت اوامرهم متى شاؤا وانا اعرف كثيرين منهم » قالت ذلك وتصاعد الدم الى وجهها ندماً على تصريحها انها تعرف كثيرين منهم

---

# الفصل التاسع والستون

## الدكتور . ن .

اما القادين فاكتفت في تلك الساعة بهذا التصريح اذ تحققت ان سر الجمعية عند شيرين وعزمت على اتخاذ الوسائل لاستنطاقها فيما بعد فقالت « اراك تغالبين نفسك بين التصريح والكتمان فانا اتوسل اليك ان تكفي عن التصريح ... وكاني اسمع لغطاً في الدار لعل الطبيب اتى » قالت ذلك وخرجت ثم عادت مبغوتة وقالت « لم يات الطبيب لانه امر ان لا يدخل قصري في هذا اليوم ولكنني سأبعث اليه ان ياتي متنكراً في هـذا

المساء » قالت ذلك وخرجت لشأنها. فاتت الخازنة لمسايرة شيرين وتحادثتا وتفاوضتا في شؤون مختلفة

فلما امسى المساء ذهب اهل القصر الى منامهم وظلت القادين ساهرة في غرفة شيرين وبعثت الخازنة تترقب وصول الطبيب وتأتي به اليهما . فلما قرب نصف الليل اتت الخازنة تخبرها عن قدومه فاذنت بدخوله ووقفت لاستقباله بالباب فاطل وعليه لباس خدمة القصر فاستقبلته مرحبة فانحنى احتراماً وقال « قد اتيت يا سيدتي طوعاً لامرك رغم الخطر الذي اخافه .. فماذا تأمرين »

فاثنت على غيرته وقالت « انت تعلم ثقتي بمهارتك واعتقادي صدق علاجك وعندي صديقة اصابها انحراف فاحببت ان تكون انت طبيبها » قالت ذلك ودخلت . فتبعها وهو ينظر نحو السرير فرأى شيرين جالسة فيه فلم يتفرس فيها تأدباً فسبقته القادين في مخاطبتها قائلة « هذا طبيبنا وصديقنا اخبريه عن شكواك ريثما اعود اليكما »، وخرجت

فاستغرب الطبيب تخليها عنهما وجلس على كرسي بجانب السرير وسأل شيرين عما تشكوه فقالت « اني اشكو من الم شديد في الراس »

وكان يخاطبها وهو مطرق فلما سمع جوابها اجفل لانه تذكر صوتاً يعرفه فنظر اليها وهي تنظر اليه .. وكان الطبيب في حدود الثلاثين من العمر فلما وقع نظرها عليه اختلج قلبها في صدرها لانه يشبه شخصاً تعرفه في سلانيك كان صديقاً لرامز فجعل كل منهما ينظر الى صاحبه فسبقها هو الى الكلام وان سبقته هي الى المعرفة لكنها خافت التصريح فقال لها «شيرين ؟ »

قالت « نعم .. وانت الست الدكتور . ن. ؟ »

- قال « بلى ... ما الذي جاء بك الى هنا؟ » واشار باصبعه على فمه ان لاترفع صوتها

قالت « جئت لافتش عن رامز » وغلب عليها البكاء ثم قالت وهي تشرق بريقها « اين هو؟ وماذا تفعل انت هنا ؟ »

قال بصوت منخفض « انا هنا في مهمة باسم اخواننا استطلع لهم اخبار هذا الطاغية واما رامز .. » وسكت وهو يتردد كانه يكتم شيئاً يعرفه

نخافت ذلك التردد وقالت وقد شخصت ببصرها فيه « اين هو ماذا اصابه ؟ قل . قل . . بالله قل . »

قال « تعقلي يا شيرين مثل عهدي فيك لاقص عليك خبره .. »

فتطاولت بعنقها نحوه وحدثتها نفسها بسوء اصاب حبيبها وعلمت ان هذا الطبيب

جاسوس الاحرار في يلدزولم تتمالك ان اعادت السؤال والحت في طلب الجواب فاجابها « علمت منذ بضعة ايام ان رامزاً اتى يلدزوانه مقيم في قصر مالطة فجعلت اترقب الفرص للذهاب اليه لعلي استطيع انقاذه فلم استطع ذلك الامساء امس بحيلة انتحلتها فلم اجده هناك »

فاقشعر بدنها وقالت « اين هو ؟ اين ذهب ؟ . »

قال « لا ادري »

قالت « بل انت تدري .. قل .. هل قتلوه ؟ . »

فاشار اليها ان تخفض صوتها وقال « لا اعلم اين هو ولا ما فعلوا به ولم اجد احداً من اهل يلدز يعرف خبره . والذي عرفته بعد البحث الدقيق الى ساعة مجيئي انه خرج من ذلك القصر في اواسط الليل منذ يومين بدعوة من المابين ولم يرجع .. » وهزّ راسه كانه يأسف لضياعه

فتحققت شيرين انهم قتلوه خلسة كما قتلوا مئات قبله اما خنقاً او غرقاً او تسميماً ووثبت من السرير رغم ارادتها وهي تقول « قتلوه يا دكتور ! قتلوه ! اظنه ذهب طعاماً للاسماك » ولطمت وجهها وبكت

فامسكها واجلسها وقال لها « تجلدي يا شيرين ولا تفعلي ما يأول الى الخطر علينا جميعاً »

فصاحت اما انا فلا ابالي بما يصيبني بعد رامز ولكنني اخاف عليك فانك ذو نفع للاحرار ... »

فقال « وانت انفع مني لهم .. هدإي روعك .. واذا فرضنا ان اخانا اصيب بسؤ في سبيل الحرية والدستور فهنيئاً له..ان اسمه سيخلد في بطون التاريخ . ويا حبذا يوم انال انا شهادتي في هذا السبيل »

فاطرقت شيرين وقد رجع اليها رشدها واخذت تغالب عواطفها . ومع تفانيها في سبيل الدستور والحرية فان حبها رامزاً غالب على كل ذلك ـ لم تسمح نفسها ان يكون ضحية الدستور لان المحب لا يرضى ان ينال الدنيا كلها فداء لحبيبه . لكنها ظلت ساكتة ودموعها تتساقط على خديها فعاد الدكتور الى الكلام فقال « على اننا لم نتحقق مصير رامز وقد يكون اقرب الى الحياة منا .. خففي عنك واصبري ان الله مع الصابرين »

وهما في ذلك سمعا وقع خطوات عند الباب فانتبه الدكتور انه فرط في الكلام وخاف ان تكون القادين قد سمعت ما دار بينهما وهناك البلية الكبرى والخطر العظيم

ولم تنتبه شيرين لهذا الخطر فظلت ساكتة

اما الدكتور فاعمل فكرته لحظة وكان سريع الخاطر حازماً فطناً ولولا ذلك لم يقبل ان يكون جاسوساً للجمعية في يلدز مدفن الاحرار . ووقف لاستقبال الداخل فاذا هي القادين ج قد دخلت باشة هاشة فانحنى لها باحترام فقالت له « هل عالجت حبيبتنا شيرين العلاج الشافي »

فاجابت شيرين عنه قائلة « ان العلاج لا يفيد يا سيدتي لانهم قتلوه » وغصت بريقها

واستغرب الدكتور تصريحها بذلك للقادين اذ لم يكن يعلم انه دعي لهذه الغاية بعلم القادين فقالت القادين « ماذا تقولين ؟ هل قتلوا رامزاً .. من قتله ؟ »

فقالت شيرين « الم تأذني لي ان اسأل الدكتور عنه لعله يطلعني على خبره فقال انه علم بوجوده في قصر مالطة الى منتصف الليل من يومين وانه دعي الى المابين ولم يرجع فهل عندك شك انهم قتلوه ؟ »

فاطرقت القادين وبانت الدهشة في عينيها وقالت « ليس من الضروري ان يصح حذرك ولكن ربما كنت مصيبة اذ قد يفعلون ذلك .. »

# الفصل السبعون

## فوز باهر

وكان الدكتور يعمل فكرته في تلافي ما قد يكون من اطلاع القادين على حديثهم فلما رآها سلمت ان عبد الحميد يقتل على الشبهة سرًّا وجهرًا طرق ذهنه سبيل للنجاة من هذا الباب فقال « هل تعتقدين يا سيدتي ان رامزاً قتل ؟ »

قالت « لا اعتقد ذلك اعتقاداً ثابتاً ولكنهم يفعلون هذا في سبيل صيانة الدولة »

قال « اراك تجوزين القتل في هذا السبيل »

قالت « قد جوزه قبلي ماكيافيلي الفيلسوف »

فاظهر الاهتمام ودعاها الى الجلوس على المقعد فجلست وهي تنظر اليه وتتفرس في وجهه فقال لها « تجوزين القتل في هذا السبيل ولو كان المقتول انت ؟ »

فاجفلت وقالت « ماذا تعني ؟ »

قال « اعني سرًّا عظيماً عهد الي منذ ايام وانا أؤجله شفقة عليك »

قالت « تعني انهم ارادوا قتلي »

قال « ارعيني سمعك واستجمعي رشدك واعلمي اني اعرض عليك الحياة بعد ان حكم عليك بالقتل »

قالت وهي ترتعد « افصح .. لا تخف »

قال « هل عهدتِ مثلي يدخل على القوادين ويتردد الى قصورهن قبل الآ ن ؟ »

قالت « كلاّ »

قال « فما الذي جعل لي هذا الامتياز الآ ن »

فاطرقت واعملت فكرتها واحست كانها افاقت من سبات وقالت « ثم ماذا ؟ قل . »

قال « اعلمي انك صرت في خطر الموت منذ علم عبد الحميد انك حامل . ولما لم تفلح الحاضنة باسقاط حملك كلفني بقتلك بالسم خلسة . قد يخطر ببالك الشك في قولي لكنك تحققين صدقه متى تذكرت تردد هذه الطاغية بشأنك . كم غالطك واهملك .. ثم هو اجل قتلك لما احتاج اليك في المهمة الاخيرة .. لا اعلم ما الذي يريده منك ولكنه ما زال يلح علي بانفاذ امره بقتلك الى صباح الامس فامرني ان انقطع عن قصرك بضعة ايام .. ففعلت ولعلك اذا تذكرت ما الذي كلفك به بالامس تتحققين صدق قولي »

فتذكرت القادين ما خاطبها به عبد الحميد بشأن استطلاع سر شيرين وهي رغم حبها له كانت تعتقد غدره مما عرفته من سيرة حياته مع الذين قتلهم من رجاله بعلمها.. فاطرقت حيناً وسبق الى ذهنها صدق الدكتور في قوله وظلت ساكتة

فابتدرها قائلاً « قد ترتابين في كلامي وربما حدثتك نفسك اني اكذبك وقد تنقلين خبري الى هذا الطاغية .. فانا لا ابالي اذا مت في هذا السبيل ولكن موتي لا ينجيك من القتل فافعلي ما بدالك »

وكانت القادين قد سمعت بعض ما دار بين شيرين والدكتور من الحديث وخصوصاً قوله انه يتمنى ان يموت كما مات رامز في سبيل مصلحة الاحرار وطلب الدستور فغلب على ظنها صدقه لكنها ارادت ان تتثبت من ذلك فقالت « وما الذي يسيء عبد الحميد من حملي حتى يريد قتلي ؟ »

قال « الست ارمنية الاصل ؟ »

قالت « نعم »

قال « الم تعلمي خوفه من الارمن وكم قتل منهم عفواً .. وازيدك علماً ان بعض المنجمين تنبأ له ان سقوط دولته سيكون على يد ولد منه تلده امراة ارمنية فلما علم بحملك رغم الوسائل التي اتخذها اصبح همه قتلك وعهد بذلك اليّ فرضيت وانا اؤجل ذلك قصداً لاني اشفقت على صباك »

فقالت « كيف رضيت انت ان ترتكب هذه الجريمة ؟ »

قال « حاشا لله ان افعل ذلك . اني حر صادق لا اقتل النفس البريئة وانما قبلت ليتيسر لي المكوث في هذه القصور استطلع اخبار المابين لاخواني الاحرار .. انا ياسيدتي جاسوس للاحرار هنا . اقول لك ذلك بكل حرية ولا يفيدك ان تنقلي خبري الى هذا الطاغية ولا يهمني اذا نقلته فاني اتشرف بالشهادة في هذا السبيل . نحن الوف نطلب الدستور ولو قتل نصفنا في سبيل نيله لا نبالي لان النصف الباقي يناله ويحفظ التاريخ ذكرنا .. اما انت فانك مقتولة لا محالة لان عبد الحميد يري بقاءك سبباً لقتله. واذا بقيت حية حتى تلدي فان طفلك يقتل اولا ثم تقتلين انت ـ الا اذا قبلت نصحي ونجوت بنفسك ورجعت عن عبادة هذا الظالم وكفرت عن ماضيك بالانحياز الى الاحرار .. هذه نصيحتي لك فافعلي ما تشائين والسلام »

وكان الدكتور يتكلم كانه صاحب سلطان فكان لكلامه تأثير شديد على القادين حتى اعتقدت صدقه وخافت على حياتها وحياة جنينها فاطرقت وقد جمد الدم في عروقها وشيرين تسمع ما دار من الحديث وتعجب لهذه الصدفة واغتنمت الفرصة لتأييد قول الدكتور فوجهت كلامها الى القادين وقالت « انظري ياسيدتي اني انصح لك ان تصغي الى نصحه . واذا حدثتك نفسك بغير ذلك واردت نقل خبرنا الى عبد الحميد فقد علمت ان الموت لا يهمنا : اما الدكتور فقد ذكر لك السبب اما انا فهل تظنين اني احب الحياة بعد ذهاب حبيبي رامز ضحية الدستور غدراً ؟ . » قالت ذلك وعادت الى البكاء

فتأثرت القادين من كلامها وكانت من اهل الذكاء والدهاء كما علمت ولكن حبها عبد الحميد اعمى بصيرتها فلما داخلها الشك في حبه بما سمعته من كلام الدكتور . ن . دلها عقلها على ما خادعها به وانه لم يكن يظهر لها الحب الا اذا احتاج اليها في خدمة كما فعل وقت حادثة الارمن وغيرها . وتذكرت تردده في العقد عليها فصح عندها صدق الدكتور في اقواله ولم يبق لديها شك في ذلك فالتفتت اليه وقالت « قد صدقتك يا دكتور فما العمل الآن ؟ »

قال « العمل ان تفري من هذه القصور بما خف حمله ومعك شيرين وابقى انا هنا حتى اتمم المهمة التي اتيت بها . هذا هو رايي ولا يصح تاجيل فراركما الى الغد »

فنهضت وهي تعمل فكرتها وقالت « انا ذاهبة لادبر وسيلة للفرار الليلة فامض انت لشأنك وانا شاكرة هذه الفرصة . وسأذكر فضلك ماحييت »

فودعهما الدكتور فبكت شيرين لوداعه وتوسلت اليه ان يفر معهما فقال « ان وجودي هنا لازم لمصلحة الجمعية اما انت فتجلدي واصبري وستدور الدائرة على الباغي ولو بعد حين » وخرج

# الفصل الحادي والسبعون

## الفشل الكبير

فلنتركهم يدبرون امر فرارهم ونرجع الى عبد الحميد فانه اصبح بعد ذهاب رامز وابيه وهو يتوقع ان تصدق حيلته وقد اوشكت ان تنجح لو لم يبادرهم سعيد بوصية مدحت كما رايت . فظل عبد الحميد ينتظر ثمرة حيلته يومين وهو لا يستقرّ له قرار وكان يتوقع ان يوافيه ناظم بخبر الجمعية في اليوم التالي فلما ابطأ عليه الخبر جعل ينتحل الاسباب لتأخيره

وهو في ذلك اتاه نادر آغا في الصباح يخبره بفرار القادين ج مع شيرين فاقشعر بدنه واخذ في البحث والاستنطاق حتى قلب يلدز راساً على عقب ولم يبق احد لم يستنطقه . فتبين بعد البحث انها فرت مع فوزي بك احد كبار الياوران وهو رئيس فرقة من حرس الالبان المعهود اليهم حراسة تلك القصور . فاسقط في يده وبث الارصاد والعيون في اطراف المملكة وقد تشاءم من فرار تلك القادين لما يعتقده من علاقة حملها بحياته فاسودت الدنيا في عينيه واحس بفشل لم يذق مثله . ولم يتوسط النهار حتى اتاه تلغراف من ناظم بك في سلانيك يخبره فيه ان احد اعضاء الجمعية تعمد قتله فاطلق عليه الرصاص فاصابه لكنه لم يمت وان الجمعية اصبحت ذات بأس . ثم اتاه تلغراف آخر ان فدائياً حرًّا قتل سامي بك مفتش البوليس وهو ذاهب الى قروشوه . وكان السلطان قد كلفه بالبحث عن رئيس الجمعية والفتك به وتوالت التلغرافات الى المابين باضطراب الاحوال في مكدونيا والبانيا وان الناس في خوف شديد

وكان عبد الحميد يتلو هذه التلغرافات وهو في غرفة المطالعة في المابين الصغير كالعادة والباشكاتب بين يديه . وكان يظهر عدم الاكتراث امامه ويشدد عزيمته ليوهمه انه على ثقة من قدرته . ثم خاف ان يبدو ضعفه فيصبح في خوف على حياته من اعوانه لاعتقاده ان هؤلاء الاعوان لايطيعونه الا خوفاً من بطشه اوطمعاً بماله فاذا راوا منه ضعفاً انقلبوا مع الجانب الاقوى ـ فلما خاف ظهور ضعفه نهض وهو يتكلف الضحك وقال « لقد آن لي ان افتك بهؤلاء الاغرار ان الرفق بهم لم يجد نفعاً » فوقف الباشكاتب واستأذن وهو يعلم ان عبد الحميد يكاد يموت خوفاً ولكنه اظهر انه صدقه وانصرف



شمسي باشا

اما عبد الحميد فدخل غرفة الكتابة للخلوة بنفسه ولم يصلها حتى تنفس الصعداء وقال « ويل لهم انهم يفتكون برجالي .. انهم غير الاغرار السابقين الذين كنت ابتاعهم بالاموال ـ متى كان اولئك الملاعين يعرضون انفسهم للقتل ولايبيحون بالسر ؟ حتى النساء منهم صاروا كالرجال شدة وبطشاً .. » وتذكر القادين وشيرين فقفَّ شعر راسه وقال « ويل لك يا ارمنية خرجت من يلدزحية مع جنينك ؟ قد اخطأت في المماطلة كان ينبغي ان اقتلك حالاً .. ويلاه قد خرجتْ ونجت ولا تلبث ان تضع

طفلها وهو الذي سيكون شؤماً على ابيه .. هل افل نجم سعدك يا عبد الحميد وانقلب الزمان عليك ؟ » قال ذلك وقد غص بريقه وبكى بكاء حقيقياً ثم تشدد ووثب من موقفه وهو يقول « متى كان اولئك الملاعين متحدين على اختلاف الطوائف والمذاهب ؟ لا . لا ينبغي ان ايأس وانا عبد الحميد وقد غالبت اولئك الغلمان ثلاثين سنة وغلبتهم افيعجزني امر هذه الشرذمة ؟ لابد من التفريق بينهم ولا بد من الفتك بهم » واطرق لحظة يفكر وتناول سيكاراً واشعله ثم جعل يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً ثم صاح بغتة « شمسي ... شمسي .. هو الرجل اللائق بهذا العمل انه فتاك شديد .. هل اشاور احداً بشأنه ؟ لا انه الرجل الشديد وقد اذخرته لهذه الغاية .. سارسله وافوض اليه ان يعزل ويولي ويقتل ويرقي . وارسل من الجهة الثانية من يفرق بين مذاهبهم ... ان صائباً ماهر وسارقيه فيستهلك في خدمتي وقد كان في مقدمة الذين افلحوا في الكشف عن الجمعية واعضائها ... المال المال سابذله هذا وقته .. قد اذخرته لمثل هذه الساعة »

قضى ساعة في مثل ذلك ثم طفق يدبر اسباب المقاومة ويدس الجواسيس مما ستراه في مكانه

# الفصل الثاني والسبعون

## شعبة جمعية الاتحاد في مناستير

لما انحلت جلسة الجمعية المركزية في سلانيك كما تقدم عاد رامز الى امره ورجعت اليه هواجسه بشيرين واين هي وخاطب اباه بحديثه معها كما حدثه بتاريخ حياته بعد فراقه تلك المدة الطويلة . فقضيا يوماً في مثل ذلك واخيراً قال سعيد « اين هي والدة شيرين الان ؟ »

قال « اخبرني جارهم انها ذهبت للتفتيش عن شيرين في مناستير او جهاتها »

قال « دعنا نذهب الى هناك فنحمل معنا اوامر الجمعية المركزية الى شعبتها .. الم تقرر الجمعية بالامس ان ترسل وصية مدحت وسائر قراراتها الى فروعها ؟ وهي طبعاً تحتاج الى رسل سريين فلنكن نحن رسلها الى مناستير »

ففرح رامز بهذا القرار وقال « سأقابل الباشكاتب واخبره بذلك » وافترقا

وفي اليوم التالي ضُرب ناظم بك واهتزت سلانيك لهذا العمل لانهم لم يتعودوا سماع مثله . وبعد ايام اعدت التقارير ونحوها مما يطلب نقله الى شعبة سلانيك وكلها مكتوبة بالارقام ( الشيفرا ) على نسق خاص بين الجمعيتين

وصلا الى مناستير واهتديا الى كاتب الجمعية فبلغاه مايحملانه من الاوامر الجديدة فاهتم بعقد جلسة خصوصية لهذا الشأن فعقدت سرًّا نحو ما ذكرناه في جمعية سلانيك. وكان الكاتب قد حل رموز الرسائل وهيأها فانعقدت الجلسة وهي مؤلفة من نخبة الضباط وموظفي الحكومة وفي مقدمتهم القائمقام صادق بك قومندان الاي الفرسان الرابع عشر ونخري بك ترجمان الولاية وحبيب بك يوزباشي الطبجية وضيا بك ملازم الطبجية وابراهيم شاكر افندي معلم الرسم في المكتب الاعدادي ورمزي بك بكباشي اركان حرب ووهيب افندي وغيرهم . وكلهم من ذوي الاخلاق السامية والمبادئ الصحيحة وخصوصاً صادق بك وكان اكثرهم عملاً واشدهم حماسة وهو رب السيف والقلم وعليه كان المعول في التدابير التي دبروها والبيانات التي اتوها والكل يسيرون على خطواته ويقتدون برايه [1] فهو كالرئيس فيهم او المرخص وكان ربعة مستدير اللحية مع ميل الى الضعف شأن اصحاب المزاج العصبي لكنه لم يكن فيه حدة العصبيين وتقلبهم بل هو رابط الجأش ثابت في اعماله يظهر الهدوء والسكينة في محياه فاذا دعت الحالة الى الحماسة او العمل غضب كالاسد الهائج لا يبالي ماذا يفعل وقد يضحي نفسه في سبيل الحق والحرية

فلما عقدت الجلسة كان اول شيء قدموه التعريف بسعيد والد رامز وماله من الايدي البيضاء في تاريخ الاحرار . ثم تلوا وصية مدحت ورحبوا بها كل الترحيب واعجبهم ماكان من قرار الجمعية بشأنها وتحمسوا ووافقوا على الفتك وقرروا توزيع ذلك في الاعضاء وفي فروع هذه الشعبة برسنه وغيرها . وانقضت الجلسة وأول شيء باشره رامز انه ذهب للبحث عن والدة شيرين في منزل بعض اقاربها واخذ والده معه فلاقته بالبكاء فرحاً بقدومه وفرحت بقدوم والده لانها تعرفه وسألها عن شيرين وشأنها . فقصت عليه حديثها مع صائب ومادار بينهما وعن ثباتها في حبه وكيف اختفت بغتة . فعجب بصدق محبتها وازداد اسفاً على ضياعها . وبكيا عليها مع العزم على البحث عنها مظانها فقال رامز « لا بد من العثور عليها . . الا ان يكون ذلك الملعون قد حملها على الانتحار تخلصاً منهُ . ولكنها عاقلة لاترتكب هذه الرذيلة وهي تعلم اني لاازال

(١) خواطر نيازي

حيًّا بل هي تحب الحياة من اجلي كما احبها من اجلها . . »

فقال والده « لا بدَّ من الصبر حتى يأتي الله بالفرج ... واين طهماز ؟ »

فقالت « لا اعلم اين هو ولكنه كان مع صائب بك الى آخر يوم »

فقال رامز « انه الآن من ارباب الرتب المقربين في يلدز »

فضحكوا رغم ماهم فيه من الحزن والقلق لانهم يعرفون حقيقة طهماز وانه لا ينفع لغير الاكل ولولا امرأته لم يعرف احد بوجوده »

خرج رامز من هناك كاسف البال ولم ييأس من وجود شيرين فبعث بعض الناس يبحثون عنها في القرى والاديار وفي كل مكان ظنها تذهب اليه فلم يقف لها على اثر . فيئس من وجودها واعتقد ان عبدالحميد وجواسيسه هم سبب هذا الشقاء فازداد نقمة عليهم واصبح يغتنم الفرص للتفاني في مقاومتهم

مضت ايام وهو يشتغل بمساعدة كاتب الجمعية في كتابة المنشورات ونسخها وتدبير من يوصلها الى الجهات وكانوا يرسلونها مع النساء غالباً لبعد الشبهة عنهن بالاشتغال بالسياسة . وهو في ذلك اتته الدعوة للاجتماع في جلسة مستعجلة وعينوا مكان الاجتماع وكانوا انما يجتمعون للمداولة في خبر جديد او حادث جديد أو تقرير امر مستعجل . فلما عقدت الجلسة واستقر الاعضاء في اماكنهم قال المرخص « دعوناكم الليلة لاخبار عظيمة الاهمية جاءتنا على يد مركز سلانيك وقد حملها الاخ الكاتب وهو يتلوها . . تفضل ايها الاخ اتل علينا » واشار الى كاتب السر

فوقف كاتب السر وبيده ورقة وقال « هذا الكتاب من مركز الجمعية المقدسة في سلانيك تقول فيه انه جاءتها رسالة رقمية من اخينا الدكتور . ن . من يلدز تحتوي على اخبار عظيمة الاهمية وهذه صورة الرسالة كما هي » واخذ الكاتب يتلو رسالة الدكتور وهذا نصها :

« تأخرت عليكم في ارسال الاخبار اذ لم اوفق الى من يحمل رسالتي اليكم هذه المرة لان التشديد في المراقبة اصبح فائق الحد واصبح الطاغية يخاف من خياله ويشك في نفسه .. ان اخباري هذه المرة حسنة وهامة — اعلموا اولاً ان اصابة ناظم بك بالرصاص ومقتل سامي بك بهذه السرعة والعزيمة كان لهما تأثير شديد في نفسه وفي نفسي .بارك الله فيكم . اماهو فانه قام وقعد والتف جواسيسه حوله وتملقوه وحرضوه على التشديد والفتك فعهد الى شمسي باشا الفظ الغليظ ان يتولى تعقبكم والفتك بكم — وقد ارسل الجواسيس وفيهم صائب لبث روح الشقاق بين العناصر والمذاهب .

فاحذروا من هـذا اللعين . واعلموا ان الطاغية خائف من اجتماع الكلمة فهو يبذل مافي وسعه لتفريقها . فوجهوا عنايتكم الى مقاومة ذلك بارسال المناشير الى المسيحيين من كل الطوائف تحذرونهم شر التفريق

« ويسرني ان ابشركم بامر وفقنا اليه ولم يكن في الحسبان وذلك ان احدى القوادين من نساء السلطان فرَّت من القصر وهي شديدة النقمة على عبد الحميد تريد قتله واسمها القادين ج ومعها الياور فوزي بك احد قواد الحرس الالباني . والغالب انهما قصدا البانيا لان الياور المذكور منها – ويسوءني ان اخبركم عن ضياع الاخ الحبيب رامز فاني علمت بوجوده في قصر مالطة . فذهبت لاراه فاخبرت انه طلب الى المابين في منتصف الليل ولم يرجع . . » فحدث عند ذلك تمتمة وضحك وحركة وتوجهت الانظار الى رامز

ثم عاد الكاتب الى القراءة فقال « ومن غريب الاتفاق ان شيرين ابنة طهماز الذي تعرفونه اتت يلدز من تلقاء نفسها واظهرت من البسالة وصدق اللهجة في مصلحة الجمعية ما يندر مثاله .. وخاطبتْ السلطان خطاباً لم يجسر احد على مثله .. » فحدث ضجيج بين الاعضاء وشخصت ابصار الجميع لما يكون من تتمة الكلام . اما رامز فتسارعت دقات قلبه ونسي موقفه تطلعاً لما ياتي عن شيرين واتم الكاتب القراءة فقال « وابشركم انها بعد ان وقعت تحت خطر القتل نجت وكانت من اكبر الوسائل المساعدة على فرار القادين المتقدم ذكرها . فاذا كان اخونا رامز لايزال في قيد الحياة فاني اهنئه بها .. » فعاد الضجيج ولم يتمالك صادق بك نفسه من ان ينادي رامزاً ويهنئه

ثم تلا الكاتب تتمة رسالة مركز سلانيك فقال « فمن تلاوة رسالة اخينا الدكتور . ن . تتحققون حاجتنا الى السعي في مقاومة مساعي اولئك الاشرار . وقد كتبنا صورة منشور الى الاهالي والقبائل نرجوان تفرقوه بمعرفتكم . وكذلك تجدون مع هذا صورة عريضة رفعناها الى قناصل الدول هنا نطلعهم على احوالنا مع سلطاننا وحكومتنا ففرقوا منها نسخاً على القناصل في جهاتكم لتكون اعمالنا مبنية على الحكمة والتعقل . ويسرنا ان نخبركم ان اخانا طوسون بك الذي تنكر بلباس الدراويش وسار لبث روح الجمعية المقدسة في الاناطول قد افلح وانشأ فروعاً من الشعب والقولات في تلك البلاد انتظم فيها اكثر ضباط الفيلق الثالث »

# الفصل الثالث والسبعون

## محاربة اهل المابين

فلما فرغ الكاتب من تلاوة الرسالة تنفس الاعضاء بعد تعب الاصغاء وخصوصاً رامز فقد كان تأثيره مزدوجاً وهمه أمر شيرين لكنه صبر نفسه الى الخروج من الجلسة . واخذ الاعضاء يتباحثون في ماذا يعملون فقال صادق بك بما عهد فيه من الرزانة في احرج المواقف « هذه يا اخواني اخبار هامة تستوجب اعمال الفكرة واهمها في نظري ارسال الجواسيس لبث روح الشقاق . وقد سبقنا اخواننا في سلانيك الى نشر المنشورات في سبيل الوفاق بين الطوائف وارى ان نعيد الكرة ونذكر في منشوراتنا سعي الظالمين واعمالهم وان نترجم هذه المنشورات الى اللغات البلغارية والسربية والالبانية فضلاً عن التركية ونفرقها في الرؤساء ومشايخ القرى وزعماء القبائل والعصابات فما رأيكم ؟ »

فنهض سعيد وقال « انه لنعم الراي وانا اتولى تفريق هذه المنشورات بيدي »

فقال صادق بك « بورك فيك انك نعم الصديق الامين لابينا مدحت رحمه الله ان هذه المهمة شاقة وكثيرة الخطر اذ يعسر عليك الوصول الى تلك العصابات وهي لا تستقر في مكان . ولكني اشير عليك ان تستعين في معرفة اماكنها بالاخ نيازي بك قائد طابور رسنه انه ذو حمية وبسالة وقد قضى مدة في مطاردة العصابات البلغارية وقد احسن البطل هادي باشا العمري حامي حمى الاحرار بتعيينه هناك واني اتوقع من هذا الشاب مستقبلاً مجيداً . نحن نعرفه ولكنه لايعرفنا اننا من اخوانه اعضاء هذه الجمعية المقدسة . فهو يعرف احوال العصابات فاذا لقيته استعن به في البحث عن اماكن رؤساء تلك العصابات »

ثم استانف صادق بك الكلام فقال « وهناك امر عظيم الاهمية ايضاً اعني مخابرة الدول على ايدي قناصلها بتقارير نشرح فيها حالنا مع سلطاننا ورجاله حتى نعذر في نظرهم اذا مست الحاجة الى التحكيم او نحوه وهذا العمل لا ارى فينا اليق به من اخينا رامز لانه لا بد من حاجته الى البحث عن خطيبته الباسلة الحرة وهو كاتب متوسع في اللغات الاجنبية ففي طريقه يقوم بهذه المهمة »

فوقف رامز وقال « اني انشرف ان يرى الاخ صادق بك اللياقة فيَّ لهذه المهمة وسأقضيها على الراس والعين »

فوقف صادق بك عند ذلك وقد ابرقت عيناه وبانت البسالة فيهما وقال « بقيت مهمةٌ واحدة اطلب اليكم ان تسمحوا لي بها لانها من واجباتي ٠٠ »

ففهم الجميع انه يعني مقتل شمسي باشا فتصدى ضيا بك قائلا « ان المهمة التي تشير اليها ايها الاخ الباسل نضن بيدك ان تمد اليها ٠٠٠ انا انوب عنك فيها »

فوقف حبيب بك واعترض نفس هذا الاعتراض . فقال صادق « نحن متفقون اذاً على وجوب ازالة ذلك الوجود الفاسد ولافرق في ان يكون احدنا او الاخر المباشر لهذا العمل ٠٠ وها اني اقسم اليمين » وتقدم نحو القرآن والسيف فتسابق رضا وحبيب الى هناك ووضع كل منهم يداً على القرآن ويداً على مسدسه واقسموا اليمين المغلظة بقتل ذلك الرجل وغيره عند الحاجة في خدمة الحرية والدستور . فاثر ذلك في سائر اعضاء الجمعية فهبت الحماسة فيهم ودبت الحمية في عروقهم مثل دبيب الكهرباء فنهض شاب من الاعضاء هو الملازم ٠٠٠ وقال « لا يليق باحد منكم ان يلوث يده بدم ذلك الفظ الغليظ انا انا اريحكم منه ثقوا اني افعل ذلك ٠٠ ويجب ان افعله وحدي » قال ذلك وقد تجسمت الشجاعة في عينيه

فصاح الجميع « فليعش الفدائي الحر ٠٠٠ »

فقال صادق بك « هكذا تكون الحماسة والمروءة ٠٠ كان الله معك ايها الاخ لكسر شوكة الظالمين وحماك بمنه وكرمه ٠٠ والان سيتلو عليكم الاخ الكاتب صورة المنشور الذي سيوزع على يد الاخ سعيد بك في رؤساء القبائل وزعماء العصابات البلغارية وغيرها . وبما انه طويل ارجو ان يتلوه مختصراً »

فوقف الكاتب وقرا هذه الخلاصة :

« الى اخواننا المسيحيين من بلغار وصرب ويونان والبان وغيرهم

« قد مضى نصف قرن على الممالك الصغيرة المحدقة بمكدونيا — نعني بلغاريا واليونان والصرب — وهي تسعى في مساعدتكم لتخليصكم حسب زعمها من ظلم العثمانيين . فاذا صدقت في انقاذكم من ذلك الظلم فلكي تبتلعكم لنفسها . فهي لذلك تبث روح الشقاق بيننا وبينكم حتى جرت الدماء انهراً . فيا ابناء الوطن اخواننا قد آن لكم ان تستفيقوا وتعلموا ان تلك الحكومات انما هي طامعة في بلادكم . واعلموا ان هذه الامنية لن ينالها اولئك الطامعون لاننا نبذل ارواحنا في سبيل استبقائها . ولكن ينبغي ان نعترف

لكم بفساد الحكومة العثمانية الآن . وحق لكم ان تشكوا منها ونحن ايضاً نشكو نفس الشكوى وقد قمنا لاصلاحها بايدينا . واول اسباب ذلك الاصلاح اتحاد العناصر العثمانية من ترك وبلغار ورومان وروم والبان . ومن اجل ذلك اسست جمعية الاتحاد والترقي العثمانية واعضاؤها هم امراء العسكرية وضباطها والمأمورون الملكيون وكلهم من خيرة رجال الشرف يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل هذا الوطن . ومقصد الجمعية الاصلي حفظ الحرية وصون الاعراض والارواح والاموال لكل العناصر وتغيير شكل الادارة فنستعيض بالشورى عن الاستبداد . فاندع الافكار القديمة والاراء الفاسدة ولنتحد جميعاً . وعند وصول بياننا هذا اليكم اجتمعوا واقراوه واوصوا عصاباتكم ولتتحد عصاباتكم معنا في طلب الدستور والمساواة الخ الخ »

فلما فرغ الكاتب من تلاوة هذه الخلاصة قال المرخص « اقرا علينا خلاصة المنشور الذي سيوزع على الدول الاجنبية ( الاروسيا ) » فقرأ :

« سيدي ،

« ان الحال التي بات فيها القسم المهم من وطننا وهو مكدونيا واصلاحها واعداد مستقبلها حملنا نحن ابناء مجموعة الوطن المسماة تركيا على عرض السطور الآتية لمقامكم الرفيع مع كل اعظام . وانما سائقنا الوحيد الى التشبث بهذا الامر هو عشقنا الطبيعي لارض ولدنا فوقها وما يجب علينا من الاتحاد في السعي لاستكمال سعادتها ورفاه بنيها . وعلمنا بان اوربا تعرفنا قليلاً وتعرفنا مسيئين . وقصدنا من تحرير هذه لورقة اظهار الحق في مسألة مكدونيا او المرض الذي ابتليت به والدلالة الى الطريقة المثلى المؤدية بنا الى الصراط المستقيم وخلاص الدول الاوروبية من مزاحمة ومساع الا طائل تحتها

« ان مساعي اوربا في اصلاح مكدونيا لم تنته بنتيجة ولم تغير الاحوال بوجه من الوجوه . بل هي انقلبت الى ما هو أسوا وكثرت القلاقل . ومعمى مكدونيا زاد اشكالاً واستولى ارتباك عام على كل انحاء المملكة

«ان اصل هذا الفساد انما هو طمع روسيا في مكدونيا كما يشهد بذلك تاريخها الماضي ونأسف لان دول اوربا تسايرها . وقد اختلقوا مسألة ظلم المسيحيين فيها وانهم تعساء تحت سلطة المسلمين . ولكن اوربا في خطأ فاحش . وهناك حقيقتان باهرتان تبينان اسباب ذلك وهما : اولا انه ليس بمكدونيا داء خاص بها ولا مسألة ناجمة عنه . ثانياً انه ليس بمكدونيا تعصب اسلامى . ونحن نقول قبل كل الناس ان سكان مكدونيا ليسو

في الرفاه المطلوب . وافكارنا متفقة من هذه الوجهة مع اوربا . الا ان اختلافنا هو في تعيين منشأ الغدر. ولذا فيكون اختلافنا ايضاً في اتخاذ الوسائل المانعة له . اذاً فمضرات مكدونيا ليست ناشئة منها . والمضرات شاملة الولايات التي تتألف منها المملكة العثمانية لا في مكدونيا وحدها وسببها هو الاستبداد الظالم في اصول الحكومة الحاضرة والشيء الذي آل بالبلاد الى هذه الحال التي لا تطاق هو فقدان الحرية العثمانية ملكية وسياسية

« فان كانت اوروبا تريد حقيقة ان تسعد المكدونيين يجب ان تعينهم على ازالة الاستبداد الحاضر ليستعد العثمانيون عامة ويسعد معهم المكدونيون لان الواقع ليس مرض مكدونيا بل هو مرض تركيا كلها وسيزول بهمة ابنائها

« فاذا كانت اوربا تريد اصلاح احوالنا اكراماً للانسانية فعليها ان لاتتعرض لما نريده من الاصلاح . وان تضيق على الاستانة لتضع حدًّا للاستبداد او تتركنا وشأننا ندبر امورنا ونصلح شؤوننا ولا رائد لنا غير الحق والعدل لهدم صروح الظلم — وقد قدمت نسخة من هذا البيان لقناصل الدول الا روسيا الخ »

ثم تقرر ان يعطى البيان الاول الى سعيد بك ليتولى ترجمته الى اللغات البلغارية والصربية واليونانية ويكتب منه نسخاً يفرقها في القبائل والعصابات سرًّا وان يعهد بالبيان الثاني الى رامز ليكتب منه نسخاً بالفرنساوية ويقدمه الى قناصل الدول . ثم ارفضت الجلسة وقلوب الاعضاء مملوءة امالاً وحمية

وحالما خرج رامز من الجلسة سار توًّا الى توحيدة والدة شيرين واخبرها سرًّا بما سمعه عن ابنتها وانها فرَّت من يلدزولم يعرف الى اين سافرت . وانه مسافر الى بعض الجهات للتفتيش عنها. ففرحت فرحاً شديداً وعادت اليها امالها ومكثت تنتظر ما يأتي به القدر

---

## الفصل الرابع والسبعون

### العصابات الالبانية

قضى سعيد بضعة ايام في ترجمة البيان ونسخه ثم تنكر بلباس احد الفلاحين الالبانيين فجعل على راسه كالطاقية القصيرة ولبس دراعة ( صدرية ) مفتوحة فوقها

الكبران المرخي الاكام وحول حقويه التنورة المثناة الى اعلى الركبة . وتمنطق بمنطقة فيها الطبنجة والف ساقيه بسبور (الطماقات) واحتذى حذاء غليظاً ومشى وعكازه بيده لا يظن من يراه الا انه من عامة الألبان

وكان في البانيا من جهة مناستير عدة عصابات من البلغار والالبان كل منها تنسب الى زعيمها.اشهرها عصابة جرجيس الالباني وعصابة توفيق الاهوماتلي وعصابة امين البيسوجانلي وعصابة قورطيس النوسيللي وغيرهم . وكل عصابة مؤلفة من عشرات من الرجال الاشداء يقطعون السابلة على الناس يقتلون وينهبون بحجة الدفاع عن النصرانية واكثر ما يكون تحرشهم بالمارة من المسلمين يأخذون ما معهم و يأسرونهم حتى يفديهم اهلهم . وكانت مهمة سعيد شاقة لان في جملتها ان يبلغ منشور الجمعية الى رؤساء هذه العصابات . ولا يخفى ما في ذلك من الخطر لكنه كان قوي القلب ثابت الجأش عاشقاً للحرية يتفانى في سبيلها

وكانت عصابة جرجيس الالباني شديدة البطش قد ملأت بشهرتها جبال البلقان اوهي عصابات تعمل باسمه وفي غيابه او حضوره . فاحب سعيدان يبدا بعصابته فسافر في طلبها وهي معتصمة في الجبال الوعرة فطال سفره لانه ربما قيل له انها في جبل كذا فيسافر اليها يوماً اويومين فيجدها قد انتقلت الى سواه ـ قضى في ذلك اياماً قاسى فيها الامرين من المشي والتعب حتى كاد يعدل عن طلبها . وهو انما يطلبها اذا كان جرجيس معها لتبليغه المنشور فانبأه بعضهم انها في جبل على بضع ساعات من مكانه ومعها زعيمها . فعاهد نفسه ان يقصدها فاذا لم يجدها عدل الى سواها

وكانت الشمس قد تجاوزت الاصيل وهو يمشي في سفح جبل على ان ينزل منه الى الوادي ثم يعود من طريق آخر الى اعلى الجبل المقابل وهناك يقيم جرجيس بعصابته. فنزل الوادي ثم اخذ في الصعود حتى اقترب من قمة الجبل والشمس قد دنت من المغيب فسمع ضوضاء عقبها اطلاق الرصاص فدوى الوادي دوياً عظيماً وليس فيه ولا في سفح الجبل بيت ولا خيمة .ولكنه شاهد بعض الخيم في اعلى الجبل ومنها سمع اطلاق البنادق . فلما سمع دوي الرصاص وقف وراء صخرة يحتمي بها واصاخ بسمعه ولم يبق بينه وبين قمة الجبل الاخمسون متراً وندم على مجيئه متأخراً لكنه تجلد وصبر . فاذا هو يسمع طلقات ابعد من الاولى وراء الجبل وسمع لغطاً بين الخيام ودبدبة حوافر خيل . ثم طرق اذنه صوت امرأة تستغيث بالتركية ولم يسمع من كلامها الا قولها « امان جانم ما الذي تريدونه منا .. اتركونا في سبيلنا » ثم سمع صوت رجل يجاوبها بالتركية

ايضاً بقوله « لا تخافي من هؤلاء الكلاب ولو كانوا مئة » فأدرك سعيد ان عصابة جرجيس تعترض بعض المارة . ولكنه توسم في صوت الرجل البسالة والقوة فحدثته نفسه ان يصعد خلسة حتى يشرف على المعركة وقد خيم الظلام فلا يخاف ان يراه احد . فتسلق الصخور بخفة حتى اصبح وراء احدى الخيام فاشرف على المعركة فرأى رجال جرجيس محدقين بركب مؤلف من اربعة انفس اثنان راكبان هما رجل وامراة واثنان على الاقدام هما خادمان . وتفرس في الرجل والمراة فلم يعرفهما لان المراة ملثمة ويظهر من مجمل حالها انها من اهل النعم . وكذلك الرجل مع التفافه فوق اثوابه بالعباءة وتغطية اكثر وجهه باللثام . فتربص سعيد ليرى ما يكون وقد استغرب مرور هؤلاء في ذلك الطريق الوعر واصبح شديد الميل الى استطلاع حقيقتهم ولم يخف على نفسه لانه يبحث عن جرجيس من زمن طويل وقد سرّه انه وصل اليه

فلما تكاثر رجال العصابة وكادوا يظفرون بالقوم تقدم الزعيم جرجيس وقد عرفه سعيد من طول قامته ونوع لباسه واسترسال شعره وما عليه من الاسلحة الثمينة . وكان قد لبس الجاكت والبنطلون والطماقات وحول وسطه المنطقة فوق الجاكت وفيها الطبنجات والخناجر . وعلى راسه طاقية قصيرة مسطحة وفي مشيته تيه واعجاب . فخاطب الرجل بالتركية وهو ضعيف فيها قائلاً « لا فائدة من دفاعكم وانما انتم تعرضون انفسكم للقتل ونحن لا نريد انفسكم وانما تكفينا اموالكم فان لم تسلموها ايانا قتلناكم . ولا تخافوا على المراة فنحن لا نتعرض للنساء »

فخاطبت المراة رفيقها بلحن الاستغاثة قائلة « يكفي جانم يكفي .. اعطهم ما يريدون »

فابى الرجل ذلك وقال « اليس من العار ان ارضخ لهؤلاء اللصوص رغم انفي ؟ ولكن ... » وحرق الاسنان واشار نحو المراة وهزّ راسه اسفاً يريد ان وجودها معه يلجئه الى القبول والتسليم . على انه استوقف فرسه ووقف وقفة اسد ولم يتحرك فمشى جرجيس نحوه بجأش هادىء وقال له « لا يصعب عليك التسليم فان اعظم منك سلموا لنا وقد رحمناك لاننا اردنا ان نستبقي حياتك اكراماً لهذه المراة »

فتراجع الرجل وقال « وما الذي تريدونه منا ؟ »

قال « نريد ما تحملونه على هذه البغال »

فالتفت الى المراة وقال « وما هو رايكِ ؟ كيف نسلم ... ؟ »

فقالت « لا بأس يا فوزي .. اعطهم ما يطلبون فانهم يرتزقون بهذه الحرفة ...

قبح الله ذلك الطاغية الملعون كم افسد من اخلاق رعاياه »

فلما سمع سعيد اسم فوزي وذكر الطاغية انتبه حالاً ان هذه هي القادين ومعها الاميرالاي فوزي بك كما انبأهم جاسوسهم في رسالته • فاخذ يبحث بنظره عن شيرين فلم يجد معهم من النساء غير القادين • فراى من الحكمة والمرواة ان يتوسط حينئذ وفي توسطه جراة كبيرة لكنه تعود ركوب الاخطار

وكان الظلام قد تكاثف وهناك نار موقدة امام الخيام • وراى رجلاً من العصابة اشعل عوداً من الكبريت انار به مصباحاً ومشى نحو جرجيس • فظهرت عند ذلك سحنة الاميرالاي وكان ملثماً وعليه ثياب السفر • فتقدم سعيد ونادى «جرجيس . . ايها البطل . . »

فالتفت الجميع نحو الصوت واجفلوا اذ لم يكن احد منهم يتوقع ان يسمع صوتاً من وراء الخيام فاجابه جرجيس « من انت ؟ »

قال « اني ضيف عليك وقد قضيت اياماً وانا اطابك لأؤدي لك امانة عندي فهل اقدمها ؟ »

فاستغرب ذلك الطلب واومأ الى رجاله ان يحيطوا بفوزي والقادين وينزلوهم في احدى الخيم وتحول نحو سعيد فرأى رجلاً ليس في لباسه ما يدعو الى التهيب فصاح به « ويلك ؟ من انت ! »

قال « انا رسول اليك من أمة برمتها • • ارعني سمعك واجلسني معك لاقص عليك خبري »

فبغت لهذه الدالة والتفت اليه باحتقار وقال « من انت لتخاطبني بهذه اللهجة انها جسارة غريبة »

قال « قلت انك ستعرف من انا ومتى عرفتني وعرفت من هو خصمك الذي عفوت عن نفسه واقتنعت بماله لا تندم على الاصغاء لي »

فاشار جرجيس الى رجاله ان يضيئوا خيمته ويدخلوا اليها الاسيرين ولحظ سعيد في اثناء تحول القادين عن فرسها انها تتوكا كانها مثقلة فعلم انها حامل • ثم دخل جرجيس ودعا سعيداً وامره بالجلوس واجلس الاميرالاي والقادين على طنفسة هناك وظل هو واقفاً فقال سعيد « تفضل يا حضرة الزعيم اجلس اني عارف قدرك الست رئيس جمعية طوسقا الالبانية ؟ »

قال « نعم ومن انت ؟ قل حالاً »

قال « اما انا فاني مندوب متنكر جئتك برسالة من جمعية الاتحاد والترقي العثمانية سأدفعها اليك الآن ولا حاجة بك ان تعرف من انا » ومد يده واستخرج ورقة دفعها اليه فتناولها ودنا من المصباح واخذ في قراءتها . واخذ الاميرالاي يتفرس في سعيد فلم يذكر انه يعرفه . اما سعيد فانه اغتنم اشتغال جرجيس بتلاوة الورقة وقال للاميرالاي « الست الاميرالاي فوزي باك ومعك حضرة القادين ج ؟ »

فاجفل فوزي بك عند سماعه ذلك التصريح وهو يحسب نفسه بعيداً عن المعارف لا يعلم به احد هناك ولكنه تجاهل وانكر وقال « لا افهم ما تقول — من انت ؟ »

قال « ياللعجب كم تسألون من انا وتنكرون من انتم — لا ينبغي ان تخاف مني اننا لا نقتل على الشبهة كما يفعل صاحبكم في يلدز ولا نطلب غير حقنا . . فاخبرني اين شيرين رفيقتكما ؟ »

فلما سمع سؤاله عن شيرين تحقق انه مطلع على حقيقة امرهم ولا سبيل للانكار واعظم امر الجمعية لتيقظها فقال « ان شيرين فارقتنا في سلانيك »

وكان جرجيس قد فرغ من تلاوة الورقة فرماها الى سعيد باحتقار وقال « هذا كلام لا يمكننا سماعه . نعم اننا اقرب الى المصالحة منكم جماعة المسلمين ولكنكم تحتالون علينا وتضحكون منا فتأتوننا كل يوم ببيان جديد .. تكتبون الينا اليوم بمعنى الاتحاد بين العناصر وتكتبون الى المسلمين تحرضونهم علينا . وقد كنا صدقناكم وعزمنا على حل العصابة فوقع لنا كتاب مرسل منكم الى المسلمين تبينون فيه فضل الاسلام ومزية المسلم على غيره وتجعلون اموالنا حلالاً لكم .. »

فقال سعيد « اين هذا الكتاب انه من رجل مفسد .. اين هو؟ »

فاشار جرجيس الى احد رجاله فاتاه بحفظة استخرج منها كتاباً مرسلاً الى حاكم استاوره في تلك الجهة عليه الطغراء وقد صدر باسم الخليفة . ثم قال جرجيس « الم تقولوا انكم تطلبون الدستور وفيه حماية الاعراض وحفظ الحقوق لكل الناس على اختلاف مذاهبهم ؟ وهذا الكتاب من السلطان يقول عكس ذلك ـ خذ اقرأ الا يقول هنا ان سعي جمعية الاتحاد والترقي في طلب الدستور مفسد للاخلاق ؟ وانه لا يوافق مصلحة المسلمين لانه يجعل نساء المسلمين يخرجن حاسرات كنساء الكفار؟ اقرأ »

فتناول سعيد الورقة وقرا فيها نحو هذا المعنى وامعن نظره في الامضاء فاذا هو « صائب » فعلم انه جاسوس السلطان الذي ذكره الدكتور . ن . وانه وصل الى تلك الجهات واخذ في بث تلك الروح الشريرة التي حذرهم منها الدكتور . فقال سعيد

« يا سيدي ان كاتب هذه الاسطر احد جواسيس المابين وهؤلاء اخصامنا يعملون على عرقلة مساعينا طبعاً فلا ينبغي الاصغاء لهم .. »

فادار جرجيس وجهه واظهر عدم المبالاة بما يقوله سعيد كانه ندم على مسايرته وسماع حديثه والتفت نحو الاميرالاي وقال « اعطونا ما معكم والا قتلناكم »

فشق على سعيد ما رآه من استخفاف جرجيس بقوله ولم يصبر على ذلك الضيم فقال « يا جرجيس .. لايحسن ببطل مثلك ملأت شهرته الخافقين ان يحتقر رسولاً من جمعية حرة تطلب الاتفاق معه على كيد الظالمين . امن اجل رسالة كاذبة من جاسوس منافق تردُّ ايدي الاحرار الممدودة لمصافحتك ؟ »

قال « ومن ينبئني انها من الاحرار ؟ ومن يؤكد لي ان هؤلاء الاحرار القائمين بطلب العدل الحرية لايصيرون عبيداً للظالمين غداً كما صار سواهم ؟ دعني من ذلك وكفى »

فاطرق سعيد واعمل فكرته في طريقة يقنع بها الرجل انه مخطىء واذا هو يسمع دبدبة واطلاق النار حول الخيام بكثرة وسرعة وقد قامت الصيحة في الخيام . فخرج جرجيس للبحث عن السبب . فراى تلك الخيام قد احاط بها الجند العثماني من كل صوب وفر الالبانيون الا جرجيس فانه اوشك ان يفر كعادته . ولولا اشتغاله بامر سعيد ومباحثته واشتغال رجاله بحراسة اولئك الاسرى لاشتموا رائحة الجند عن بعد وفروا الى جبال اخرى اعتصموا بها وامتنع على الجند الوصول اليهم

فاطل سعيد من الخيمة فراى ضعف جرجيس وفرار رجاله فقال للاميرالاي « امكث هنا مع القادين وساعود اليكم » وتقدم نحو الجند فاذا هم فصيلة في مقدمتها ضابط كالاسد الكاسر واتفق وقوع نور المصباح على وجهه فتبينه فاذا هو نيازي بك الرسنه لي الذي اوصاه صادق بك ان يستعينه في كشف اماكن العصابات وكان قد شاهده في مناستير وتعارفا . وكان نيازي لكثرة مطاردته العصابات قد اصبح اسمه فزاعة لهم ولم يلق عصابة الا شتت شملها . فبلغه في تلك الليلة نزول جرجيس هناك بنفسه مع عصابته فاحب ان يبغته ويلاقيه ويباحثه في معنى ما اتى به سعيد . فتسلق الجبل برجاله خلسة وقد عرف المكان من المصباح فرآهم مشتغلين عن التلصص فلم يشعروا الا وهم محاطون بالجند ولم تبق لهم حيلة . ولحظ نيازي عزم جرجيس على الفرار فصاح فيه « جرجيس جرجيس . لا تهرب ولا تخف .. اني لا اريد بك سوءًا »

فوقف جرجيس وقد تعجب سعيد من هـذه الصدفة وتفاءل خيراً بنجاح مشروعهم الجديد وتقدم نحو نيازي وقال « نيازي بك ؟ »

فلما سمع صوته عرفه فترامى عليه وقبله وقال « سعيد بك ؟ انت هنا ما الذي اتى بك .. هل اصابك سوء ؟ »

قال « كلا . اني في خير ولكني مقيم في ضيافة جرجيس البطل الالباني »

فلما سمعه جرجيس يقول ذلك خجل من نفسه واحترمه وتقدم اليه وقال « لم تقل لي من انت .. »

فقال « ليست العبرة في من انا بل العبرة بما جئتك به .. والآن ما رايك اذا سمعت هذا القول من نيازي بك نفسه وهو الظافر الآن ؟ »

فتقدم نيازي الى سعيد وقال « اظنك جئت لتبليغ الرسالة الجديدة »

قال « نعم ولكن صاحبنا لم يصدقني . وقد اطلعني على رسالة من بعض رجال المابين تقول عكس قولنا »

فقال نيازي لجرجيس « اعلم ايها البطل اني من اعضاء هذه الجمعية المقدسة ولكي اوكد لك حسن نيتنا في المنشور الذي اتاك به اخونا سعيد بك اطلب يدك لاصافحك ولنتحد معاً على القوم الظالمين . وبدلاً من ان نتقاتل ونحن ابناء وطن واحد نجتمع على مقاتلة المستبدين ونسعى في نيل الدستور والقانون الاساسي »

فلم يسع جرجيس عند ذلك الا الاذعان ومد يده وصافح نيازي واقسما على العمل معاً وان يكون ذلك سرًّا مكتوماً حتى يأتي وقته . فاشار نيازي الى رجاله ان يتفرقوا ويستريحوا ومشى فدعاه جرجيس الى الاستراحة . فتقدم سعيد وقال لنيازي همساً « الم يبلغ شعبتكم في رسنه خبر القادين التي فرت من يلدز مع احد القواد الالبان ؟ »

قال « بلى .. ومعها شيرين خطيبة صديقي العزيز رامز »

قال « تعال فاريك القائد والقادين اما شيرين فقالا انهما تركاها في سلانيك »

ومشى نيازي الى تلك الخيمة فدخل سعيد وعرفه الى الاميرالاي فوزي بك والقادين . فاثنى الاميرالاي على ما شاهده من بسالة نيازي وحميته واعجب بما رآه من تفانيهم في سبيل الدستور الى ان قال « الآن تأكدت فوز الاحرار وان ذلك الطاغية مغلوب على امره لا محالة »

فقال سعيد « اننا لا ننفك عن الطلب حتى ننال ما نريده او نموت . »

فقال فوزي بك « الا تخبرني كيف عرفتني وقد خرجنا من يلدز ولم يطلع احد على خبرنا »

قال « نحن هنا في هذه الجبال ونطلع على اخبار عبد الحميد في ابعد قصوره

ونعرف ماذا يأكل او يشرب »

فقال « وفقكم الله الى ما تريدون ونحن لم نترك يلدزالاَّ لنكون معكم في هذا السبيل فماذا نفعل ؟ »



نيازي بك

قال « تنزلون مناستير ، وسنلتقي هناك ونتعارف ونتعاون والآن قد تعبتم . واظن جرجيس يغض النظر عن مطالبه منكم » والتفت الى جرجيس وضحك فقال جرجيس « بل انا في خدمتكم الى حيث تريدون »

فقال نيازي « لا تكلفك هذه المشقة فانا اتولى ايصال حضرة الاميرالاي الى مكانه وانما اطلب منك المحافظة على العهد الذي عقدناه في هذه الليلة »

قال « اني على ما تريدون »

فودعوه وعادوا فمشى نيازي ورجاله في خدمة فوزي بك حتى وصلوا الى الطريق

السلطاني وهناك افترقوا. فعاد نيازي الى بلده وهو غارق في بحار التفكير لامر خطر له وهو يخاطب جرجيس في تلك الليلة سيكون له شأن في نيل الدستور

وسار سعيد وفوزي بك يطلبان مناستير. فقص فوزي بك حديثه عن القادين وانه كان يتعشقها قبل ان صارت قادينا وهي لا تلتفت اليه لاشتغالها بعبد الحميد وانها كانت تظهر انعطافها نحوه وكان لها يد في ترقيته حتى صار من الياوران وتولى رئاسة احدى فرق الحرس. فلما علمت بعزم السلطان على الغدر بها بسبب حملها بعثت اليه فدبر امر تهريبها مع شيرين. فسأله عن شيرين اين هي فقال «جئنا معاً الى سلانيك بعد ان طال سفرنا في الطريق لاننا جئنا ركوباً على الافراس في طرق بعيدة عن المدن خوفاً من عيون عبد الحميد. فلما وصلنا سلانيك نزلنا في فندق متنكرين وهي معنا ثم استأذنتنا في الذهاب الى بيت ابيها لعلها ترى والدتها هناك لانها فارقتها في ذلك البيت. فمضت مع خادمها ولم تعد. فبعثنا خادمنا في اليوم التالي يبحث عن خبرها فعاد وقال انه وجد اباها وهو يعرفه منذ كان في يلدز وان صائب باشا الجاسوس معه وقد عزم ان يزفها اليه كأنها يئست من بقاء رامز فقبلت بسواه. ولم يعد بامكاننا البقاء في سلانيك خوفاً من كشف امرنا فسافرنا نطلب بلداً لنا من ولاية مناستير فاتفق لنا ما رايت»

فشق خبر شيرين على سعيد لعلمه انه يغضب رامزاً غضباً لا مزيد عليه. وفكر قليلاً فتذكر الكتاب الذي قبض عليه عند جرجيس بامضاء صائب يبث فيه روح الشقاق فتحقق انه اذا عرضه على الجمعية حكمت على صاحبه بالموت فيقتل على اهون سبيل لكنه يحب ان يعرف مقره وان يبلغ رامزاً ذلك وهو لا يعرف اين هو

---

## الفصل الخامس والسبعون

### اعلان الثورة

وبعد سفر شاق وصلوا الى قرية في ضاحية مناستير صاحبها من نصراء الجمعية كلفه سعيد تهيئة بيت لاقامة عائلة الاميرالاي. وكانت القادين قد ثقل حملها ودنا وقت وضعها فارتاحت في تلك القرية واعد لها سعيد كل ما يلزم من اسباب الراحة. وصحب زوجها الى مناستير وقدم اسمه للجمعية فقبلت عضويته فادخلوه وحلفوه اليمين في الظلمة وهم ملثمون على جاري العادة في من يدخل الجمعية. وبعد خروجه قص سعيد

على الجمعية خبر مهمته وما كان من امره مع جرجيس ثم استخرج الورقة بامضاء صائب واطلعهم عليها فتقرر بالاجماع ان سعي هذا الجاسوس من قبيل محاربة الحرية والدستور وذلك اشد نكاية على الجمعية من الجند والسلاح فتبرع احد الفدائيين بقتله حالما يعرف مقره

وبعد انفضاض الجلسة عاد فوزي بك الى منزله وذهب سعيد الى توحيدة والدة شيرين قص عليها ما سمعه عن ابنتها فلطمت وصاحت « ويلاه .. انه لا يزال يفكر في صائب وكل مصائبنا منه .. لا ينبغي ان ابقى هنا يجب ان اذهب الى سلانيك . . لا شك ان شيرين تكون في اشد الضيق واخاف ان تقبل بذلك المنافق ليأسها من رامز وهي لا تعرف انه حيٌّ .. ويلاه ما العمل يا سيدي ؟ »

فقال سعيد « لا حاجة بك الى السفر امكثي هنا حتى يأتي رامز فتخبريه عن شيرين وانا اذهب الى سلانيك بدلاً عنك »

فرضيت لعلمها ان سعيداً واسع الحيلة لعله يقوى على زوجها فيغير عزمه ويفض ذلك المشكل فاخذ سعيد يتأهب للسفر . وفي صباح الغد اتاه رسول من كاتب الجمعية يدعوه الى جلسة ستعقد في مساء ذلك اليوم لامر هام فلم يسعه الا التربص للاجتماع . عقدت الجلسة وحضرها رجل يعرفه من خيرة الاحرار هو جمال افندي رئيس بلدية رسنة مقر طابور نيازي بك ويعرف ما بينه وبين نيازي من الصداقة والالفة . فلما تم عقد الجلسة قال المرخص « يا اخوتي دعوناكم لنطلعكم على امر عظيم الاهمية هو خطوة جديدة في اعمال جمعيتنا المقدسة وسيأول بلا شك الى نيل الدستور وان تكن اختنا او امنا جمعية سلانيك قد تقدمتنا باعلان الفتك بالظالمين وهي خطوة مهمة في اعمالنا فان شعبة مناستير هذه سيكون لها الحظ بانها ستخطو خطوة اصعب مراساً نعني قيام الامة معاً للمطالبة بحقوقها باعلان الثورة . والفضل في ذلك راجع الى شعبة رسنة بهمة الاخ الغيور البطل نيازي بك فانه بعث الينا صديقه اخانا جمال افندي ليقص علينا ما هو عازم عليه فاعيروه سمعكم »

فاصغى الجميع لما سيتلوه جمال افندي فقال « يا اخوتي نحن اذا فعلنا شيئاً او استطعنا عمل شيء فانما نفعله بروح هذه الجمعية المقدسة التي ترشدنا وتهدينا وتأخذ بناصرنا . اما ما جئت من اجله فهو ان اخانا نيازي بك قائد طابور رسنة كلكم تعرفون شجاعته في حروبه ببلاد اليونان وكانت الحكومة قد كلفته مطاردة العصابات البلغارية والالبانية وقد طاردها بهمة وبسالة قد عرفتموها فعلم بالاختبار ان الحكومة عاجزة

عن مطاردة تلك العصابات وان قيام الامة في وجه الظالمين على هذه الصورة باسم الحق والحرية افضل وسيلة لنيل حقوقها فكاشفني بهذا الامر (في ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٨) ومعنا طاهر افندي مفتش البوليس وكلنا من اعضاء هذه الجمعية المقدسة . وقال لنا نيازي « عندي ٥٠٠ ليرة اقتصدتها من تعبي ويمكننا ان نجمع ١٥٠ الى ٢٠٠ رجل من اعضاء الجمعية والعساكر القرويين ونهيء لهم السلاح وستشاركنا اوخري ورسنة ايضاً فنشغل الحكومة في هذه الآجام اشهراً » وفاتني ان اقول لكم ان المحرك الاصلي الذي حملنا على هذا القيام انما هو امر مضبطة روال التي تقضي بتقسيم مكدونيا واعطائها الى الاجانب كما تعلمون . ولا يمكنني كتم ما رايته من تحمس الاخ نيازي بك ونشاطه فمن قوله لنا « ان رسنة ينبغي ان تبدأ بهذه الثورة لان البلغاريين بدأوا منها وجلبوا لنا هذا البلاء . وينبغي لنا ان نحب المسيحيين كاخواننا ونساوي بيننا وبينهم ونعتبر اعراضهم اعراضنا وارواحهم ارواحنا واموالهم اموالنا لان نهضتنا انما هي ضد اصول الادارة الفاسدة لاعلان الحرية والمساواة والاخاء . واني مرسل اخواتي وابنائهن وامراتي بلا معين الى مناستير ومودعهم وداعاً ابدياً » فوافقناه على العمل وانفذوني اليكم لنستشيركم في ذلك »

فلما فرغ جمال افندي من كلامه عرضت المسألة على الاعضاء فقال سعيد : انه لنعم الراي هو . وانا اعلم منكم بصوابه لاني عانيت عذاباً شديداً في البحث عن العصابات ورايت المشقة في مناواتها فعلمت ان الحكومة تعجز عن مطاردتها وهي شرذمة بلا نظام ولا تدريب فكيف اذا كانت يديرها جند منظم — اسمحوا لي ان اهنيء نيازي بك على هذا الفكر الجميل وان اشكره لقيامه به وتعريض حياته للخطر وهو عريس لم يتم العام على زواجه »

فاستأذن جمال افندي للكلام وقال « قد اذكرتموني امراً جميلاً بهذا المعنى وذلك ان نيازي لما عزم على تشكل العصابة علم ان ذلك يقتضي ذهابه في الارض والاعتصام بالجبال وتحمل مشاق الاسفار والاخطار فذهب الى عروسه وخاطبها بذلك فشجعته وقد نقل لي لفظها بعينه وهو قولها « اذهب يا نيازي لا وظيفة لك سوى الموت في مصلحة الوطن » فارسلها مع عديله الى اهلها

فوقف صادق بك وقال « ان امراة اخينا نيازي تذكرنا بخطيبة اخينا رامز فان امة فيها مثل هؤلاء النساء لا يجوز حرمانها من الدستور . والان لا اظنكم ترون مانعاً من الموافقة على مشروع الاخ نيازي بك ولنرسل اليه التعليمات اللازمة وعسى ان يكون

عمله قدوة لسواه اذ يشعر اهل المابين ان الامة برمتها غاضبة عليهم لعلهم يشعرون بالواجب . وعلينا الان ان نبلغ هذا الخبر الى الجمعية المركزية في سلانيك »

فوقف سعيد وقال « انا اقوم بهذه المهمة » اراد ان يغتنم الفرصة للبحث عن شيرين هناك

فقال المرخص « جزاك الله خيراً ـ اظن رامزاً لم يعد من مهمته في مخابرة قناصل الدول ٠٠ اين هو الان يا ترى ؟ »

قال « لم يرجع بعد ولا نعلم اين هو ولكنه لا يلبث ان يعود وقد افلح باذن الله »

ثم ارفضت الجلسة وتوجه جمال افندي ومعه التعليمات اللازمة لنيازي بك وشخص سعيد بك الى سلانيك وهو على احر من الجمر فبلغ الجمعية الخبر وسمع منها خبراً لا يقل اهمية وهو ان انور بك قام لمثل هذه الغرض بمن معه من الجند . وكلفته الجمعية تبليغ ذلك الى شعبه مناستير . ثم قصد منزل طهماز فوجد المكان قفراً فسأل الجيران فاخبروه ان طهماز اتى واتت اليه ابنته شيرين ومعها خادمها وبعد ان مكثوا اياماً سافروا للتفتيش عن توحيدة . فسأل « هل يعرفون البلد الذي قصدوه »

فاجابوا « كلا »

فتأسف سعيد لهذا الفشل ولكنه تجلد لان الزمان علمه الصبر وان الانسان لا ينبغي ان يقلق ويضجر ولا ان ييأس . فعاد الى مناستير فرآها قائمة قاعدة وقد وصل اليها شمسي باشا واخذ في التحري والبحث والتشديد وقد دله بعضهم على بعض اعضاء الجمعية فعزم على الفتك بهم . فعقدت الجمعية جلسة مستعجلة ثبتت فيها الحكم عليه بالاعدام ونهض الفدائي وهو يبتسم لقيامه بهذه المهمة . وفي اليوم التالي ضجت المدينة لمقتل ذلك المشير على يد شاب ملازم اطلق عليه مسدسه بين ١٥٠٠ من اعوانه وغيرهم ونجا بنفسه سالماً ولم يقف احد على خبره . فكان لهذا الفتك تأثير شديد في قلوب اعداء الجمعية وتضاعفت هيبتها وخصوصاً بعد ان شاع خبر عصابة نيازي

## الفصل الخامس والسبعون

### اعمال عصابة نيازي

اما تلك العصابة فقد نجحت نجاحاً باهراً وطلب الانضمام اليهم قريستو القائد البلغاري فقبلوه فاكتسبوا بذلك ثقة البلغاريين . وقبل سفر العصابة كتب نيازي اعلانات بعث بها الى المابين والمفتش العام وقومندان الجندرمة في مناستير وبكباشي الطابور في رسنة

ومدير رسنة . وجاء في كتابه الى المابين « ان الامة تطلب الدستور والجمعية صاحبة هذا المشروع مستعدة لخدمة الذات السلطانية ولا تحاسبها عما سلف من السيئات فنحن نريد تنفيذ القانون الاساسي هذا اليوم فان كانت الحكومة لا تمنحه طوعاً فالامة تأخذه عنوة »

ولما آن السفر اخذوا يهتمون بصرف انظار الحكومة عنهم لئلا تشعر بفرارهم فارتأى نيازي ان يصرف اهتمامها الى مكان خارج المدينة زعم ان عصابة بلغارية هاجمته فخرج الجند الى ذلك المكان فخلت الثكنة فدخل هو ورجاله اليها وفتحوا صناديق الاسلحة واخذوا ما وجدوه من النقود وكتب نيازي صكاً بذلك حفظ في صندوق الطابور خرجوا وهم ١٥٠ رجلاً نحو لاحجة يوم الجمعة . فالتقوا بمن وافاهم الى هناك وشرح لهم نيازي خطته فقال « ان خطتي الجهاد في سبيل الحرية الى الممات فمن لا يرضى فليرجع » فوافقوه وساروا معه وجعلوا يطوفون القرى يدعون اهلها الى الاتحاد معهم في طلب الحرية والدستور ويحلفونهم على الثبات . وبذلوا الجهد في محاسنة غير المسلمين ومعاملة الاهالي بالرفق والعدل وادخلوا عدداً كبيراً من الاهالي في الجمعية وفيهم النصارى والمسلمون على اختلاف الطوائف في استاورة واوخري وغيرها . وكتب نيازي الى جرجيس رئيس عصابة الالبانيين يدعوه الى الانضمام اليه لمناهضة الحكومة الظالمة وكتب بذلك الى غيره ايضاً

فلما علمت الحكومة في رسنه بخروج نيازي ورجاله بعثت جنداً للقبض عليهم فخالفوهم في الطرق . وساعدهم على الفوز ان الجمعية كان نفوذها قد تمكن في اهم المدن هناك مثل اوخري ودبره وقروشيشته وغيرها . وانضم اليهم كثيرون من المغضوب عليهم الفارين من كل الطوائف . وكان نيازي يصرف الرواتب الى رجاله مما جاء به معه واذا احتاج الى المال اخذ من البلد الذي يكون فيه واعطى شيوخه صكاً على الحكومة تقتطع قيمته من الضرائب

وفي اليوم الثالث من خروجه كتب الى الجمعية في مناستير بما فعله وبشرهم بنجاحه وبعث منشوراً الى نصارى مكدونية ترجم الى لغاتهم يطلب اليهم نبذ الضغائن القديمة والاتحاد مع المسلمين لطلب الدستور وان هذا هو الغرض الاصلي لجمعية الاتحاد والترقي واهتم بتحليف القرى الاسلامية المتقاربة وتشكيل هيئات ادارتها واحكام الصلح والوفاق بينها . وجمع اليه الهاربين من الجنود والمسجونين ممن كانوا يضرون بالاهالي واجمل لهم النصح ودبر ما يمنع مضارهم واجتذب قلوبهم بالعفو والملاطفة وحسن الاسلوب

واتباع الحق والعدل ودبروا طريقة لمخابرة رسنه واوخري واتخذوا بريداً وعينوا منازله

واشتد ازر نيازي لما بلغه قيام انور بك مثل قيامه وكان ينشيء في القرى التي يمر بها نوعاً من الحكومة الدستورية على ما يوافق نظام الجمعية والناس ينضمون اليه ويؤازرونه ولحق به عدة عصابات وطنية

فلما بلغت اخبار هذا النجاح الى مناستير اشتد ازر الجمعية به فكتبت انذاراً الى والي مناستير تقول في جملته « ان حكومتكم الحاضرة غير شرعية لانها خالفت الدستور وان الجمعية تعمل على استرداد الحق الصريح ( الدستور ) الخ » وكتبت الى نيازي كتاباً ضمنته الاوامر والنصائح والاخبار وفي جملة ذلك « ان شمسي باشا اعدم هنا علناً ونجا قاتله »

ففرح نيازي بذلك . وخافت الحكومة وداهمها الارتباك فعينت عثمان باشا الفريق بدلاً من شمسي فاجتمعت الجمعية وبحثت في ما تفعله فرات الميل الى الرفق فقررت القبض عليه بدلاً من قتله وبعثت تستقدم نيازي. وكان قد طاف كثيراً من بلاد البانيا وعزم على المسير الى يانيا فقضى في تنقله اياماً يجمع كلمة الناس باسم الجمعية ويستحلفهم على الثبات ضد الظلم بلا تفريق بين المذاهب او العناصر فدخل في محالفته البلغار والصرب والالبان والاروام وصار الرهبان يحتفلون بقدومه ويتوسلون الى الله ان يأخذ بيده وهم يعدون الجمعية حكومة دستورية شرعية خفية

فلما وصله الامر بالمجيء الى مناستير اسرع اليها وهو لا يعلم ما يطلب منه وقاسى في سبيل عودته مشقة حتى اتى ضواحي مناستير فوصله كتاب من الجمعية تأمره بالقبض على عثمان باشا فحاصروه في مركز القومندانية وقطعوا الاسلاك التلغرافية وجردوا الحراس من الاسلحة . وكان الباشا نائماً فايقظوه وامسكوه من ذراعيه وافهموه ان لا محل للغضب او الاضطراب . فتقدم اليه نيازي واخذ يقنعه انهم لا يريدون اذاه وان مقصدهم شريف وان المراد حمله ضيفاً الى رسنه . وسلم اليه كتاباً من الجمعية قراه فاذا عبارته لطيفة وفيه ثناء على قدرته العسكرية وشجاعته وان الجمعية لا تنوي قتله كما قتلت شمسي باشا بل هي تأسف اذا اصيبت شعرة من شعره باذى . فسكت فاخذوه الى رسنة

فلما رات الحكومة انحياز فيلق مكدونية الى الجمعية بعثت تستنجد فيلق الاناطول فانحاز الى الجمعية فاسقط بيدها

# الفصل السادس والسبعون

## المولود الجديد

كل ذلك والجمعية تزداد قوة واملاً ولكنها كانت تنتظر رجوع رامز من مهمته الى القناصل. وفي اواسط يوليو من تلك السنة عاد رامز وطلب عقد الجمعية واخبرهم ان الدول لا ترى باساً من طلب الدستور ولا تعترضهم اذا طلبوه »

فتباحثوا وقد اخذت الحماسة منهم مأخذاً عظيماً فقرروا طلب الدستور من المابين

فوقف سعيد وقال « ارى قبل الاقدام على هذا الطلب وهو آخر خطوة نخطوها في عملنا ان نستشير اخانا الجديد الاميرالاي فوزي بك فانه ذو معرفة وحنكة وامرأته من قوادين عبد الحميد وتعرف اخلاقه »

فاستحسن الجميع رأيه وكلفوا سعيداً ان يخابره فاصطحب ابنهُ رامزاً وقص عليه خبر شيرين في اثناء الطريق وكيف انهُ ذهب الى سلانيك ولم يجدها ولا يعلم احد مقرها فتجددت احزانه. وقد علمت ان فوزي بك اقام بقرية بضاحية مناستير فوصلوا القرية في الضحى فوجدوا فوزي بك في الحديقة وامارات البشر على وجهه فلما راى سعيداً هش له وتقدم لاستقباله فتقدم سعيد للتعريف بينه وبين ابنه وسأله عن سبب تغيبه عن مناستير منذ ايام فقال « انه كان مشتغلاً بالقادين لانها وضعت منذ بضعة ايام »

فقال سعيد « وماذا وضعت »

قال « وضعت غلاماً »

وكان سعيد قد علم من حديث جرى بينه و بين فوزي بك ان الطفل ابن عبد الحميد وهمَّ ان يسأله عن شكله فاسرع فوزي واستخرج من جيبه صورة فوتوغرافية دفعها الى سعيد وقال « هذه صورة الطفل »

فاستغرب سعيد تسرعهم في تصويره فقال فوزي « ان القادين طلبت ذلك بسرعة وارسلت الصورة الى يلدز من بضعة ايام وهي تعتقد ان ارسالها يسهل نيل الدستور على الجمعية »

فتأمل سعيد في الصورة ومرت في خاطره افكار متضاربة وتذكر حوادث كثيرة

انتشبت فيها الحروب اعواماً بسبب دعاة الملك المشكوك في انسابهم . لكنه عاد الى المهمة التي جاء من اجلها فقص على فوزي بك نجاح الجمعية وقال « انها عزمت على طلب الدستور من السلطان فاشرت عليها ان تستشيرك في ذلك قبل الاقدام عليه فماذا ترى »

قال « اري المبادرة الى الطلب بلهجة شديدة فان السلطان ضعيف الآن وهذه فرصة لا تضيعوها »

وكان رامز وهو يسمع الحديث ينزه نظره في ما حوله من الاشجار والرياحين فوقع بصره على شبح بلباس النساء مر في طرف الحديقة البعيد باسرع من لمح البصر فارتاب في امره لانه راى السؤال عنه فضولاً منه فسكت . ولم تمض بضع عشرة دقيقة حتى راى اهل القصر في هرج وقد قامت الصيحة وتراكض الخدم نحو الحديقة فبغت فوزي بك وصاح فيهم ما بالكم فتقدم اليه احد الخدم وهو يلطم ويقول « الطفل ! الطفل !

فقال « ما باله .. ماذا جرى له ؟ »

قال « لا ادري ... انهُ يصيح من الالم وقد ازرق بدنه وغارت عيناه .. »

فركض فوزي وتبعه سعيد ورامز فسمعوا بكاء القادين قبل الوصول الى البيت فدخلوا الدار ودخل فوزي الى غرفة القادين وبعد برهة عاد وهو يحمل الطفل ميتاً لا حراك به ويكاد جلده يكون اسود فحالما وقع نظر سعيد عليه عرف انه مات مسموماً فقال « ماذا اطعمتموه ؟ »

قالوا « لم نطعمه شيئاً »

قال « لا بد من شيء سام دخل جوفه . . انظروا من خدعكم .. »

فالتفت الخادم الى المرضع فانتبهت لامر جرى في تلك الساعة فصاحت « ويلاه لعل تلك الساحرة التي حنكته قد دست السم في فيه .. »

فقال فوزي « من هي هذه الساحرة ؟ »

فاخذت المرضع في البكاء وجعلت تلطم وجهها وتقول « اقتلوني اقتلوني انا الشقية انا الجاهلة .. ان المراة اتتني في هذا الصباح وزعمت انها ساحرة وطبيبة وانها تحنك الاولاد فيسمنون وسحرتني بلطفها وحملت الطفل لحظة دخلت في اثنائها لغرض فرجعت ورايت الطفل وحده كالنائم ثم سمعته يصرخ ويتوجع . . ويلاه . . اين هذه الملعونة ؟ » واخذت في النواح

فقال رامز « رايت منذ ربع ساعة امراة عليها ازار ملون مرت بسرعة من طرف الحديقة لعلها هي .. »

فصاحت المرضع « نعم هي هي . . » وهمت ان تتبعها فقال فوزي بك « ارجعي انك لن تدركيها .. ولا بد من يد جانية حملتها على هذا العمل »

فقال سعيد في نفسه « ان مقتل هذا الطفل انقذ الامة من حروب اهلية في التنازع على الملك »

وهم في ذلك راوا رجلاً مسرعاً نحوهم ينهب الارض نهباً فتوجهت الانظار اليه ولم يقترب منهم حتى عرف رامز انه خريستو خادم شيرين فخفق قلبه تطلعاً الى حبيبته ومشى نحوه لكن الخادم لم ينتبه له ولكنه صاح « فوزي بك فوزي بك! » وهو يلهث من التعب فتراجع رامز واجابه فوزي قائلاً « ماذا تريد ما بالك يا خريستو ؟ »

فقال جئت لانبهك الى جريمة يسعى بعض المفسدين في ارتكابها واخاف ان اكون قد تأخرت لانني لم اكن اعرف هذا المنزل »

فبغت فوزي وتحقق ظنه واقشعر بدنه لضياع الفرصة بتأخر ذلك الرسول وقال « نعم ان كنت آتياً لتحذرنا من وقوع هذه الجناية فقد تأخرتَ .. »

فصفق خريستو اسفاً وقال « يا للخسارة .. تباً لاهل البغي الاشرار . . . »

فقال البيك « قل .. ماذا جرى من هو مرتكب هذه الجريمة ؟ »

قال « انه جاسوس ملعون اسمه صائب باشا »

فلما سمع رامز ذلك الاسم قفّ شعر راسه وصاح « خريستو . . . اين هو صائب اللعين »

ولم يكن خريستو يلتفت الى احد من الحاضرين غير فوزي بك فلما سمع صوت رامز اجفل والتفت اليه وصاح « سيدي رامز افندي . . . هذا انت ؟ » واكب على يديه واخذ يقبلهما ويذرف الدموع .. ثم تنفس الصعداء وقال « الحمد لله الذي اراني وجهك سالماً . . ما هذه الصدفة ؟ من لي ان اطير الى سيدتي شيرين وابشرها هذه البشارة »

قال « اين هي الآن ؟ »

قال « هي في ضاحية مناستير بالجانب الاخر مع ابيها . . »

فابتدره قائلاً « وصائب اين هو ؟ »

قال « تركته في هذا الصباح هناك وفررت انقل الدسيسة التي دبرها مساء امس مع احدى النساء على ان تسم الطفل – ولم يكن هذا اللعين عارفاً بمكان سعادة الاميرالاي الا امس بعد ان ضعف شأن الحكومة وتحقق ان الجند مع الجمعية فاراد ان يتم مهمته

بقتل الطفل خاسة فعلمت انه يدبر هذه الدسيسة فاسرعت لاخباركم ولكن سبق السيف العزل .. »

فقال رامز « نأسف كثيراً لفوات الفرصة » والتفت الى خريستو وقال « هل صائب هناك الآن »

قال « نعم »

فالتفت الى فوزي بك وقال « استأذن سيدي في الذهاب لعلي اظفر بذلك المنافق فاذيقه الموت » وودعه مع ابيه ومشيا مع خريستو فسأله رامز في اثناء الطريق « ما معنى وجود هذا الملعون في بيت سيدك وشيرين هناك ؟ »

قال « اقص عليك الخبر ياسيدي باختصار . ان سيدتي لما يئست من رجوعك يوم سفرك الى يلدز صممت على الذهاب بنفسها الى هناك واستعانت بي في هذا الامر. فسافرنا الى الاستانة ومنها الى يلدز كما قد علمت على ما اظن فمكثت في يلدز بضعة ايام بين الخدم كواحد منهم . فلما عزمتْ سيدتي على الفرار مع القادين جئت في خدمتها فوصلنا سلانيك بعد مدة طويلة فاحبَّت ان تسأل عن والدتها لانها تركتها فيها فاستأذنت من القادين وفوزي بك وسرت في خدمتها الى بيت ابيها فوجدت اباها وحده فرحب بها واظهر لها كل انعطاف وقال لها « ان والدتها آتية قريباً » فندمت على مجيئها الى البيت لان صائب باشا اتى في الصباح التالي لزيارة والدها وقد صار باشا وتوسع في النفقة واللبس والبذخ . وسمعت سيدي مرة يحبب اليها صائباً بانه صار من اقرب المقربين الى السلطان وقد عوَّل عليه باكبر مهامه لمعاكسة الاحرار وان رامزاً قتل ولا فائدة من انتظاره ولا تلبث الجمعية ان تتمزق . وهي لا تجيب. واخيراً تقدمتْ اليه ان لا يخاطبها بهذا الشأن مطلقاً . وهي الى الآن لا تعرف انك حيٌّ ولكنها ثابتة في حبك . . وبعد ايام سافر صائب باشا لا ادري الى اين . وظلت شيرين مع ابيها وهي حزينة لا يلذ لها طعام ولا شراب تسأل عن والدتها ولا تعرف مقرها وقد سمعت من الجيران انها في مناستير فطلبت الى والدها ان ينقلها الى هنا فانتقل بها وهو لا يأذن بخروجها ولا يسمح لها ان تكلم احداً وقد ضيق عليَّ ايضاً وحبسني في البيت واصبح لا يكلفني ان اشتري شيئاً من السوق . . فلما جئنا مناستير انزلنا في الفندق الذي نحن ذاهبون اليه وقال لسيدتي انه بعث للبحث عن والدتها . وانا لا اقدر على الخروج ولو عرفت انك هنا لهربت اليك . وكان صائب في اثناء هذه المدة يتردد الى الفندق تحمل الهدايا ويتزلف ويتملق بكل وسيلة وسيدتي لا تعيره التفاتاً حتى سمعته امس

يخاطب تلك المرأة عن تسميم الطفل ورايته يدلها على بيت فوزي بك وتحققت ان خروجي ينجي هذا الطفل من الموت واخبرت سيدتي شيرين فامرتني بالخروج حالاً لكنني تأخرت عن الوقت اللازم فلا حول ولا . . »

فقال رامز « تبًّا لهذا اللعين — الا يزال يتعقبنا ؟ قد انقضى اجله بلا ريب » قال ذلك واعد مسدسه وقد عزم ان يفتك به حالما يقع نظره عليه واصبح يرتعد من شدة الغيرة والتأثر . واعاد السؤال عن شيرين واحوالها ليلهو بالحديث بقية الطريق وبعد مسير ساعة لم يجدوا في اثنائها مركبة يركبونها اطلوا على بيت ظهر لهم عن بعد بين البساتين فقال خريستو « هذا هو الفندق » فالحوا في المسير وخصوصاً خريستو فانه عمد الى الركض حتى سبقهم فراوهُ وصل الفندق ودخله فاسرعوا نحوه فراوه خارجاً وهو يصفق تصفيق الفشل ويقول « لم اجد في الفندق احداً »

فبغت رامز وقال « اين ذهبوا ؟ »

قال « سألت صاحب الفندق فاخبرني انهم بعد خروجي في هذا الصباح ركبوا وساروا الى حيث لا يعلم »

فقال سعيد « يظهر انهم اشتبهوا بخروجك وخافوا ان تبلغ خبرهم للجمعية فانتقلوا الى مخبأٍ آخر . فوقف رامز مبهوتاً لا يقول شيئاً فقال له خريستو « دع ذلك اليَّ يا سيدي وانا آتيك بخبره عاجلاً . اين اجدك ؟ »

قال « ضع الخبر عند سيدتك توحيدة فانها في بيت اهلها » ووصف له البيت « واذا اقتضى الامر مكاتبتي فهذا عنواني » وذكره له

فقال « حسناً .. اتركوني وانصرفوا »

فتركاه وعادا وهما لا يتكلمان والنار تتأجج في قلب رامز ويتصور نفسه اذا راى صائباً ليأكانه اكلاً — ولحظ ابوه فيه ذلك فقال « دع ذلك عنك يابني وهلم بنا الى الجمعية نؤدي لها نتيجة مهمتنا في مشورة فوزي بك »

فاسرعوا في ابلاغ الجمعية ان فوزي بك يرى الاسراع في طلب الدستور فاقرت على تنفيذ قرارها بطلبه فارسلت تلغرافاً الى المابين تطلب فيه اعادة مجلس المبعوثان وهذا نصه :

« الى الحضور الاقدس لحضرة ملجأ الخلافة

« نسترحم المساعدة بانفاذ القانون الاساسي الذي منح واحسن الى التبعة والرعية بالارادات السنية المتقررة وصدور الارادة السنيـة بما يجب في ذلك وقاية لصداقتنـا

او عبوديتنا من الخلل ونعرض انه اذا لم يصدر الفرمان الهمايوني بافتتاح مجلس المبعوثان الى يوم الاحد بديهي ان تحدث احوال تخالف الرضاء الشهرياري وان المأمورين الملكيين والوجوه والامراء والضباط والعسكريين والافراد الشاهانية والعلماء والمشايخ وكل المنتسبين الى الاديان المختلفة كباراً وصغاراً الموجودين بداخل ولاية مناستير بلا استثناء تعهدوا بوحدانية الاله واصبحوا تحت الميثاق العام ؟

في ٩ تموز سنة ١٣٢٤ جمعية الاتحاد والترقي
مركز مناستير

# الفصل الثامن والسبعون

## عبد الحميد في يلدز

فلنرجع الى ربّ يلدز وما كان من شأنه بعد تلك الحوادث . تركناه وقد وقع الرعب في قلبه لفرار القادين وهي حامل وتشاءم من فرارها ووجه عنايته الى مطاردة الجمعية والفتك بها وجعل معوّله على شمسي باشا المشير . ولم يلبث ان اتاه التلغراف بمقتله نخارت قواه وزادت وساوسه ومال الى العزلة للتأمل والتفكير . وعمد الى استطلاع الغيب على ايدي المشايخ والمبصرين وهم يطمئنونه . وانما كان تشاؤمه بالاكثر من وضع القادين . فبذل جهده في تعقبها بعد فرارها حتى اخبره جواسيسه انها في مناستير مع فوزي بك وكان قد فوّض الى شمسي باشا الامر بالقبض عليهما فتعجلت الجمعية منيته ففوض ذلك الى عثمان باشا فقبض واستحث فيلق الاناطول ولم يجبه كما علمت فازداد فشلاً . وكان صائب باشا يعلم رغبة السلطان في ذلك فراى ان يخدمه بقتل الطفل اذ يستحيل عليه القبض على القادين او الاميرالاي بعد فشل الحكومة . فعل ذلك من تلقاء نفسه والسلطان لا يعلم

فلما تعاظم اليأس على عبد الحميد وتراكمت عليه الهواجس بذهاب القوة العسكرية من يده في مكدونية والاناطول تضاعفت وساوسه واصبح يكره ان يرى رسولاً قادماً نحوه لتوالي اخبار السوء عليه حتى غدا لا يتوقع خبراً مفرحاً ومال الى العزلة ولم يعد احد يجسر على مقابلته وان كان في حال المقابلة لا يظهر عليه شيء من القلق

لاقتداره الغريب على اخفاء انفعالاته ـ على انه كان كيفما توجه تصور القادين ج امامه واذا تصوَّر وضعها شعر بخفقان قلبه

وهو في ذلك جاءت محفظة البريد على جاري العادة فوضعوها على الطاولة في غرفة المطالعة وذهبوا . واتى هو الى الغرفة في الصباح فراى المحفظة ولم يفتحها لئلا يكون فيها ما يسوءه . فآن الغداء ولم يذق من الطعام الا قليلاً لكنه اكثر من التدخين. فلما جاء الغروب وانقبضت الطبيعة لفراق الشمس حمله حب الاطلاع على فتح المحفظة وقد انيرت المصابيح فوق الطاولة ففتحها وقلَّب ما فيها من الظروف فراى بينها ظرفاً عليه ختم مناستير وحالما وقع نظره على العنوان تسارعت دقات قلبه لانه بخط القادين ج فاخذ في فتحه ويده ترتجف من التأثر ولما فضه وجد فيه صورة فوتوغرافية لطفل عار ليس عليه من الثياب الا ملاءة بيضاء ووجهه يضحك كالملاك . فحالما رآه ادرك انه ابنه ـ فلم يستطع التفرس فيه طويلاً فقلب الورقة ليخفي الصورة عن عينيه فراى على قفاها كتابة هذا نصها :

« هذه يا ظالم صورة ابنك الذي كنت تتعمد قتله وقتل والدته خوفاً من ان يكون وجوده شؤماً يذهب بدولتك . فها هو قد وجد وامه حية في مكان لا يصل اليه سلطانك فاعلم ان تنجيم المنجمين قد صدق ولم يبق لك في السيادة مأرب من هذه الساعة . . تب الى الله وارجع »

ولم يكد يتم القراءة حتى اختلجت اعضاؤه فاستلقى على كرسي طويل تعوَّد ان ينام عليه احياناً واستغرق في افكاره وراجع تاريخ حياته وما مرَّ بها من الاهوال وكم قتل من الانفس وانفق من الاموال في سبيل حفظ سيادته والمحافظة على حياته وكان معوَّله على الجند فاصبح الجند ضده ولم يعد ماله ينفعه

وما زال في امثال هذه الهواجس وقد اخذ التعب منه مأخذاً عظيماً فغلب عليه النعاس ونام فتوالت عليه الاحلام المزعجة فتراءت له القادين ج تحمل طفلها على ذراعها وتقول له « هذا هو ابني وابنك فقد افل نجم سعدك دع الملك لاهله . » ثم تراءى له ان البوسفور قد جفَّ ماؤه وانكشف قاعه وقد نبتت جثث القتلى بين صخوره كالاسفنج وكل اسفنجة تشبه واحداً من قتلاه قد حملق بعينه فيه . واخيراً راى مدحت عائداً من الطائف يدرج على الارض جثةً بلا راس حتى وصل باب المابين فاذا براسه قد تدحرج من مخبأه واستقر على الجثة بين الكتفين واخذ في توبيخه فذكره باءور كانت بينهما لا يعرفها سواهما فاجفل واستيقظ ثم عاد فنام وعادت اليه الاحلام

وما زال في ذلك الى الصباح وقد استيقظ من صوت الحاجب وقد جاء ينبئه بقدوم الباشكاتب لامر هام فامر بادخاله فدخل وفي يده رسالة جمعية الاتحاد والترقي في مناستير تطلب الدستور فدفعها الى السلطان فلما فتحها وقراها لم يستغربها لانها اقل مما كان يتوقعه على اثر تلك الوساوس — كان يخاف ان يأتي الاحرار اليه فاتحين فيكون تحت خطر القتل وهو يبذل كل شيء في سبيل البقاء حياً . فاذا هم يطلبون الدستور فقط بعبارة لطيفة جدًّا فاحسَّ بضعفه وعزم على الاجابة لكنه دعى وزراءه وذوي شوراه واخذ يباحثهم في هل يجيب طلب الجمعية

ولم يكن الاحرار يشكون في اجابة طلبهم ولذلك كانوا فرحين وخصوصاً الفدائيون والابطال المحاربون امثال نيازي وانور وبالجملة فان الجميع كانوا فرحين الا رامز فانه كان منغصاً لضياع شيرين

# الفصل التاسع والسبعون

## شيرين وصائب

اما شيرين فقد علمت ان طهماز فرَّ بها من ذلك الفندق خوفاً من وشاية خريستو بعد فراره لعلمه انه من حزب رامز. وكان طهماز قد علم من صائب ان رامزاً حيٌّ وله عصبة قوية من جمعية الاتحاد والترقي في مناستير فرجع بشيرين الى سلانيك وسبقه صائب الى هناك وعاد الى التردد والتزلف الى شيرين ولم يخبرها احد ببقاء رامز حياً . وما زال صائب يطاولها حتى خاف فوز الاحرار بعد مقتل شمسي والقبض على عثمان وارسال التلغراف الى المابين بطلب الدستور. وشعر انه لم يبق له عيش فالح على ابيها ان يعقد له عليها ليسافر بها . فاستخدم طهماز سلطانه الابوي وخاطبها بلهجة صاحب السلطة الوالدية على اثر مقابلة طويلة معها فصل لها فيها مزايا صائب باشا وما يرجوه من النعم على يده وان رامزاً صار تراباً فلم تزدد الا رفضاً فقال لها « ان السلطة لي وحدي في تزويجك .. وغداً يأتي القاضي ليعقد عقدك على صائب باشا .. اذ لا يجوز ان نخسر بسبب جنونك صهراً مثل هذا »

وكانت قد تعبت من تكرار الرفض وملت الجدال وقد اخذ الهزال منها مأخذاً

عظيماً وايقنت بموت رامز وكرهت الحياة فلما خاطبها والدها بهذه اللهجة سكتت لكنها اعدت خنجراً ماضياً خبأته تحت اثوابها وعزمت اذا لم تجد لها نجاة ان تقتل صائباً وتنتحر

اما خريستو فما زال يقتص الآثار حتى علم انهم في سلانيك فجاءها في صباح اليوم المعين لعقد القران فلما علم بقرب العقد والسفر خف الى مكتب التلغراف وبعث الى رامز ان صائباً هنا فليأت سريعاً . وهو مع ذلك يعلم ان رامزاً يستحيل عليه الوصول الى سلانيك قبل صباح الغد اذ يكون قد قضي الامر ولكنه فعل ما يمكنه . وهو لا يستطيع الدخول الى المنزل للوصول الى صائب . واخيراً عزم على المخاطرة بحياته فاقتنى مسدساً خبأه بين اثوابه وجاء قبل ميعاد العقد بساعتين وجعل يترقب الفرص للدخول الى المنزل فرأى القاضي داخلاً ومعه شاهدان فاراد ان يدس نفسه معهم فرفسه احد الشاهدين رفسة القته على الارض . فاستغرب خريستو اهتمام ذلك الشاهد به وارتاب من امره . فدار من جهة النافذة لعله يقدر ان يصوب المسدس من هناك فلم يجد منفذاً . فراى ان يخبر شيرين على الاقل ببقاء رامز حياً لعل ذلك ينعشها ويساعدها فكتب كلمتين على ورقة وذهب الى الجيران وهو يعرف خادمهم وبينهما صداقة متينه فسلم اليه الورقة وحلفه بايصالها الى شيرين حيثما تكون

فاخذ الخادم الورقة ودخل من باب المطبخ فلقي الخادم الجديد الذي جاؤا به للمأدبة في ذلك اليوم فوقف يشاغله ويراقب حركات شيرين حتى رآها اتت المطبخ لتبعد عن ابيها وصاحبه فاسرع ورمى الورقة في يدها وخرج

ففضتها فعرفت انها بخط خريستو فقرات فيها « ان رامزاً حيٌّ وهو آت لنجدتك لا تخافي »

فلم تتمالك ان شهقت من الفرح بغير ارادتها وقالت « رامز ! » ثم انتبهت وخبأت الورقة ولما رات اهل البيت انتبهوا لشهيقها اظهرت انها احست بألم شديد في راسها فلم يستغرب والدها ذلك لعلمه بما لحقها من القهر . اما صائب فلمهارته في الجاسوسية لم يصدق حيلتها وحدثته نفسه بامر طرا عليها من جهة رامز . وكان جالساً في الصالون مع القاضي والشهود فاظهر انه اهتم بامر صحتها فاسرع الى غرفتها ووقف بالباب وقال « هل ادخل يا سيدي ؟ » يخاطب طهماز

فقال « تفضل يا باشا .. لعل وجودك يذهب ألمها »

فدخل وقد ارخت شيرين النقاب على وجهها لتخفي بكاءها فلحظ في يدها ورقة فاصبح همه ان يستخرج تلك الورقة من يدها بالحيلة فقال « دعيني اجس يدك لارى

ما بك » ومد يده نحوها

فاستلت يدها وخبأتها وراء ظهرها فمدَّ يده الى هناك فوقفت ونفرت منه فتبعها واظهر انه يريد الاطلاع على تلك الورقة عنوة . فتمنعت وصاحت فيه بلهجة الاستخفاف وقد عادت اليها قوتها لما علمت ببقاء رامز حياً وانه آت لنجدتها فقالت « ابعد عني يا رجل . . »

فصاح والدها فيها بلحن التوبيخ « ما هذه الجسارة يا شيرين الا تعلمين انك بهذه الوقاحة تحطين من قدري ؟ »

فقال صائب « دعها ياسيدي انها متألمة وانا احب ان ارى الورقة التي في يدها »

فقالت « مالك ولها .. الاحسن لك ان لاتعرف ما بها لانها توقعك باليأس .. »

فضحك وقال « وماذا عسى ان يوقعني في اليأس ؟ » والتفت الى ابيها وقال « يظهر انها حتى الساعة لم تدرك من انا . . . فيا لضيعة المحبة .. هات الورقة .. »

فابتسمت وقد ذهب بعض امتقاع وجهها من ذكرى رامز وقالت « لا بد من اطلاعك على هذه الورقة ؟ . . خذها » ورمتها اليه وجعلت تتفرس فيه لترى ما يبدو منه وقد استعدت للدفاع بالخنجر المخبأ في اثوابها

فلما قرأ الورقة ضحك ضحك التهكم وقال « انهم يهزاون بك .. ان رامزاً اصبح تراباً نجساً مثل سائر رفاقه الاغرار وسترين مصيرهم جميعاً . . »

فلم تصبر شيرين على سماع ذلك الطعن في رامز فخرجت عن تعقلها وصاحت فيه « اخسأ يا نذل . . . ابمثل هذا الكلام تذكر رامزاً . . عار عليك . . ولكنك لاتعرف العار لانك لا تشعر.. ولا ضمير لك »

وكان صائب يعلم ان ما في الورقة صحيح وان رامزاً لا بد ان يأتي اذا عرف بوجودها وان الاحرار فائزون . وتحقق انها لم تعد تقبل بالزفاف اليه فعزم على الانتقام منها بالقتل قبل ان يأتي احد لنجدتها فاستخرج مسدسه وشهره عليها وقال « الا ترجعين عن غيك » ولما رآه طهماز يشهر المسدس حسبه يهددها به فامسك بيد ابنته ليوبخها فانتثرت منه وقد اصبحت كاللبوءة الهائجة . وهمت ان تستل خنجرها وتطعن صائباً فرات باب الغرفة قد فتح بقوة وسمعت طلقاً نارياً وقائلاً يقول « هذا عن جمعية الاتحاد والترقي » وطلقاً آخر وقولاً « هذا عن رامز » وصاح صائب صيحة الالم وسقط على الارض يتخبط بدمه وسقط مسدسه من يده

فوقع الرعب في قلب طهماز ونظر نحو الباب فلم يجد احداً لان الضارب اطلق

مسدسه ونجا فتناول الورقة التي كانت في يد صائب وقراها فلما علم فحواها خاف لكنه اخذ يصيح « ويلاه من ارتكب هذه الجريمة في بيتي » وهرع الى الدار فوجد القاضى ومعه شاهد واحد وهما في خوف فقال له طهماز « ما هذا ؟ من فعل ذلك ؟ »

فقال القاضي « لا ادري يا سيدي ولعل الشاهد الاخر فعله .. والظاهر انه من اعضاء تلك الجمعية السرية وقد تنكر بثياب شاهد ووقف بباب المحكمة الشرعية فلما طلبت شاهدين اتوني بهذين وهو واحد منهما »

وتقاطر الجيران على صوت الرصاص حتى امتلا البيت بالناس

اما شيرين فلما رات صائباً مجندلاً سرها انه لم يقتل بيدها لانها تنزه نفسها ان تكون قاتلة

فغطت وجهها بكفيها وخرجت الى غرفة اخرى واقفلت الباب عليها وتركت اهل الدار يهتمون بتلك الحادثة • وبعث طهماز رسولاً من قبله الى مدير البوليس ان يبعث احداً لضبط الواقعة واوصى الرسول ان ينبه المدير ان المقتول صائب باشا ظناً منه انهم يهتمون ويسرعون للبحث عن الجاني من اجله — وصائب الى تلك الساعة ذومقام رفيع لدى الحكومة طوعاً للاوامر الواردة بشأنه من المابين • ومكث الناس في بيت طهماز ينتظرون مجيء البوليس والجثة مطروحة في الغرفة وقد اقفلوا عليها الباب فطال انتظارهم

فلما استبطأوا الرسول ارسلوا سواه وسواه ولم يعد احد • وهم في ذلك سمعوا ضوضاء في الشارع والناس يصيحون « الحرية والمساواة والاخاء •• الدستور ••• الدستور ليحي الجيش لتحي الامة » فاطلوا فراوا جماعات الناس يحملون الاعلام ويطوفون في الاسواق يهنئون بعضهم بعضاً ويتعانقون ويتصافحون على اختلاف مذاهبهم وعناصرهم • وهم ضاحكون فرحون وقد قام الخطباء والشعراء يخطبون وينظمون فرحاً بالدستور



# الفصل الثمانون

## الفوز الاكبر

ولم يكن طهماز ولا جيرانه او غيرهم ممن في تلك الدار يعلمون بشيء من ذلك • وبالاستقراء علموا ان السلطان اجاب طلب الاحرار باعلان الدستور في ذلك اليوم وان الجند ورجال الحكومة مشغولون بالاحتفال والفرح وان مدير البوليس وغيره من صنائع المابين هربوا او اختبأوا وصارت السيادة الى اعضاء جمعية الاتحاد والترقي . فرأى طهماز التستر اولى به واصبح خائفاً على نفسه فاشار الى القاضي ان يدبر غسل صائب ودفنه بعد ان يخرجه من منزله ودفع اليه المال اللازم واصبح همه مرضاة ابنته لعلمه انها من الاحرار وان رامزاً لا يزال حياً وهو آت فعزم على استرضائها

وكانت شيرين قد اقفلت الغرفة عليها لتنسى منظر صائب الاخير . واخذت تفكر في ما قرأته عن رامز وقرب مجيئه • ثم سمعت الضوضاء في الدار فلم تعبأ بها لانها كانت تتوقع شيئاً من ذلك ريثما تضبط الواقعة فتحولت نحو نافذة تطل على بستان فرات خادمها خريستو يتشوف اليها فاشارت اليه ان يأتي فهرول نحوها وهو يرقص من الفرح فقالت « اين رامز ؟ »

فقال « ربما يأتي في صباح الغد » وقص عليها ما فعله باختصار ثم قال « يظهر ان مقتل صائب ازال عن الامة المصائب وليس عنك فقط »

فقالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « الم تسمعي الضوضاء في الاسواق . . والناس يصيحون فرحين بنيل الحرية والدستور ؟ »

وكانت خالية الذهن من كل شيء لانهم منعوا عنها الجرائد والاخبار فصاحت « الدستور ! الدستور ! ما ذا تقول ؟ »

قال « نعم يا سيدتي قد طلب الاحرار من السلطان ان يمنحهم الدستور فاطاعهم ولذلك حديث ستسمعينه من سيدي رامز افندي . . »

فلم تصدق نفسها لغرابة الخبر وقد تراكم عليها الفرح من كل ناحية حتى ظنت نفسها في حلم — قدوم رامز ونيل الدستور ومقتل صائب ؟ — وهي مع ذلك تتعجب

من امر القاتل ولكنها علمت مما قاله انه من اعضاء الجمعية الفدائيين وتذكرت للحال امها فقالت « ووالدتي اين هي ؟ »

قال « هي في خير بمناستير وربما تأتي مع سيدي رامز . . اصبري الى الغد . . »

وهي في ذلك سمعت قرعاً بباب غرفتها فسألت « من ؟ »

فاجاب « انا طهماز والدك »

فنهضت وفتحت الباب فرأت الدمع في عينيه وقد اكب على ابنته يقبلها ويقول « اهنئك يا حبيبتي بنيل الدستور وببقاء رامز حيًّا . . . قرَّب الله خطواته لنفرح به وبك »

فلم تستغرب هذا الانقلاب من والدها لعلمها بضعفه وكثيراً ما كانت تغضي عن اساءته حتى في ابان ضغطه عليها بشأن رامز وكانت تعذره لقصر ادراكه فلما راته داخلاً على هذه الصورة نسيت اساءاته وقبلت يده وقالت « احمد الله على ذلك ياسيدي » ثم قالت « ادع خريستو الخادم انه في الخارج »

فاسرع اليه وناداه فدخل فقالت له « دبر امر هذا البيت »

اما رامز فان تلغراف خريستو وصله في ساعة وصول تلغراف السلطان الى الجمعية بقبول طلبها اعلان الدستور واصبح في حيرة هل يذهب ويترك القوم يفرحون وحدهم ام يبقى معهم

واخيراً استأذن في الذهاب الى سلانيك مع اول قطر وحمل توحيدة معه وكان والده غائباً عن مناستير فلم يخبره بسفره . فوصلا في صباح اليوم التالي فوجدا خريستو على المحطة في انتظارهما وقص عليهما ما جرى فتأسف رامز لانه لم يكن هو قاتله بيده . ولكنه عرف القاتل وهو الفدائي الذي تبرع بذلك في الجلسة التي ذكرناها وركبوا ورامز يلاحظ حركات الناس في تلك المدينة ومقدار اغتباطهم بالدستور . فلم يكن يجد الا جماعات يتكلمون عن الدستور او يخطبون فيه وفي الاحرار ويتبادلون التهاني والشوارع غاصة بالناس وقد تعانق الشيخ والقسيس والحاخام

وكانت شيرين قد قضت ليلها ارقة من الفرح بقدوم رامز فلما اصبح الصباح بعثت خريستو لاستقبالهم . ولما سمعت صوت المركبة اسرعت الى النافذة فرات والدتها ورامزاً نزلا من المركبة فاسرعت الى استقبالهما بالباب فضمتها والدتها وقبلتها وبكت بكاء الفرح ثم سلمت على رامز مصافحة وقلبها يخفق . فراى رامز تغييراً كثيراً في لونها ولم يفته السبب

ولم يكد يصل الدار حتى استقبله طهماز وضمه الى صدره واخذ يقبله والدمع في عينيه ويقول « الحمد لله على سلامتك يا عزيزي .. » وكان رامز مثل شيرين من حيث حكمها على طهماز فالتفت رامز الى شيرين عند ذلك كانه يستشيرها بشأن والدها فاومأت اليه ان يغض النظر عما مضى . فقبل يد عمه ودخلوا الى الصالون وجلسوا يتحادثون واكثر الحديث بين رامز وشيرين ولواردنا بسطه لاعدنا اكثرما جاء في هذه الرواية

وفي اليوم التالي اتى والده ووافق على الاغضاء عن ذنب طهماز لعلمه بضعفه وقال « ان جمعية الاتحاد والترقي شأنها الاغضاء عن السيئات . وليس في الدنيا من اساءهم مثل عبد الحميد . فلما نالوا الدستور اغضوا عمامضى وعدّوه والدهم وتبركوا به فكيف بوالد الحبيبة ؟ عفا الله عما مضى »

وبعد قليل تكاثر الاحرار في سلانيك من الضباط والملكيين اصحاب رامز وكانوا يحبونه لانه كاتبهم وشاعرهم . فاحتفلوا باقترانه احتفالاً حضره نخبة الاحرار وفيهم انور ونيازي والاميرالاي فوزي بك والقادين ج والدكتور . ن . وكان قد فرغ من مهمته في يلدز . وجمع كبير من الاحرار وكان فرح العروسين مزدوجاً بالاجتماع بعد التشتت ونيل الدستور بعد اليأس منه

تمت الرواية



# موءلفات جرجي زيدان

موءلف هذا الكتاب

## ١ — موءلفاته التاريخية

| البريد | البريد ص | الثمن ص | |
|---|---|---|---|
| | ٤ | ٤٠ | تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية) |
| | ٢ | ٢٠ | « الماسونية العام |
| ٢٠ | | ٣ | « اليونان والرومان (مختصر) |
| | ١ | ٤ | « انكلترا مزين بالرسوم |
| | ٥ | ٧٥ | « التمدن الاسلامي ٥ اجزاء مزين بالرسوم |
| | ٢ | ٢٠ | « العرب قبل الاسلام جزء اول |
| ٢٠ | ١ | ٨ | التاريخ العام الجزء الاول |
| | ٢ | ٤٠ | تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزءان مجلدان (طبعة ثانية) |

---

## ٢ — موءلفاته العلمية واللغوية وغيرها

| البريد | البريد ص | الثمن ص | |
|---|---|---|---|
| | | ٨٠ | الهلال — مجلة علمية تاريخية ادبية تصدر مرة في الشهر مزينة بالرسوم قيمة اشتراكها بالسنة للقطر المصري والسودان |
| | | ١٠٠ | وقيمة اشتراكها بالسنة للخارج |
| | ٤ | ٦٠ | سنو الهلال من السنة الاولى الى الخامسة عشرة ثمن السنة |
| | ٤ | ٨٠ | ومن السنة السادسة عشرة الى الاخيرة « « |
| | ١ | ١٠ | الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية) |
| ٢٠ | | ٥ | تاريخ اللغة العربية |
| | ٢ | ٢٠ | « آداب اللغة العربية الجزء الاول . والثاني تحت الطبع ثمن الجزء |
| ٢٠ | | ٤ | انساب العرب القدماء |

| البريد ص | الثمن ص | |
|---|---|---|
| ١ | ١٥ | علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم |

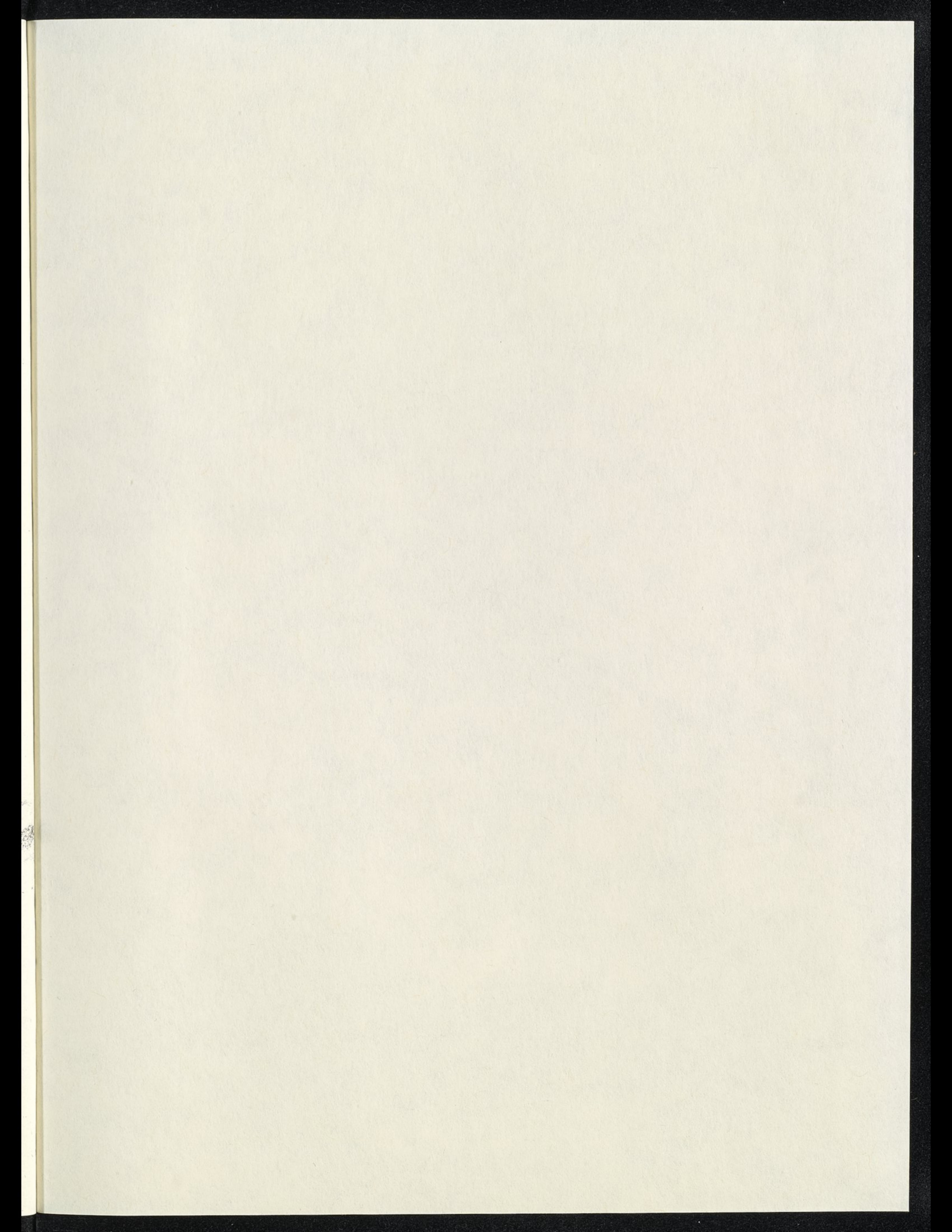
---

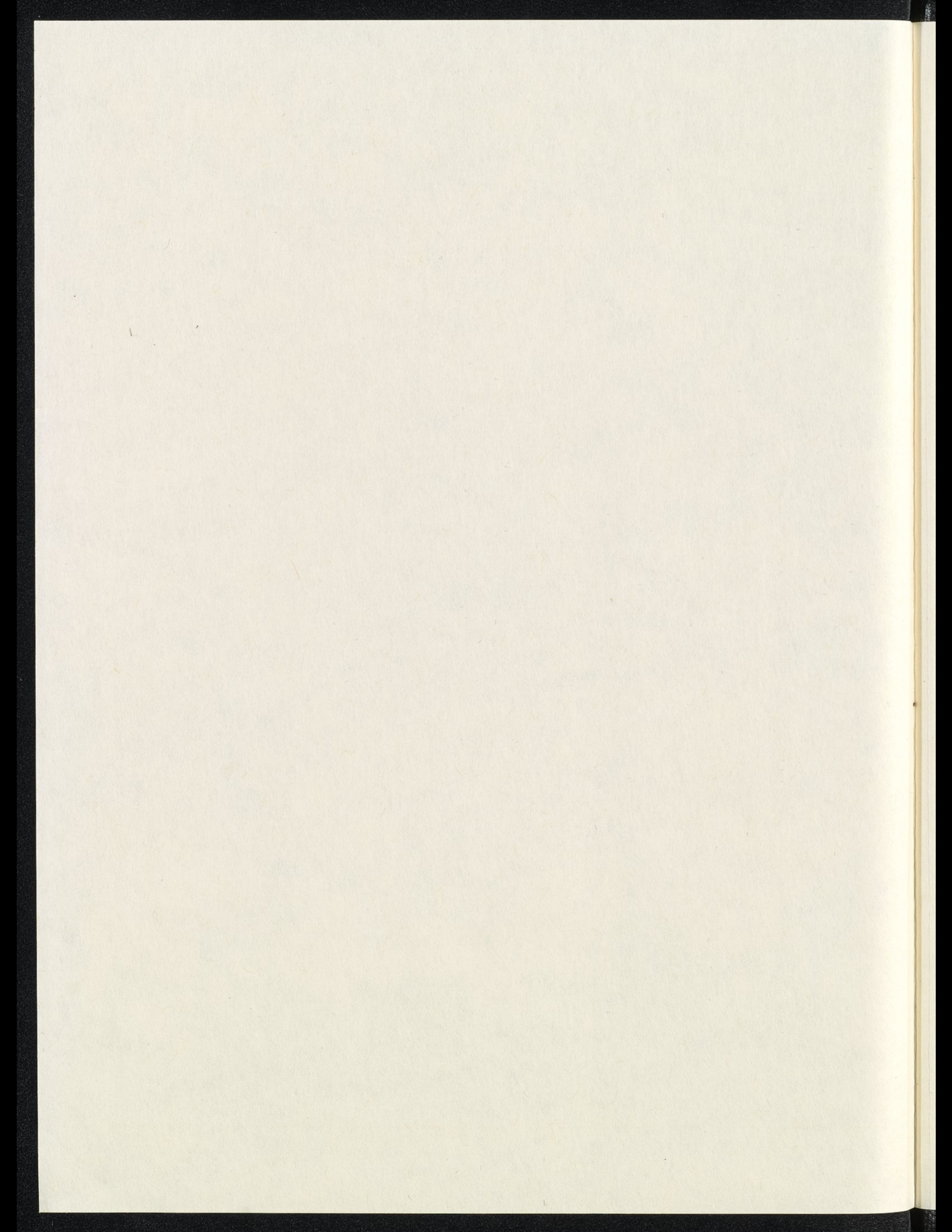
## ٣ – سلسلة روايات تاريخ الاسلام

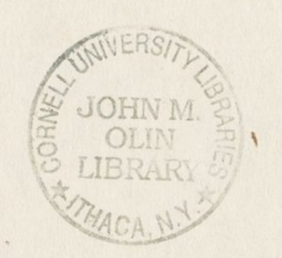
| البريد | الثمن | |
|---|---|---|
| ٣ | ٢٠ | « ١ » فتاة غسان جزآن طبعة ثالثة |
| ٢ | ١٠ | « ٢ » ارمانوسة المصرية « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٣ » عذراء قريش « ثانية |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٤ » ١٧ رمضان « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٥ » غادة كربلاء « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٦ » الحجاج بن يوسف « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٧ » فتح الاندلس « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «٨» شارل وعبد الرحمن « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | « ٩ » ابو مسلم الخراساني « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١٠» العباسة اخت الرشيد « « |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١١» الامين والمأمون |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١٢» عروس فرغانة |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١٣» احمد بن طولون |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١٤» عبد الرحمن الناصر |
| ١ ٢٠ | ١٠ | «١٥» الانقلاب العثماني |

## ٤ – رواياته الاخرى التاريخية

| البريد | الثمن | | |
|---|---|---|---|
| ٢ | ١٠ | اسير المتمهدي | طبعة ثالثة |
| ١ ٢٠ | ٨ | استبداد المماليك | « ثانية |
| ١ ٢٠ | ٨ | المملوك الشارد | « ثالثة |
| ١ ٢٠ | ٦ | جهاد المحبين ادبية غرامية | « ثانية |






CORNELL UNIVERSITY LIBRARIES
JOHN M.
OLIN
LIBRARY
ITHACA, N.Y.